

دكتور
نبيل فاروق

ظل الأرض

كيان كور.دار ليلى

دكتور
نبيل فاروق





د. نبيل فاروق ظل الأرض دار ليلى

الفصل الأوَّل

في بطء ملحوظ، راح قمر الاستطلاع الصناعي يدور حول نفسه، ويفرد كل مجسَّاته عن آخرها، وهو يوجِّه آلات التصوير الرقمية الدقيقة، التي تتراص في واجهة جسمه المعدني، كعشرات العيون الآلية الدقيقة، نحو بقعة بعينها، من أرض المملكة العربية السعودية..

بقعة، تعد أكبر صحراء رملية في العالم، حيث يبلغ طولها ما يقرب من ألف كيلومتر، واتساعها يناهز خمسمائة كيلومتر..

وهى أيضاً، أشد الصحراوات صعوبة، وأصعبها مناخاً؛ فحرارتها تتعدَّى الستين درجة مئوية صباحاً، وتنخفض إلى ما هو أقل من درجات التجمُّد ليلاً، وهذا خلال فصل الصيف!!..

وبسبب اتساعها، وصعوبة وقسوة مناخها، ظلَّت معظم أجزائها مجهولة، بلا أدنى بيانات عنها..

حتى امتدَّت إليها الأقمار الصناعية، التي تجوب خارج الغلاف الجوى الأرض ليل نهار، مساهمة في ثورة الاتصالات العالمية المدهشة، وفاحصة للتغيرات الجوية، والمناخية، والجيولوجية، وتضاريس الأماكن المقفرة والمجهولة..

وبفضل التكنولوجيا المدهشة، بدأت أكبر عملية، في تاريخ المملكة، لدراسة صحراء الربع الخالي..

وعبر القمر الصناعي، والتصوير الرقمي، راحت عشرات الصور تنهمر، على مركز الرصد العالمي، الذي أقيم عند حافة الصحراء، وضمّ أفضل طاقم علماء عربي، في المنطقة كلها..

علماء في الجيولوجيا، وطبقات الأرض، والصحارى، والمناخ، وعلم الحيوان، والنبات، وحتى الرصد الكهرومغناطيسي..

طاقم مدهش، راح يستقبل، ويدرس، ويفحص، ويحلّل كل صورة تحمله، من صور القمر الصناعي..

مئات الصور، كانت تثبت أن الحياة تتغلّب دوماً، على أصعب وأشق ظروف الطقس والمناخ..

لم تكن حياة بشرية، وإنما رصد العلماء حيوانات قارضة، وحشرات ضخمة، وعناكب مرقّطة، و...

"ما هذا بالضبط؟!.."..

نطقها واحد من العلماء، في دهشة بالغة، وهو يحدّق في إحدى الصور، على شاشة الكمبيوتر، فالتف حوله عدد من زملائه، يطالعون الصورة بدورهم، وغمغم أحدهم، في دهشة بالغة:

– تبدو لي أشبه بجمجمة بشرية.

أشار آخر إلى ركن الصورة، مضيفاً:

– وهذه تبدو أشبه باليد.

تمتم أحد العلماء، في شيء من التردُّد، وبلهجة لم تنجح في إقناعه شخصياً:

– ربما هي جثة أحد الشباب، الذين فقدوا في الربع الخالي، خلال السنوات الماضية.

هزّ العالم الأوّل رأسه نفياً في بطء، وهو يقول:

– من المستحيل أن يتوغّل أحدهم، حتى هذا العمق من الربع الخالي، في ظل مناخه الرهيب.

وهتف ثالث، في توتر ملحوظ:

– ثم هناك النسب.. طالعوا النسب.

هتافه جعل الجميع ينتبهون إلى أمر، غاب عنهم بالفعل..

فوفقاً لنسب التلال المحيطة، ولمقياس الرسم، المدوّن في ركن الصورة الرقمية، كان من المستحيل أن تكون هذه صورة جمجمة بشرية عادية..

فبكل المقاييس، كانت جمجمة هائلة الحجم..

هائلة، إلى حد أنها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم أكبر جمجمة بشرية معروفة..

على الأقل!!..

وبمنتهى الحيرة، غمغم أحدهم:

– ما هذا؟!.. عملاق؟!..

راح أحدهم يجرى حساباته في سرعة، قبل أن يقول في انفعال:

– وفقاً لحجم الجمجمة، والمسافة بينها وبين تلك اليد في الركن، لن يقل حجم صاحب هذا الهيكل العظمى، عن سبعة أمتار، ونصف المتر.

اتسعت عيونهم كلها بمنتهى الدهشة؛ لأنهم يعلمون تمام العلم، أن حساباته صحيحة وسليمة تماماً..

إنه هيكل عملاق غامض..

عملاق كان يبلغ سبعة أمتار ونصف المتر طولاً..

على الأقل..

وطوال ساعة كاملة، وقبل أن يبلغوا الأمر للسلطات رسمياً، راح طاقم العلماء، بأكمله، يدرس تلك الصورة..

فحصوها بكل الطرق المعروفة، وراجعوا بياناتها، وعمدوا إلى تكبيرها على الكمبيوتر، تسعة أضعاف حجمها الأصلي، ثم دفعوا القمر الصناعي إلى إعادة التقاط صور المنطقة ثلاث مرات مختلفة..

وبعد كل هذا، لم يعد هناك أدنى شك..

إنها جمجمة عملاق بالفعل..

وفى هذه الحالة، يتحتم إبلاغ السلطات الرسمية؛ لاتخاذ ما يلزم، في هذا

الشأن..

وبعد ست ساعات من إبلاغ السلطات، وصلت هليوكوبتر حربية خاصة، إلى مركز الرصد، وهبط منها رجل يرتدى زياً مدنياً أنيقاً، دخل إلى المكان وهو مفرود القامة، ممشوق القوام، وصافح مدير المركز بيد قوية، وهو يقول:

– (فراس ناظم).. مندوب حكومي خاص؛ لمعالجة المشكلة.

أجابه مدير المركز، وهو يسحب يده، التي شعرت بالألم:

– ليست مشكلة.. إنه كشف علمي.. وربما أقوى كشف علمي، منذ العثور على إنسان (نايندرتال).

رفع المندوب الحكومي يده أمام وجهه، قائلاً في صرامة:

– لا مصطلحات علمية يا رجل.. أريد معرفة الموقف، بأبسط كلمات ممكنة.

التقط مدير المركز نفساً عميقاً، وهو يشعر بالسخط على النظم الحكومية، التي ترسل دوماً رجال أمن غير علميين، وليست لديهم أدنى ثقافة علمية، للبت في أمور علمية بحتة، ولكنه كتم مشاعره في أعماقه، وهو يقول:

– لا بأس.. يمكنك أن تقول: إننا قد عثرنا، مصادفة، على كشف علمي بالغ الأهمية، قد يقودنا إلى حقبة تاريخية كاملة، لم ينتبه إليها أحد بعد، وهذا يعد أعظم كشف علمي، في هذا القرن، و...

قاطعه (فراس) في حزم:

– وكيف يمكننا التيقُّن، من صحة الأمر؟!

أشار مدير المركز بيده، قائلاً:

– لقد راجعنا صور الأقمار الصناعية ثلاث مرات، و...

قاطعه (فراس) مرة أخرى، في صرامة شديدة:

– بخلاف الصور.

أدرك المدير ما يعنيه، فتنهَّد، قائلاً:

– إننا نقترح إرسال بعثة استكشاف؛ لفحص المنطقة كلها، والتأكُّد من...

قاطعه (فراس) مرة ثالثة، وكأنها عادته في التخاطب مع الآخرين:

– وماذا عن إرسال هليوكوبتر؟!

بدت الدهشة على وجه مدير المركز، وهو يقول:

– هليوكوبتر؟!.. كل ما ستفعله الهليوكوبتر، هو الاقتراب من المكان، وإثارة عاصفة من الرمال فحسب، وهبوطها قد يفسد أو يتلف الكثير من الآثار، التي من المفترض أن تفحصها البعثة الاستكشافية.

عقد (فراس) كفيه خلف ظهره، وسأل في صرامة:

– ولكنها تستطيع أن ترى، وتصوِّر.

قال المدير متوتراً:

– بالتأكيد.

سأله (فراس)، بنفس الصرامة:

– وهل ستكون صورها أكثر وضوحاً، من صور الأقمار الصناعية؟!

تردَّد مدير المركز لحظات، قبل أن يقول:

– بالتأكيد، وخاصة لو تم استخدام آلة تصوير رقمية دقيقة، بوساطة محترف، و...

قاطعه (فراس) كعادته، وهو يخرج هاتفه الخلوي من جيبه، قائلاً:

– عظيم.

راقبه مدير المركز في دهشة بالغة، وهو يجري اتصالاته؛ لإحضار هليوكوبتر حربية خاصة، مع مصوِّر محترف، وقفزت إلى ذهنه فكرة، يمكنه أن يعبِّر عنها بعبارة واحدة..

يا للحكوميين!!..

• • •

انهمك المهندس المصري (عزت صابر)، في مراجعة صور الأقمار الصناعية، التي أرسلوها إليه، وفحصها بعدسته المكبِّرة القوية، قبل أن يراجع جدول الموجات الكهرومغناطيسية للمنطقة، والذي بدا له مخالفاً، لما يفترض أن يكون عليه..

فهناك، في منطقة تزيد مساحتها عن ثلاثمائة متر مربع من الرمال، كانت هناك موجة كهرومغناطيسية غير طبيعية..

موجة سلبية!!..

لقد درس تلك الموجات السلبية، كاحتمال نظري، إبان دراسته في قسم

الفيزياء التجريبية، ولكنه لم يعهد مثلها عملياً قط.

ولم يتصوَّر..

أو يتوقَّع..

أو حتى يتخيَّل رؤيتها، في عالم الواقع..

فالموجات الكهرومغناطيسية السلبية، تماماً مثل الطاقة السلبية، ما زالت افتراضاً نظرياً، وضعته قوانين الفيزياء، من أيام نظرية آينشتاين..

كل المعادلات تؤكِّد وجودها..

قوانين الفيزياء تثبتها..

ولكن الطاقة الهائلة، التي يتطلَّبها وجودها، لا يمكن أن تتاح، إلا لو جندنا الطاقة، التي تستهلكها مدينة مثل (نيويورك)، في شهر كامل؛ لإنتاجها..

وهذا لا يمكن أن يحدث.. عملياً..

لهذا بدت الصور مدهشة، ومثيرة للاهتمام والحيرة، بالنسبة إليه، حتى أنه راح يراجعها مرة.. وثانية.. وثالثة، ويعيد معادلاته، وحساباته، وحتى برنامج الكمبيوتر، أكثر من خمس مرات، و...

"(عزت).. ألديك وقت؛ لفحص تطور جديد؟!.."..

قطع أفكاره وحساباته صوت ذلك العالم، الذي تسلَّل إلى معمله في خفة، فانتفض جسد (عزّت) لحظة، من تأثير المفاجأة، وحدَّق فيه على نحو عجيب، وكأنه أوّل بشرى يراه في حياته، قبل أن يهز رأسه، مجيباً، في شيء من التوتر،

بدا في تلك اللحظة، وكأنه لا يوجد ما يبرِّره:

- أي تطوّر؟!

اقترب ذلك العالم منه، وناوله اسطوانة مدمجة، قائلاً:

- أمر عجيب، تصوَّرنا أنك الوحيد القادر على تفسيره، باعتبارك.. أعني أنك.. كلنا رأينا.

كان مرتبكاً على نحو مثير للتساؤل، فالتقط (عزت) الاسطوانة المدمجة منه، مغمغماً، دون أن يفارقه توتره:

- لا بأس.. لا بأس..

دسّ الاسطوانة في الفراغ الخاص بها، في جهاز الكمبيوتر، وتراجع ينتظر عملها آلياً..

ولم تمض لحظات، حتى ظهرت مجموعة من الصور والمنحنيات على الشاشة، ولم يكد هذا يحدث، حتى انعقد حاجبا (عزت) في شدة، وهو يعتدل بحركة حادة، ويكاد يلصق وجهه بشاشة الكمبيوتر..

فالصور كانت مدهشة بالفعل..

وإلى أقصى حد..

ففي عدة صور، وعلى الرغم من أن البيانات الرقمية كلها متوازنة، إلا أن ما يشبه دائرة كاملة، في قلب صحراء الربع الخالي، كان خالياً تماماً..

لم يكن خالياً من المخلوقات الحية..

أو حتى الرمال..

ولكن من كل شيء..

وأي شيء..

كان مجرَّد فراغ أبيض تماماً..

خواء..

عدم..

وبدهشة الدنيا كلها، راح (عزت) يفحص الصور، والعالم من خلفه، يقول في توتر بالغ شديد:

- لقد راجعنا القمر الصناعي نفسه ثلاث مرات، وبحثنا عن أي عطب أو خلل، في برامجه الرقمية، أو في آلات التصوير داخله، ولكننا وجدنا كل شيء يعمل على ما يرام، والصور التي تلتقط لأي منطقة أخرى، تظهر عادية وطبيعية تماماً، أما هذه..

لم يحاول إتمام عبارته، باعتبار أن الأمر أوضح أن يتم شرحه، في حين تضاعفت دهشة (عزت) مرتين على الأقل، وهو يراجع البيانات الكهرومغناطيسية، لتلك البقعة الخاوية..

هناك أيضاً طاقة سلبية هائلة..

فجوة مهولة، في التوازن الكهرومغناطيسي، للمنطقة كلها..

وهذا أمر محيِّر..

ومربك..

ومذهل..

وبينما راح العالم يتحدَّث في انفعال، لم يسمع (عزَّت) حرفاً واحداً مما يقول؛ فقد انشغل ذهنه تماماً، في محاولة فهم هذا الأمر..

تلك الصحراء الهائلة تواصل إثارة إحساسه بالحيرة والغموض، منذ حداثته..

فقديماً، كانت بالنسبة إليه مجرَّد اسم، يتردَّد في وسائل الإعلام، ويحفظه على الخارطة، في دروس الجغرافيا، حتى انهمك، كمعظم أقرانه، في المرحلة الثانوية، في قراءة عدة كتب عن الغوامض..

ولقد استوقفته طويلاً قصة (أتلانتس)..

تلك القارة، التي نقلها الحكيم اليوناني (صولون)، عن كهنة (مصر) القديمة، والتي ذكرها الفيلسوف (أفلاطون)، في محاورته المعروفة باسم محاولة (كريتياس)..

أيامها، قرأ الكثير والكثير عنها..

قرأ ما قالوه، عن أنها كانت تحتل بقعة كبيرة، من المحيط الأطلسي، بين (أفريقيا) و(أمريكا)، ثم غرقت في المحيط، إثر حرب طاحنة، وكارثة كبرى..

ثم طالع كل النظريات، التي خالفت هذا..

نظرية قالت: إنها جزيرة (كريت)، حيث قصر التيه..

أو أنها غارقة، في صحراء (الجزائر)..

أو صحراء (اليمن)..

أو (مصر)..

وأيامها، وبخلاف كل النظريات المعروفة والمنشورة، وضع هو نظريته الخاصة جداً..

نظرية تقول إن (أتلانتس) قد غرقت بالفعل في صحراء، وليس في محيط.

صحراء الربع الخالي..

لم يضع تلك النظرية، بناءً على دراسات علمية، أو شواهد ودلالات، وإنما لأنه انبهر أيضاً بصحراء الربع الخالي، واتساعها، وغموضها..

وحتى بلغ السنوات الأولى، في دراسته الجامعية، كانت تلك النظرية تسيطر على عقله تماماً، ثم لم تلبس دراسته أن خلبت لبه، وسيطرت على عقله، وانغمس فيها بكل مشاعره، حتى نسي تماماً أمر (أتلانتس) ونظريات وجودها واختفائها..

والآن، وبعد عشر سنوات من تخرُّجه، وبينما يقترب من عامه الثلاثين، أصبح واحداً من أشهر خبراء الموجات الكهرومغناطيسية في (مصر)، وفي العالم العربي كله..

وربما لهذا وقع اختيارهم عليه، للانضمام إل طاقم العلماء، المسئول عن دراسة صحراء الربع الخالي، وكشف أسرارها..

وعندما وصل إلى مركز الرصد، عاوده ذلك الشعور بالشغف والاهتمام والرهبة، تجاه تلك الصحراء الهائلة..

واستعاد عقله عالم (أتلانتس) ونظرياتها..

ولكن، وكما حدث في المرة السابقة، سرعان ما جذبه العمل، وانهمك في فحص ذلك الكم الهائل من الصور والمنحنيات الكهرومغناطيسية، ونسي كل شيء..

ثم جاءت تلك الصور، والمنحنيات السلبية، لتعيد الفكرة إلى رأسه..

وبمنتهى العنف..

وبينما يراجع الصور في حيرة، وجد نفسه يستعيد نظريته القديمة..

لماذا لا يكون كل هذا، بسبب طاقة هائلة تنبعث من تحت الرمال، فتعكس المجال الكهرومغناطيسي للمنطقة؟!..

الحديث القديم عن قارة (أتلانتس) أشار إلى كرة من الطاقة، كانت تمد القارة كلها بالدفء والأمان..

فماذا لو أن (أتلانتس) كانت بالفعل هناك؟!..

في قلب صحراء الربع الخالي..

وماذا لو أنها غرقت في الرمال، إثر كارثة ما، وبقيت كرة الطاقة، تبث طاقتها، من هناك؟!..

من تحت الأرض؟!..

ذلك التفسير، ربما يبدو منطقياً، بالنسبة لأفكاره السابقة، ولكنه لا يصلح

قط كتحليل رسمي، يقدّمه للمسئولين، كتحليل علمي لما يراه أمامه!..

"ماذا تقترح؟!.."

اخترق السؤال أفكاره بغتة، على لسان العالم، الذي يقف خلفه متوتراً، أو أنه كان أوّل ما سمعه فعلياً منه، ولكنه استدار إليه في بطء، ونطق أوّل ما جال بخاطره:

- رحلة استكشاف ميدانية.

وكان هذا ما يحتاجه الأمر بالفعل..

احتكاك مباشر..

تماماً..

* * *

حلّقت الهليوكوبتر العسكرية السعودية، وعلى متنها مصور محترف، فوق تلك البقعة في صحراء النقب، حيث عثروا على ذلك الهيكل العظمى العملاق، وقال قائدها، وهو يبدأ الانخفاض، ويحوم في دورة كاملة حول المكان:

- من الصقر إلى القاعدة.. نحن فوق منطقة الهدف.. سنحاول الهبوط إلى ارتفاع مائتي متر، وننتظر أوامركم.

استقبل (فراس) الاتصال، في وحدة الرادار، الملحقة بمركز الرصد، فالتقى حاجباه، وهو يقول في صرامة:

- نريد صور واضحة وقريبة، وذات تركيز رقمي مرتفع.. ومن كل الزوايا

الممكنة.

أتاه الجواب، عبر جهاز البث:

- علِمَ وينفّذ.

راقب (فراس) شاشة الرادار الرقمي، مع عدد من العلماء، والهليوكوبتر تواصل هبوطها؛ لتقترب أكثر وأكثر، من ذلك الهيكل البشرى العملاق، وتمتم أحد العلماء في انفعال واضح، ولهفة شديدة:

- سيكون من الجيِّد، لو أمكنهم التقاط بضع صور قريبة، لتلك الجمجمة البشرية العملاقة، أو..

قاطعه (فراس) في صرامة:

- سيفعلون.

قالها في اقتضاب شديد، ثم عاد يراقب شاشة الرادار في صرامة، فامتقع وجه العالم، الذي قاطعه بعبارته، وتبادل الآخرون نظرة صامتة، ثم قال أحدهم في خفوت، تفوح منه رائحة سخط وغضب:

- قل: بإذن الله.

تجاهل (فراس) العبارة، أو أنه لم يسمعها، وهو يراقب الشاشة بمنتهى الاهتمام والتركيز..

كان الموضوع يقلقه في الواقع، أكثر مما يقلقهم، على الرغم مما يبدو عليه، من صرامة وغطرسة ولا مبالاة..

ربما لأنه يعرف أكثر منهم..

أمنياً على الأقل..

يعرف أكثر بكثير..

فمنذ ما يقرب من شهرين، فقدت القوات الجوية السعودية سرباً من ست طائرات مقاتلة حديثة، فوق المنطقة نفسها!!..

كلها كانت تنطلق، في رحلة تدريبية تقليدية، عندما أصيب الرادار بلوثة مفاجئة، واختلّت كل معطياته الرقمية..

ثم اختفت الطائرات الست!!..

اختفت تماماً، دون أن تبث رسالة استنجاد واحدة، أو تترك خلفها أدنى أثر..

تماماً كما حدث لسرب (تشارلز تايلور)، في مثلث (برمودا)، عام **1946**م، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل..

وكما حدث أيضاً في (برمودا)، انطلقت طائرة إنقاذ؛ للبحث عن السرب المفقود، ولكن تلك اللوثة أصابت الرادار الرقمي مرة أخرى..

وبعدها، اختفت طائرة الإنقاذ..

وأيضاً، دون أن تترك خلفها أدنى أثر..

لا شظايا..

أو بقايا..

أو حتى بقعة زيت، تغطي الرمال..

وعلى الرغم مما حدث، وبخلاف قواعد الأمن المتبعة، أرسل المسئولون سرباً من ثلاث طائرات هليوكوبتر، للبحث عن بقايا أو شظايا الطائرات المفقودة، على ارتفاع منخفض، وفي هذه المرة، أضافوا آلة تصوير رقمية، متصلة بالأقمار الصناعية، حتى يمكن أن ترسل الطائرات سيلاً متصلاً من الصور، المتحركة، طوال الوقت، لتحديد ما يحدث بالضبط.

ولكن مصير طائرات الهليوكوبتر الثلاثة، لم يختلف كثيراً عن مصير الطائرات السابقة.. كل ما اختلف، هو أن اضطربت صورة آلة التصوير فجأة، واقترن هذا بصوت المصوّر، وهو يقول في دهشة:

- مستحيل!.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.

ثم فجأة، عاد الرادار يصاب بالجنون..

وانتهى كل شيء..

وهنا، قرّر المسئولون، التوقُّف تماماً عن البحث، وعن خسارة المزيد من الطائرات، حتى يتم كشف ما يحدث هناك..

ولهذا السبب بالذات، وعلى الرغم من إخفاء ما حدث، تم إنشاء مركز الرصد واستئجار وقت مفتوح، على قمر الاستطلاع الصناعي..

وطاقم العلماء، الذين تم التعاقد معهم، من كل أنحاء الوطن العربي، من كافة التخصصات، يجهلون هذه الأحداث تماماً..

كل ما يعرفونه، هو أن مهمتهم هي دراسة المناطق المجهولة، من صحراء الربع الخالي..

ولكن حتى المسئولين أنفسهم، وعلى رأسهم (فراس)، لم يكونوا يتوقعون قط هذه النتيجة المدهشة..

هيكل بشري عملاق..

نتيجة قد تعني كل الاحتمالات الممكنة..

قد تعني أن تلك البقعة من الأرض كانت، أو ما زالت مهد عمالقة أشداء، لم يتم رصدهم بعد..

عمالقة أشبه بالييتي، أو رجل الجليد، الذي وصفه العديدون، من الرحّالة والمستكشفين، دون أن يصوّره، أو يظفر به أحد..

عمالقة يمكنهم احتمال درجات الحرارة المرتفعة، ودرجات البرودة القارصة، في الوقت ذاته.. وقد تعني أن المنطقة هي مهبط لكائنات فضائية عملاقة، هبطت أو تهبط بإرادتها، أو أن مركبتها قد سقطت مصادفة، أو بفعل خطأ ما، مثلما حدث في واقعة (روزويل)، في ولاية (نيومكسيكو) الأمريكية، عندما سقط طبق طائر، يحوي ثلاثة كائنات فضائية، لقي منها اثنان مصرعهما، وما زالت الولايات المتحدة تحتفظ بجسد الثالث مجمداً، في المنطقة العسكرية السرية، المعروفة بالمنطقة (51)..

كل الاحتمالات ممكنة..

كلها بلا استثناء..

والمسئولون شديدو الاهتمام، بكشف هذا اللغز..

ولكن اهتمامهم الأكبر ينصبّ، على الحصول على عينة من الحامض النووي لذلك العملاق، لو أمكن..

فدراسة تلك العينة، قد تكون أهم دراسة حربية، في التاريخ الحديث كله..

شعر (فراس) بتوتر شديد في أعماقه، وهو يستعيد تلك الذكريات، وعيناه تتابعان حركة الهليوكوبتر، على شاشة الرادار، وأحد العلماء من خلفه، يقول في حماس:

- لو كانت الصور واضحة، ستوضع أسماؤنا في كتب التاريخ العلمي حتماً..

وازداد انعقاد حاجبي (فراس)، وهو يسمع العبارة..

يا للعلماء!!..

كل ما يعنيهم هو نظرياتهم، وكشوفهم، وابتكاراتهم.. وجوائزهم..

إنهم لا يفقهون أو يدركون شيئاً، عن نظريات الأمن والأمان، التي لا يمكنهم أن يصنعوا شيئاً بدونها..

فكل ما يعنيهم، هو أن توضع أسماؤهم، في كتب تاريخ العلم، وأن يحصلوا على الجوائز والميداليات والنياشين..

أما هو وأقرانه، فيسمون خلف التفوّق العسكري.

ذلك التفوّق، الذي وضع الولايات المتحدة الأمريكية على قمة العالم، في العقد الأخير من القرن العشرين، وحتى تلك اللحظة...

بل، وربما وضعها هناك، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما ألقت قنبلتيها الذريتين، على (هيروشيما) و(ناجازاكي)، وأصابت العالم كله بذعر، ما بعده ذعر، وأثبتت أن القوة العسكرية وحدها، هي مقياس السيادة..

صحيح أن العلم هو ما يصنع التفوّق العسكري، ولكنه يبقى - بالنسبة إليه - مجرّد عامل مساعد..

أما القوة، فهي كل شيء..

والحصول على عينة حمض نووي صالحة، من ذلك الهيكل العملاق، قد تصنع هذا التفوق، عن طريق واحد من أقوى مبتكرات العلم الحديث..

هندسة الوراثة والجينات..

فبوساطة العينة، يمكن استنساخ جيش من العمالقة..

جيش، لو أحسن تسليحه، لأصبح كافياً، لإثارة ذعر أية قوات أرضية، ولمواجهة أي إرهاب محتمل..

نعم.. هندسة الوراثة هي أقوى سلاح للمستقبل..

أقوى سلاح على الإطلاق..

فاته، وهو يستطرد في أفكاره، أن هندسة الوراثة، ليست سوى علم..

وأن العلم هو الذي يصنع القوة، وليس العكس..

فاته هذا، وهو منهمك في متابعة الهليوكوبتر، التي واصلت هبوطها، حتى أصبحت على ارتفاع مائة متر فقط من الأرض، وبدأ المصوّر بداخلها يلتقط صوراً شديدة الوضوح، لذلك الهيكل العملاق، وهو يقول، بكل دهشته وانفعاله:

- مستحيل!.. مستحيل أن يكون هذا الشيء حقيقياً.

ثم هتف بالطيّار:

- هل تصدّق هذا؟!

أجابه الطيار في صرامة، وهو يحوم في بطء حول الهيكل المارد، ليسمح له بالتقاط أكبر قدر من الصور، من كافة الزوايا:

- إننا لا نتقاضى أجرنا لنصدّق أو ننكر.. كل ما علينا هو طاعة الأوامر فحسب.

هزّ المصوّر كتفيه، ودهشته وحيرته ترفضان مفارقته:

- وها نحن ذا نفعل.

عقد الطيّار حاجبيه دون تعليق، وواصل التحليق فوق ذلك الهيكل، محاولاً كتمان كل دهشته وانفعاله في أعماقه..

إنه لم ير في حياته كلها شيئاً كهذا!!..

ولم يتصوّر حتى أنه يراه..

الأمر يبدو بالنسبة إليه، أشبه بأفلام الخيال العلمي، المغرقة في المبالغة..

هيكل عملاق، في قلب الصحراء!!.

يا له من مشهد!..

من المستحيل أن يتخيَّل أن ذلك الشيء كان حياً، يوماً ما!..

من غير الممكن أن يتصوَّره يمشي على قدمين، ويتكلَّم، ويتحرَّك، ويفكِّر، كما يفعل أي بشري عادي!..

ولكن كيف تبدو قدماه؟!..

سؤال جال بخاطره، وهو يحوم ويحوم، حول الهيكل العملاق..

فالرمال كانت تخفي معظم الهيكل، فلا يبدو منه سوى القسم الأعظم من الجمجمة، وجزء من الذراع الأيسر، وثلاثة من أضلع الصدر، المجاورة لها..

أما باقي الهيكل والقدمين، فتغمره الرمال تماماً، مما يفسح ساحة هائلة للخيال..

وربما يدفعك لتخيُّل ألف شكل وشكل، لقدمين لا تشبهان أقدام البشر في شيء..

قدمان غير أرضيين..

على الإطلاق..

كان يستغرق في أفكاره هذه، إلا أنه طردها عن ذهنه في سرعة، وقال في عصبية مقصودة:

- ألم تنته بعد؟!..

تمتم المصوِّر، وهو يمارس عمله، في شيء من الشغف:

- ليس بعد.

كان يحاول التقاط أكبر كم من الصور، وأكثرها قرباً ووضوحاً، و...

فجأة، هتف الطيار:

- رباه!.. ما هذا؟!

أدار المصوِّر عينيه، اللتين اتسعتا في ارتياع، جعله يفلت آلة التصوير، صارخاً:

- لا.. مستحيل!.. مستحيل!..

نقلت أجهزة الاتصال هتاف الطيار، وصرخة المصوِّر، فأثارت موجة عنيفة من الذعر والدهشة، في حجرة الرادار، بمركز الرصد، وجعلت (فراس) يصرخ في توتر بالغ:

- ماذا حدث أيها الصقر؟!.. ماذا يحدث عندك.

وبدلاً من أن يسمع جواب الطيَّار، انطلقت عبر أجهزة الاتصال شوشرة قوية، كادت تصم آذان الجميع، في حين اضطربت صورة الرادار في عنف، وراحت أجهزته الرقمية تطلق سيلاً من المعطيات المرتبكة، فضمَّ (فراس) أذنيه، وهو يصرخ:

- لا.. ليس مرة أخرى.. ليس مرة أخرى.

التفت إليه مدير المركز، في دهشة مستنكرة، قبل أن يصرخ فني الرادار في ذعر:

- رباه!.. إنه ينقض علينا.

صاح به (فراس)، في توتر بالغ:

- ما هذا الذي ينقض عليكم؟!

قبل أن يجيبه فتى الرادار، ارتج مركز الرصد في عنف، وصاح أحد العلماء، بكل رعب الدنيا:

- ماذا يحدث؟!

مع نهاية كلماته، انطلقت من أجهزة الاتصال موجة صوتية عنيفة..

موجة، تحطّمت معها كل النوافذ الزجاجية في المكان، وتناثرت شظاياها في كل الاتجاهات، على نحو بالغ العنف..

وصرخ الجميع..

صرخوا بمنتهى الرعب..

ومع صرخاتهم، تشقّقت جدران المكان، وانهارت أجزاء من السقف، ثم انقطع التيار الكهربي..

وتضاعف الرعب..

بلا حدود.

• • •

الفصل الثاني

بكل ذهول الدنيا، حدّق المهندس (عزت) في تلك الصور المدهشة، على شاشة جهاز الكمبيوتر المحمول، في أحد الأركان التي لم تسقط بعد، من مركز الرصد..

لقد كانت الصور كلها تنقل ما بدا وكأنه موجة كهرومغناطيسية سلبية شديدة العنف.. موجة لا يمكن أن يكون هناك من رآها من قبل..

وبحسابات سريعة، بدا له أن إطلاق موجة كهذه، يحتاج إلى قدر من الطاقة، يمكن أن ينير العالم كله، ليومين على الأقل..

وبكل تكنولوجيا العالم، التي نحيا فيها يبدو له هذا، نظرياً وعملياً، مستحيلاً..

مستحيل تماماً..

"اشرح لنا لماذا؟!..".

نطق (فراس) السؤال خلفه في صرامة، فالتفت إليه (عزت) في بطء، وقال في صرامة مماثلة:

- اصمت.

بدت الدهشة على وجوه الجميع، وهالهم ما قاله (عزت)، الذي عاد يلتفت إلى شاشة الكمبيوتر المحمول، ويراجع الصور في اهتمام، في حين ارتفع حاجبا (فراس)، في استنكار ذاهل، ثم عادا ينعقدان في ضيق..

ولكنه لاذ بالصمت..

الكل لاذ بالصمت، وهم يراقبون (عزت)، الذي انهمك لنصف ساعة كاملة، في مراجعة الصور، والمعادلات، والأرقام، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، خلال الفترة كلها، ثم تراجع هو في مقعده، مغمغماً:

- مستحيل!

سأله (فراس) في عصبية، أراد بها إخفاء عصبيته الشديدة، التي تسللت، على الرغم منه إلى لهجته:

- ما المستحيل بالضبط؟!.

التفت إليه (عزت) مجيباً، وهو يشير إلى شاشة الكمبيوتر المحمول:

- ما ترونه أمامكم على الشاشة، مستحيل تماماً، من الناحيتين، النظرية والعلمية.

غمغم أحد العلماء:

- ولكننا نراه بالفعل، وهذا يعني أنه حقيقة.

أدار (فراس) بصره بينهما، في توتر ملحوظ، قبل أن يقول، في عصبية سافرة:

- ما معنى هذا اللغز؟!

عاد (عزت) يشير إلى الشاشة، قائلاً:

- معناه ببساطة، أننا نواجه حالة مدهشة، ورد ذكرها في العديد من النظريات الفيزيائية العلمية، ولكن أحداً لم يرها رأى العين قط. حالة، تحتاج لكي نراها على هذا النحو، إلى طاقة مذهلة، لا يمكن توليدها في عصرنا هذا، حتى باستخدام المفاعلات النووية.

حدّق (فراس) في الشاشة، محاولاً فهم ما يراه، في حين تساءل أحد العلماء في انفعال:

- هل تعتقد أن هذه الظاهرة، يمكن أن تنشأ عن تفاعل طبيعي، أيا كان نوعه؟!

هزّ (عزت) رأسه في قوة، مجيباً:

- مستحيل!!.. لا أحد يمكنه الاستهانة بقوة الطبيعة، القادرة على هدم حضارات بأكملها، ولكن تلك الموجة الهائلة تحمل طاقة سلبية، لا يمكن للطبيعة إنتاجها..

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في حذر:

- في عالمنا على الأقل.

انعقد حاجبا (فراس) بشدة، مع التوتر الذي ارتسم على وجوه طاقم العلماء، وقال في حدة:

– ماذا تعني بعبارتك الأخيرة؟!.. أهذا الشيء، الذي هاجم مركز الرصد، بكل هذا العنف، وحشي من عالم آخر أم ماذا؟!

أجابه (عزت)، في شيء من الضجر، امتزج بتوتره:

– الذي هاجم المركز، وتسبَّب في كل هذا الدمار لم يكن شيئاً ملموساً، من أي عالم.

هتف (فراس) في حدة أكثر:

– ولكنني رأيته بنفسي، على شاشة الرادار:

بدا الضجر أكثر على وجه (عزت)، وهو يلتفت إليه، قائلاً:

– ليس بالضرورة أن يرى الرادار أجساماً مادية؛ فهو لا يراها فعلياً، وإنما يرى الموجات، التي يطلقها لتنعكس عليها، ثم ترتد إليه.

قال (فراس)، في شراسة:

– قلت أنني لا أريد مصطلحات علمية.

أجاب (عزت) في هدوء، لا يخلو من الضجر:

– إنني لم أنطق مصطلحاً واحداً بعد، وكل ما أريد قوله: هو أن ما انقض علينا كانت موجة كهرومغناطيسية سلبية عنيفة، أشبه بالأعاصير، أو موجات البحر العملاقة، ولقد استقبلتها أجهزة الرادار الرقمي، وسجلتها وكأنها موجات مرتدة عن جسم هائل.

أشار (فراس) إلى الشاشة، هاتفاً:

– لا تحاول أن تقنعني أن موجة لاسلكية، يمكنها أن تهدم مبنى جيد الإنشاء كهذا.

تبادل العلماء نظرة صامتة مشفقة مع (عزت)، الذي سيطر على أعصابه، وهو يجيب في هدوء، جشّمه الكثير من الجهد:

– إنها موجة كهرومغناطيسية، وليست لاسلكية، والجواب هو نعم.. يمكنها هدم المركز، ويمكنها هدم مدينة كاملة أيضاً.

اتسعت عينا (فراس)، في شيء من الدهشة والارتياع، وتراجع خطوتين قبل أن يتماسك، ويتنحنح، كمحاولة لطرح مشاعره، واستعادة لمحة من صرامته، وهو يقول:

– أيمكن أن يكون هذا سلاحاً جديداً؟!..

قال (عزت) في دهشة مستنكرة:

– سلاح جديد؟!..

وحاول مدير المركز شرح الأمر، وهو يضيف:

– من الناحية العلمية، يبدو هذا الاحتمال مستحيلاً، و...

قاطعه (فراس)، في صرامة عصبية:

– القنبلة الذرية، عندما أُلقيت على (هيروشيما)، كانت حدثاً مذهلاً، يتجاوز كل القواعد العلمية في حينه، حتى أن اليابانيين أنفسهم لم يفهمون ما حدث، بعد الدمار الشامل، الذي أطاح بمدينة كاملة، ومحاها من الوجود في

لحظات، وخرجت تفسيراتهم الأولى، تقول: إن الحلفاء قد أرسلوا أسراباً هائلة من القاذفات، ألقت كلها حمولة قنابلها في آن واحد، ثم حاول علماؤها إيجاد تفسير آخر، لانتشار الدمار على مساحة هائلة، فاقترحوا أن الحلفاء قد غمروا المدينة بمسحوق الماغنسيوم، ثم أشعلوا فيها النار، ووسط حيرتهم، بين هذا وذاك، ومحاولة إيجاد تفسير منطقي لما حدث، أعلن الأمريكيون أن هذا بفعل قنبلة واحدة.. ومنذ ذلك الحين، بدأ عصر جديد.

تطلّع إليه العلماء مع (عزت)، بنظرة تساؤل حائرة، فتابع بنفس العصبية:

– ما أريد أن أقوله هو: أن هذا قد يكون سلاحاً جديداً، يبدأ عصراً آخر من القوة.. سلاح ابتكرته دولة عظمى، وتعمد إلى تجربته هنا، حيث أمامها صحراء شاسعة غير مأهولة.

كان الاحتمال، على الرغم من مخالفته للعلوم المعروفة، يبدو منطقياً تماماً، من ناحية الاحتمالات العلمية، فتبادل العلماء نظرة صامتة أخرى، قبل أن يغمغم مدير المركز:

– لا يمكننا تجاهل هذا الاحتمال، على أية حال.

قال (فراس) في سرعة:

– ولا يمكننا الجلوس ساكنين أيضاً؛ لأنه ليس أمامنا لغز واحد، بل عدة ألغاز مندمجة، تنبع كلها من منطقة واحدة، في قلب صحراء الربع الخالي.. لدينا ذلك الهيكل البشري العملاق، واختفاء الطائرات، والصور الخالية، وأخيراً تلك

الموجة المغناطيسية، التي تهاجم، وتهدم في عنف، ومن الضروري أن نفعل شيئاً؛ لكشف كل هذا، قبل أن تتفاقم الأمور أكثر، فنعجز عن السيطرة عليها، ونسقط في براثن أمر ما، قد يطيح بعالمنا كله.

مرة أخرى، كان حديثه منطقياً تماماً، فتبادل العلماء نظرة أخرى، أشاح (عزت) بوجهه بعدها، وحاول الانهماك في فحص الصور والموجات، للمرة الخامسة، في حين تساءل مدير المركز في حذر:

– وماذا تقترح بالضبط؟!

شدّ (فراس) قامته، وقال، مستعيداً صرامته:

– كنتم تقترحون بعثة استكشافية.

انعقد حاجبا مدير المركز، دون أن يجيب، في حين اندفع أحد العلماء، يقول في لهفة واضحة:

– وما زلنا نقترحها.

بدا الارتياح على وجه (فراس)، وهو يقول:

– في هذه الحالة..

هذه المرة، قاطعه مدير المركز، في شيء من الحزم:

– لحظة واحدة.

التقى حاجبا (فراس)، وهو ينظر إليه في حدة، ولكن الرجل تابع، بنفس الحزم:

- هناك أمور، ينبغي أن نناقشها أولاً.

قال (فراس) في صرامة:

- أية أمور؟!

أجابه مدير المركز، في صرامة أكثر:

- أمور هامة جداً.. أين تقترح مناقشتها، بعد هدم المركز؟!

تطلّع إليه (فراس) في صمت، وقرأ الصرامة والحزم والإصرار على ملامحهن فغمغم في شيء من العصبية:

- تلك الموجة أصابت الواجهة الأمامية، والطابق العلمي من المركز فقط، ويمكننا مناقشة تلك الأمور (الهامة)، في أحد مكاتب الأمن، في الطابق الأرضي.

ضغط كلمة (الهامة) في شدة، وكأنما يؤكّدها، وأدرك المدير هذا، ولكنه تجاهل المعنى تماماً، وهو يجيب، بنفس الصرامة:

- على الرحب والسعة.

رآهما (عزت) ينصرفان، كما رآهما باقي العلماء، وتساءل مثلهم عن ماهية تلك الأمور الهامة، التي تحتاج لمناقشة سرية ومنفردة وعاجلة، ولكنه ألقى تساؤله خلف ظهره، وعاد يولي اهتمامه لشاشة الكمبيوتر المحمول، وحديث (فراس) ما زال يتردّد في أذنيه ورأسه، ويعيد إليه نظريته القديمة..

نظرية (أتلانتس)..

* * *

على مرمى البصر، امتدّت صحراء الربع الخالي هادئة، خاوية، إلا من كثبان رملية هائلة، يتجاوز ارتفاع بعضها مائة متر، ومناطق شديدة الوعورة، بما تحويه من رمال ناعمة، يغوص فيها النيل، فلا يبقى منه أدنى أثر، وقوارض وحشرات مختلفة، تقتات من بعضها البعض..

وعلى الرغم من الهدوء والسكون، اللذين يخيمان على المنطقة، راحت دوّامة رملية صغيرة تتكوّن في بطء، ثم راحت حدودها تتسع..

وتتسع..

وتتسع..

ومع اتساعها، كانت سرعة دوران الرمال تتزايد بالتدريج، حتى تحوّلت إلى ما يشبه مروحة هائلة أرضية، تطرد كل ما حولها من رمال..

وكل ما بداخلها أيضاً..

ومع الوقت، تكوّنت في قلب الدوّامة فجوة، أخذت تتسع بدورها، وتزداد عمقاً، حتى صارت أشبه ببالوعة كبيرة وسط الصحراء..

وفي رعب هائل، انطلقت حيوانات وحشرات الصحراء تعدو مبتعدة، وقد اشتمّت غريزتها رائحة خطر قادم..

خطر داهم، شديد، رهيب.

ثم فجأة، توقّفت الدوّامة الهائلة عن الدوران وتناثرت الرمال، التي كانت تدور حول محورها، إلى مسافة بعيدة للغاية، وعاد الهدوء والسكون يسودان

الصحراء مرة ثانية، كما لو أنها قد استعادت مشهدها الأوّل، باستثناء تلك الفجوة الكبيرة، التي تخلّفت عن الدوّامة..

وفي هدوء، راح صوت ما يتصاعد من الأعماق، وارتجّت الأرض في بطء لحظات، قبل أن يتوقّف الارتجاج تماماً، وتغرق المنطقة في صمت مهيب..

صمت، استغرق لحظات قليلة، قبل أن تظهر يد فجأة، من تلك الفجوة، وتستقر على حافة الرمال خارجها..

يد زرقاء، معروفة، ذات أظافر حمراء قانية..

يد مخيفة..

وعملاقة..

• • •

ما أن دخل المدير مع (فراس)، إلى حجرة الأمن، حتى أغلق بابها خلفهما، واستدار يواجهه في غضب، قائلاً:

– لماذا تخفي عنا الحقيقة؟!

قال (فراس)، في لهجة، تجمع ما بين التوتر والحذر:

– أية حقيقة؟!.. إنني مثلكم، لا أعلم شيئاً عما يحدث، و..

"كاذب.."..

ألقى المدير الكلمة في حدة، فارتفع حاجبا (فراس) في دهشة، قبل أن يهتف في غضب:

– كيف تجرؤ؟!

صاح به المدير، دون أن يخشى حساسية منصبه:

– أنت تكذب علينا، وتحاول خداعنا منذ البداية.. هناك، عندما هاجمتنا تلك الموجة، صرخت قائلاً: ليس مرة أخرى، وهذا يعني أنك قد واجهت هذا الموقف من قبل، وأنك لم تأت إلى هنا، لما كشفناه فحسب.

شدّ (فراس) قامته، محاولاً السيطرة على توتره، وهو يقول، في صرامة انتزعها من أعماقه انتزاعاً:

– لا يمكنك الجزم بما تقول.

صاح به المدير:

– ولا يمكنك أنت خداع فريق، من أمهر علماء الوطن العربي، حتى لو كنت أذكى وأبرع رجل أمن، في العالم كله.

عقد (فراس) حاجبيه في توتر، وحاول أن يحافظ على وقفته العسكرية، إلا أن رجفة خفيفة كانت تسري، في جسده كله، وتبدو واضحة في كفيه، فعقدهما خلف ظهره، وهو يقول:

– ليس من الضروري أن تعرفوا كل التفاصيل.. إنها مسألة أمن قومي.

هتف المدير، وهو يلوّح بذراعيه:

– آه.. مسألة أمن قومي.. العبارة السحرية، التي يقولها الحكوميون، لإخراس الألسنة في الحلوق.. لا يا رجل.. لن يفلح هذا الأسلوب النمطي الساخر في

خداعنا.. نريد أن نعرف الحقيقة بالضبط. نريد أن نعرف لماذا أنت هنا حقاً، ولماذا تحاولون استغلال مركز الرصد، من أجل أهداف أخرى.

تزايد انعقاد حاجبي فراس، ومال نحو المدير، قائلاً في صرامة حقيقية:

– مركز الرصد لم ينشأ، إلا من أجل هذا الأمر.

تراجع المدير بمنتهى الدهشة، وحدّق في وجهه، قائلاً:

– مركز الرصد؟!.. ماذا تقول يا رجل؟!..

بدا (فراس) شرساً قاسياً، وهو يجيب:

– ما أريد أن أقوله، هو أننا نواجه مشكلة أمن قومي خطيرة، ولا يمكن أن نفصح هنا للكثيرين، ومن أجل مواجهتها، شيّدنا مركز الرصد هنا، واستدعينا أفضل العقول العلمية، بغرض معلن، ألا وهو فحص صحراء الربع الخالي، وكشف ما يكتنفها من غموض وأسرار، وغرض فعلي، هو كشف ما يحدث هناك.. في قلبها.

بدا المدير مبهوتاً مبهوراً، وهو يغمغم:

– وذلك الهيكل العظمي العملاق، هل..

قاطعه (فراس) في شراسة:

– لقد فوجئنا به مثلكم.

ظلّ المدير صامتاً، يحدّق فيه لحظات، قبل أن يهز رأسه في قوة، ويقول:

– وما الذي يحدث هناك بالضبط؟!

شدّ (فراس) قامته أكثر، وحافظ على شفتيه مطبقتين، فأضاف المدير في حدة:

– من حقي أن أعلم، قبل أن أرسل علمائي في بعثة، قد يكون فيها هلاكهم.

أدار (فراس) الأمر في رأسه لحظات، ثم اعتدل، قائلاً في عصبية:

– لا بأس.. على أن تعدني ألا يعلم بالأمر سواك.

بدا التردُّد على وجه المدير، فأضاف في صرامة:

– إنها مسألة أمن قومي.

تطلّع المدير إليه لحظات في صمت، قبل أن يقول في خفوت:

– أعدك بهذا.

واصل (فراس) تطلعه إليه بضع لحظات أخرى، ثم أولاه ظهره، وبدا وكأنه يفكّر في أمر ما، ثم حسم أمره، وواجهه، قائلاً:

– إننا نعاني من اختفاءات غامضة، في تلك المنطقة، منذ ما يقرب من ستة أشهر، وفي كل مرة، تحدث فيها تلك الاختفاءات، تصاب أجهزة الرادار بلوثة غير طبيعية، وغير مبرَّرة.

قال المدير في غضب:

– وهل تريد إرسال بعثة من علمائنا، إلى منطقة يختفي فيها كل شيء؟!

أجابه (فراس) في توتر:

– ليس هناك حل آخر.. لقد حاولنا الاستعانة بكل الوسائل الأخرى، كما

اختبرت بنفسك.. الأقمار الصناعية.. التصوير الرقمي، التصوير الجوى.. كل شيء.

واصل المدير غضبه، وهو يقول:

– هذا لا يبرّر التضحية بطاقم علماء، فريد من نوعه.

عقد (فراس) كفيه خلف ظهره، وهو يسأله في توتر:

– وماذا تقترح؟!.. التضحية بالعالم كله؟!

بُهتَ المدير للسؤال، ولم يحر له جواباً، وهو يحدّق في وجه (فراس)، الذي مال نحوه، وكرّر بنفسه الصرامة:

– هل تفضّل هذا؟!

هزّ المدير رأسه في بطء، وغمغم:

– كلا بالطبع.. ولكن إرسال علماء..

قاطعه (فراس):

– هذا هو الحل المنطقي الوحيد، فلو أرسلنا فرقة من الأمن، أو حتى القوات الخاصة، فلن يمكنها تفسير ما تجده، ولو أرسلنا طاقم من العلماء وحدهم، فلن يمكنهم مواجهة ما قد يجدونه هناك، لذا فالحل الأمثل هو إرسال بعثة علمية استكشافية محدودة، من ثلاثة أو أربع علماء، مع أجهزة الرصد والفحص المطلوبة، تحت حراسة فرقة من أفضل رجالنا.

سأله المدير، في خفوت متوتر:

– ألا يوجد حل آخر؟!

سأله (فراس) في صرامة:

– ألديك أنت؟!

لم يحاول المدير مناقشة هذا؛ لأنه يدرك تماماً أنه لم يعد هناك حل آخر، ولكنه تراجع عدة خطوات، ثم أولى (فراس) ظهره، وراح يفكّر، في عمق وتوتر..

من الصعب عليه أن يجازف بعدد من أمهر العلماء العرب، في عدة تخصصات، ولكن من الأصعب أن يجازف بمصير البشرية كلها..

صحيح أنهم ما زالوا يجهلون ما يمكن أن يجدوه هناك، في قلب صحراء الربع الخالي، ولكنه حتماً أمراً غير طبيعي..

وربما أمر خارق للمألوف..

وفي كل الأحوال، هو أمر يحتاج إلى الفحص، والدراسة، والاستكشاف..

ولا يمكن أن يفعل هذا غير علماء..

وعلماء على أعلى وأرفع مستوى..

ثم أنه، لو مرّ الأمر بسلام، فسيصبح هذا كشفاً علمياً خطيراً..

بل أخطر كشف علمي، في القرن الحادى والعشرين، الذي تصوّر الكل، أنه لم يعد من الممكن إضافة كشف جديد إليه..

وسينال كل العلماء، المشاركين في الأمر، فضل ذلك الكشف..

وربما يحصلون على جوائز (نوبل) في العلوم أيضاً..

جالت الفكرة في خاطره، ورسمت في ذهنه صورة أنيقة له، وهو يتسلّم

الجائزة، بعد أن امتلأت صحف العالم بصورته، و..

"لا بأس.. سنرسل البعثة.."..

نطقها، قبل حتى أن يستكمل أفكاره، فتنهّد (فراس) في ارتياح، وغمغم، وهو يسبل جفنيه:

- عظيم.

استدرك المدير في صرامة:

- ولكن بشروط.

فتح (فراس) عينيه بحركة حادة، وهو يقول، في دهشة مستنكرة:

- شروط؟!

أجاب المدير:

- نعم.. شروط حتمية، وإلا..

قاطعه (فراس) في حدة:

- لا يوجد إلا... اطرح شروطك، وسنرى.

عقد المدير حاجبيه، وهو يقول:

- سنبدأ بفحص ذلك الهيكل العملاق، أوّلاً، قبل أن نبحث عن سر تلك الاختفاءات.

أجابه (فراس) على الفور:

- اتفقنا.

ثم استدرك في حزم:

- على أن تحصلوا على عينة من حمضه النووي.

حدّ المدير فيه بدهشة، فتراجع قائلاً:

- للأغراض العلمية بالطبع.

رمقه المدير بنظرة شك، ثم قال:

- هذا أمر طبيعي.

وصمت لحظات، وكأنه يحاول هضم ما قاله، قبل أن يستطرد:

- وسينسب كل ما نكشفه لنا.

أجاب (فراس) مرة أخرى:

- اتفقنا على هذا أيضاً.

أضاف المدير:

- وستكون لنا حرية اتخاذ أية قرارات، نرى أنها في صالح البعثة.

تردّد (فراس) لحظة، وقال:

- وماذا عن الأمن القومي؟!

أجابه المدير في صرامة:

- هذا شرطنا الرئيسي.

التقط (فراس) نفساً عميقاً، وشدّ قامته، وهو ينظر إلى مدير المركز، ثم

تحرّك نحو النافذة، التي تحطّم زجاجها إثر الموجة الكهرومغناطيسية العنيفة، ووقف يتطلّع عبرها بضع لحظات، وكأنما يدرس الموقف، ثم قال، دون أن يلتفت إلى المدير.

- ستكون لكم حرية القرارات العلمية.

قال المدير في حزم:

- كافة القرارات.

صمت (فراس) لحظات أخرى، ثم قال:

- ستحتاجون إلى خبير عسكري، في تعاملكم مع القوات التي سترافقكم.

قال المدير:

- المفترض أن لديها أوامر مسبقة.

سأله (فراس):

- وماذا لو واجهتم ما يستحق تدخلها؟!

تنهّد المدير، وقال:

- في هذه الحالة، ستخضع لما يمليه عليها قائدها.

أومأ (فراس) برأسه، وكأنه يهضم الأمر، ثم قال:

- في هذه الحالة.. يمكننا أن نتفق.. هل من شروط أخرى؟!

شدّ المدير قامته عن آخرها، وهو يقول:

- سنوقّع على كل ما اتفقنا عليه.. رسمياً.

التفت إليه (فراس) بحركة حادة، ورمقه بنظرة مستنكرة، فاستطرد في توتر:

- سيظل هذا سراً، بيني وبينك.

بدا (فراس) شديد الغضب والصرامة، وهو يرمقه بنظرة نارية، إلا أنه لم يلبث أن قال في صرامة:

- سأوقّع على عقد خاص، من نسختين فحسب.

قال المدير في سرعة:

- اتفقنا.

رمقه (فراس) بنظرة أخرى، ثم قال في صرامة قاسية:

- عندي شرط واحد.

سأله المدير في حذر:

- وما هو؟!

أجابه بمنتهى الحزم:

- البعثة لابد وأن تضم مهندس الطاقة الكهرومغناطيسية.

بدا الارتياح على المدير، وهو يقول:

- هذا أمر طبيعي.

عاد (فراس) يشد قامته، وهو يسأله:

- ومتى يمكنكم التحرُّك؟!

هزّ المدير كتفيه، قائلاً:

– فور أن ننتهي من إصلاح المركز، و...

قاطعه في صرامة:

– لا شأن لكم بإصلاح المركز.. ستتحرّكون غداً صباحاً.

ارتفع حاجبا المدير في دهشة، وقال:

– ولكن بعض المعدات المطلوبة أصابها التلف، و..

قاطعه (فراس) كالمعتاد:

– ستصل معدات جديدة في الصبح الباكر.

تضاعفت دهشة المدير، وهو يسأله:

– هل تعلم كم يتكلّف شراء معدات جديدة؟!

مال (فراس) نحوه، وهو يقول بمنتهى الصرامة:

– وهل تعلم كم يتكلّف دمار العالم؟!

والتقى حاجبا المدير في شدة، ولم ينبس ببنت شفة..

على الإطلاق..

* * *

شعر (عزت) بتوتر بالغ، وهو يفحص سلامة معدات رصد الموجات الكهرومغناطيسية الجديدة، بعد أن أنزلها رجال الجيش، من الهليكوبترات الحربية، التي نقلت الجميع، إلى منطقة ذلك الهيكل العملاق..

ولقد كان الانتقال إلى المنطقة يختلف تماماً، عن مطالعة صورها وبياناتها..

ذلك الهيكل العملاق يبدو أكثر ضخامة، وأكثر إثارة للخوف والتساؤل، من هذه المسافة الصغيرة، ومظهره كفيل ببث الرعب في القلوب، فمن المخيف حقاً، أن ترى عن قريب، شيئاً اعتدت رؤيته، ولكن بحجم يفوق ما اعتدته خمس مرات..

الجمجمة وحدها، كانت في حجم شاب يافع، حتى أن العلماء الأربعة، الذين رافقوا (عزت) في تلك البعثة المحدودة، راحوا يدورون حوله في دهشة بالغة، أقرب إلى الذهول، وهم يلتقطون له عشرات الصور..

أما (عزت)، فقد حاول أن يبعد عينيه عنه، وهو ينشغل برصد الموجات الكهرومغناطيسية في المنطقة...

ووفقاً لأجهزته المتطوّرة، كان كل شيء يبدو عادياً للغاية، وليست هناك موجات سلبية، أو إيجابية، بل كانت الأمور هادئة تماماً..

والعجيب أن هذا أثار توتره...

وبشدة..

فهناك تعارض شديد، بين نتائج الرصد السابقة، التي ما زالت مسجّلة، في القرص الصلب لجهاز الكمبيوتر المحمول، الخاص به، وتلك النتائج التي يراها أمامه الآن..

وليس لديه تفسير واحد لهذا!!..

أي تفسير!!..

وهذا يريك أي عالم..

تماماً..

راح يراجع حساباته، ويقارنها بما سجله على قرصه الصلب، وتضاعفت حيرته أكثر، وأكثر..

ما تفسير تلك المنحنيات السلبية السابقة إذن؟!..

من أين أتت؟!..

وأين ذهبت؟!..

وكيف؟!..

وبينما يغرق في أفكاره، وتساؤلاته، وحيرته، راح العلماء يواصلون التقاط صور الهيكل، في شغف شديد، في حين وقف رجال الجيش يراقبونهم في صمت حذر، وهم يتلفتون حولهم بين لحظة وأخرى، لتفقُّد المكان، الذي أحاطوه إحاطة السوار بالمعصم، في تكنيك مدروس..

وبعد أن اكتفى العلماء بقدر كبير من الصور للهيكل، من كافة زواياه، بدءوا يقتربون منه في حذر، وحجمه الضخم يرهبهم، ويثير رجفة في نفوسهم، وبمنتهى الحذر، مدَّ أحدهم يده يلمسه، قبل أن يغمغم في انفعال:

– عجباً!.. لا يبدو لي أشبه بلمس العظام الطبيعي!.

أجابه عالم آخر، وهو يدفع نفسه للاقتراب:

– لاحظ أنه بقي في ذلك المناخ الشاق، لعدد من السنين، لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى).

هزَّ الأوَّل رأسه نفياً، وتمتم:

– ليس هذا ما قصدته.

بدا وكأنه سيكتفي بهذا القول، إلا أنه لم يلبث أن أضاف:

– إنه يبدو أشبه بـ..

قبل أن تكتمل عبارته، ارتجَّت الأرض فجأة، على نحو ملحوظ.

والتقطت أجهزة (عزت) موجة جديدة..

موجة كهرومغناطيسية سلبية..

وقوية..

وبينما سادت موجة أخرى، من الذعر والهلع في المكان، وتراجع العلماء في خوف شديد، وتحفَّز رجال الجيش بأسلحتهم، وتشبَّث الطيارون بطائرات الهليوكوبتر، وكأنهم يحمونها من السقوط، أسرع (عزت) يخرج من جيبه جهاز كمبيوتر يدوي صغير، وأوصله بمعدات الرصد الكهرومغناطيسي، وراح ينقل ويسجِّل، في انفعال شديد، كل البيانات المدهشة، التي تتوالى في سرعة خرافية..

فمنذ سقطت أجزاء من مركز الرصد، كان يخشى بشدة أن تصاب المعدات بتلف، من جراء شيء ما، فيفقد كل ما سجلته من بيانات، لذا فقد أصرَّ على نقل البيانات، أوَّلاً بأوَّل، إلى ذلك الكمبيوتر اليدوي الصغير، الذي لم يفارق جيبه قط.

ولقد تصاعدت الموجة أكثر..

وارتجت الأرض أكثر..

ثم فجأة، ودون مقدمات، توقّف كل شيء..

لم تعد الأرض ترتج..

ولم تعد أجهزة (عزت) تتلقى شيئاً..

فجأة انتهى كل شيء، وعادت الأمور إلى طبيعتها، تاركة خلفها موجة من خوف مبهم، في نفوس الجميع..

وفي توتر ما بعده توتر، تلفّت قائد القوات الصاحبة حوله، وهو يقول في عصبية:

- ماذا يحدث هنا؟!.. أهو زلزال ما، أم ماذا؟!

لم يجبه أحدهم بحرف واحد، وهم يتطلّعون إلى بعضهم البعض، بوجوه شاحبة، ونظرات زائغة..

وفي توتر شديد، وضع (عزت) الكمبيوتر اليدوي فوق معدات الرصد، وهو يتلفت إليه، قائلاً:

- ربما هو كذلك.. ولكننا لا نعرف لماذا؟!

ارتبك قائد القوات، وقال، وهو يحاول الابتسام؛ ليخفي ما يشعر به، من توتر وقلق:

- ماذا تعني؟!.. وهل توجد أسباب للزلازل؟!

غمغم (عزت) في اقتضاب:

- بالتأكيد.

سادت موجة من الصمت، بعد كلمته، ودار الجميع بعيونهم فيما حولهم، قبل أن يتمتم أحد العلماء:

- ربما هو حادث عابر، أو ...

لم يستطع إكمال العبارة، التي يدرك الجميع عبثها، فبترها في توتر، وهزّ كتفيه، مستطرداً في خفوت:

- هل.. هل سنواصل عملنا؟!..

مضت لحظات من الصمت والسكون، قبل أن يغمغم أحدهم:

- بالتأكيد.. لن نضيع هذه الفرصة، من أجل شعور بدائي بالخوف من المجهول.

وصمت لحظة، ثم أضاف، وكأنه يحاول إقناع نفسه:

- نحن علماء.

تبادلوا نظرة أخرى، حملت كل مخاوفهم وتردُّدهم، قبل أن يتنهَّد الثالث، ويقول:

- لا بأس.. هيا بنا.

كانوا يعاودون الاقتراب، من ذلك الهيكل العملاق، عندما سأل الأوّل زميله:

– قلت: إن الهيكل ليس له ملمس العظام التقليدي، وأنه أشبه بشيء آخر، فما هو؟

انفرجت شفتا زميله، وهو يهم بإجابة السؤال، عندما ارتفعت صرخة أحد الجنود فجأة، وهو يطلق رصاصات مدفعه الآلي في ارتياع ملحوظ، فالتفت الجميع إليه..

(عزت)..

والعلماء..

والقوات المصاحبة..

ثم اتسعت عيونهم جميعاً، في فزع ودهشة بلا حدود..

فما رأوه أمامهم كان مذهلاً..

بحق.

• • •

الفصل الثالث

في مكتبه الخاص، في الطابق الأرضي، من مركز الرصد، الذي يجرى إصلاحه، وثب (فراس) من مكانه كالملسوع، وهو يحدّق في الشاشة أمامهن هاتفاً في ذهول:

– مستحيل!..

كان قد زوّد طائرات الهليوكوبتر سراً، بآلات تصوير رقمية، تنقل إليه صور متحركة فورية، عبر الأقمار الصناعية، لما يحدث في موقع البعثة..

ولقد أثار ما رآه ذهوله..

إلى أقصى حد..

وإلى أقصى حد أيضاً، اتسعت عيناه، وهو لا يصدّق ما يراه، في حين تجمّد مدير المركز في مقعده، بكل ذهول الدنيا، وهو يردّد:

– ماذا يحدث هنا؟!.. ماذا يحدث هنا؟!..

كانا يريان أمامهما، على شاشة الرصد، مشهداً لعملاق هائل، أزرق البشرة، وحشي الملامح، يرتدى زياً ذهبياً، من قطعة واحدة، تغطى جسده الضخم، الذي يفوق السبعة أمتار طولاً، وهو يتقدّم نحو موقع البعثة، وقوات الجيش

الصاحبة تطلق النار نحوه في استماتة..

كان من الواضح أن نيرانهم القوية لا تؤثر في تقدُّمه، ولا تخلف فيه أدنى ألم، والعلماء يعدون مبتعدين في ذعر، في حين بقي (عزت) مكانه، يحدِّق في العملاق بمنتهى الدهشة، ورجال الجيش يحاولون إيقاف تقدُّمه بأية وسيلة..

ودون أن يجيب (فراس) تساؤل المدير، وثب إلى جهاز اتصال خاص، وصرخ عبره في انفعال:

- الأسلحة الخاصة.. استخدموا الأسلحة الخاصة.

استقبل قائد القوات الأمر، فكرَّره عن لسانه، بالنص نفسه، فاندفع الجنود بكل ذعرهم، نحو طائرات الهليوكوبتر الحربية، والتقطوا منها عدداً من المدافع المحمولة، وأطلقوها نحو العملاق مباشرة..

وأمام العيون المذعورة، أصابت القنابل القوية جسد العملاق..

وانفجرت..

وأسقطته أرضاً..

ولكنه نهض مرة أخرى، في حركة قوية، وانقض عليهم!..

ومرة أخرى، أطلق الجنود مدافعهم..

ومرة أخرى أيضاً، سقط العملاق الأزرق..

ثم نهض..

وانتفض..

ولم يدر (عزت) لماذا أصابه ذلك الجمود، الذي ثبَّته في مكانه، وهو يشاهد العملاق الرهيب يمسك ذيل واحدة من طائرات الهليوكوبتر الحربية الثقيلة، ثم يرفعها عن الأرض، كما لو كانت مجرَّد لعبة، ويهوى بها على الرمال في قوة...

وبمنتهى العنف، تحطَّمت الهليوكوبتر، وتناثرت شظاياها وأجزاؤها في مساحة واسعة..

وفي لحظة واحدة، تخلَّى (عزت) عن جموده، وانحنى في سرعة، ليتفادى مروحة الهليوكوبتر الضخمة، التي طارت في الهواء، وعبرت على قيد عشرين سنتيمتراً من رأسه، قبل أن ترتطم بالرمال، وتثير عاصفة منها، وهي تتدحرج فوقها في عنف..

واعتدل (عزت) يحدِّق فيما حوله، في ذهول مذعور..

كان رجال الجيش يتراجعون، وهم يواصلون إطلاق مدافعهم على العملاق، وقد سقط ثلاثة منهم صرعى، مع أحد العلماء، من جراء أجزاء الحطام المتطايرة، في حين ارتطمت القنابل بجسم العملاق، وانفجرت، وأسقطته ثلاث مرات، وفي كل مرة كان ينهض، ويعاود الهجوم، دون أن يتأثر حتى زيه، بكل ما ينهال عليه..

وعبر جهاز الاتصال الخاص في مكتبه، صرخ (فراس)، بكل توتره وانفعاله:

- الرأس.. صوِّبوا على الرأس.

اعتدل مدير المركز في تلك اللحظة، وكأنما انتزعته الصرخة من ذعره، ووثب يلصق وجهه بشاشة الرصد، هاتفاً:

- هذا الشيء غير أرضي.

تجاهل (فراس) تماماً، وهو يصرخ مرة أخرى:

- الرأس.

صرخ قائد القوات بالكلمة، فور استقباله لها للمرة الثانية، فحاول جنوده التصويب على رأس العملاق، وهم يتراجعون في ذعر..

ولأنهم محترفون، فقد تماسكوا، وأطلقوا مدافعهم..

وأصابت قنابلهم رأس العملاق مرة..

وثانية..

وثالثة..

ومع الطلقة الرابعة، مال رأس العملاق، على نحو عجيب..

وتوقّف في مكانه..

ولأوّل مرة، منذ بدأ ذلك الهجوم الرهيب، شعر الجميع بلمحة أمل..

لمحة أشعلت جذوة الحياة مرة ثانية في أعماقهم، بعد أن أيقنوا أو كادوا، أن الموت هو مصيرهم ولا ريب، فصاح القائد في حماس:

- الرأس.. واصلوا إصابة الرأس.

مع نهاية صيحته، عاود العملاق الأزرق تحرُّكه، على الرغم من ميل رأسه، على ذلك النحو البشع، شبه المستحيل، ولكن الجنود أطلقوا مدافعهم مرة ثانية، من ثلاث زوايا مختلفة..

وفي هذه المرة، انفجرت القنابل في رأس العملاق، وأطاحت بالرأس بعيداً، ليرتطم بالرمال في عنف، كسيارة متوسطة، ثم ينقلب فوق أحد الجنود، الذين عجزوا عن تفاديه، فسحقه سحقاً..

وهنا، ساد صمت رهيب..

ساد هناك، في قلب الصحراء..

وفي مكتب (فراس)..

كان الجميع، على اختلاف عقولهم، يعانون من مزيج من الخوف والذهول، وهم يحدّقون في العملاق، الذي بقي واقفاً في مكانه، بعد أن سقط رأسه..

وفي توتر بلغ مداه، غمغم مدير المركز:

- سيسقط الآن.

قال (فراس)، وهو لا يقل عنه توتراً وانفعالاً:

- هل تعتقد هذا؟!..

ولم يستطع المدير إجابته..

لم يكن يملك الجرأة..

أو الثقة..

ولم يكن يدري، ماذا يمكن أن يحدث، في اللحظات التالية؟!..

بل ولا يدري حتى كيف يظلّ ذلك العملاق واقفاً، بعد أن سقط رأسه بهذا العنف! كان تساؤله هذا، هو نفسه ما يدور في أذهان الجميع، في موقع الأحداث،

وما حوّله أحد العلماء إلى كلمات مرتجفة:

- هل سيسقط؟!

وفجأة.. تحرّك العملاق..

لم يتحرّك ليسقط.

وإنما لينقض مرة أخرى..

وكان المشهد مذهلاً، إلى أقصى حد..

العملاق ينقض على الجنود، بدون رأس، ويقبض على أحدهم، ويطيح به في الهواء، على نحو وحشي..

ومرة أخرى، انهالت عليه قنابل الجنود..

انهالت بكل ذعرها، ورعبها، وهلعها..

وشعر (عزت)، وكأن تلك القنابل لا تدوي في الصحراء فحسب، ولا تنفجر في جسد العملاق وحده..

لقد كانت تدوي في عقله، وتتفجّر في كيانه، وتثير في أعماقه ذعر وحيرة بلا حدود..

لا يمكن أن يكون هذا بشرياً..

لا يمكن أن يكون حتى كائناً حياً..

ما من كائن حي، يمكن أن يحيا، دون محركه الأوّل..

المخ..

اتسعت عيناه، عند هذه النقطة، عندما رأى ذلك العملاق، عديم الرأس، يتجه نحوه مباشرة..

وبكل الرعب، تراجع (عزت)..

تراجع..

وتراجع..

ثم فجأة، تعثّر، وسقط على ظهره، واتسعت عيناه، في رعب بلا حدود، وذلك العملاق الأزرق يتجه نحوه، و..

وفجأة، توقّف العملاق..

توقّف لحظة، ثم هوى..

هوى على وجهه، وكأنما انتبه فجأة، إلى أنه قد فقد رأسه..

وأغلق (عزت) عينيه، ورفع ذراعه ليحمي رأسه، وأطلق صرخة مختنقة، وقد بدا له أن العملاق سيسقط فوقه مباشرة، ويسحقه سحقاً..

وسقط العملاق بالفعل..

سقط، وارتطم بالأرض في عنف، ارتجّت له مساحة كبيرة من الرمال، وأثيرت معه عاصفة رملية، كانت تغشى أبصار الجميع، فهتف مدير المركز في ذعر، وهو يتابع المشهد على الشاشة:

- رباه!.. لقد سحقه.

لم ينبس (فراس) ببنت شفة، وهو يحدّق في الشاشة بدوره، وعقله

ينطلق، في اتجاه مختلف تماماً..

اتجاه أمني بحت..

كان يرعبه أن يكون ذلك العملاق سلاح جديد..

سلاح ابتكرته دولة ما، وتجرى تجاربها عليه هناك..

في صحراء الربع الخالي..

رأى بعين الخيال رجال تلك الدولة، وهم يعثرون على الهيكل العملاق قبلهم، وينفذون نفس خطتهم، ويستنسخون منه جيش خاص..

وسلاح رهيب..

دار كل هذا في ذهنه، وهو يحدّق في عاصفة الرمال، التي أثيرت مع سقوط العملاق وحجبت الصورة تماماً..

وفي بطء مستفز، أو هكذا بدا للجميع، راحت تلك الرمال تنقشع، والصور تظهر، وتتضح رويداً رويداً..

حتى تجلّت تماماً..

كان العملاق مستقراً على الرمال، بزيه الذهبي اللامع، بدون رأسه، الذي سقط على بُعد عدة أمتار منه، في المسافة بين موقع سقوطه، وذلك الهيكل العملاق..

وعلى قيد نصف متر فقط، استقرّت معدات رصد الموجات الكهرومغناطيسية، وأمامها (عزت)..

كان ملقى على الرمال، يحدّق ذاهلاً في ذلك الجسم العملاق، الذي سقط على

مسافة تقل عن ربع المتر عنه..

وهذا يعني أنه قد نجا من الموت..

نجا بأعجوبة..

ولقد ظلّ الجميع صامتين جامدين لحظات، ثم لم يلبث قائد القوات وجنوده أن تقدّموا نحو العملاق في حذر، وهم يصوبون إليه مدافعهم الآلية، ومدافعهم المحمولة، ثم لحقهم العلماء، ونهض (عزت)، غير مصدّق أنه قد نجا، وتقدّم بدوره نحو العملاق، الملقى بلا رأس..

كان مشهداً عجيباً، أشبه بروايات وأفلام الخيال العلمي..

أو الرعب..

وكان ذلك العملاق ضخماً..

ضخم إلى حد مخيف..

ولقد قطع ذلك الصمت المهيب صوت أحد العلماء، وهو يغمغم:

- إنه ليس بشرياً.

قال قائد القوات في ضيق مستنكر:

- بالطبع، هو ليس كذلك.

هزّ العالم رأسه، قائلاً:

- لست أقصد هذا، ولكن انظروا إلى موضع القطع في عنقه.

نظر الجميع إلى حيث أشار، وتفجّرت الدهشة في نفوسهم في قوة..

فعند موضع العنق، ظهرت مجموعة من الأسلاك والدوائر الإليكترونية..

وهتف (عزت)، بكل دهشة الدنيا:

- إنه شخص آلي.

نقل جهاز الاتصال ذلك الهتاف، إلى مكتب (فراس)، الذي تراجع في دهشة مذعورة، هاتفاً:

- شخص آلي.

اتسعت عينا مدير المركز، وهو يقول:

- كنت أعلم أنه ليس بشرياً.

التفت إليه (فراس) بحركة حادة، قائلاً:

- إنه شخص آلي، ألا تدرك ما يعنيه هذا؟!

أجابه الرجل في حذر:

- ربما يعني أن..

قبل أن يكمل الجواب، اندفع (فراس) يكمل في عصبية، وهو يتحرك في الحجرة كالمجنون:

- يعني أن هناك دولة قوية، قد صنعته.. دولة تمتلك تكنولوجيا شديدة التطور.. هل شاهدت ما حدث.. عملاق آلي واحد، كاد يهزم فرقة عسكرية كاملة، فما بالك لو أن هناك جيش منها.

ثم اندفع نحوه بحركة مفاجئة، ومال، على نحو جعل المدير يتراجع في

مقعده، متفادياً إياه، قبل أن يضيف:

- إننا نواجه دولة عظمى يا رجل.

انعقد حاجبا المدير، وهو يجيب:

- مستحيل!

خرجت الكلمة خافتة، حتى أن (فراس) قال في عصبية:

- ماذا؟!

وهنا، اعتدل المدير في حزم، وهو يكرّر في صرامة:

- أقول: إن هذا مستحيل!

هتف (فراس)، وهو يلوّح بطول ذراعه:

- وما المستحيل؟!.. لقد رأينا كل شيء بأنفسنا.

هبّ المدير واقفاً، على نحو اضطر (فراس) للتراجع:

- المستحيل أن يكون ما رأيناه على الشاشة سلاحاً سرياً، لأية دولة.. لا توجد تكنولوجيا أرضية واحدة، يمكنها أن تنتج شيئاً كهذا.

صاح به (فراس):

- وماذا عن القنبلة الذرية؟!.. هل كانت معروفة، قبل أن تذهل العالم وتفزعه؟!

أجابه المدير، بنفس الصرامة:

- نعم.. كانت معروفة، كنظرية علمية على الأقل، ولم تكن الولايات

المتحدة الأمريكية وحدها، التي تسعى إليها.. النازيون أيضاً كانت لديهم النظرية نفسها، وكانوا يسعون أيضاً لابتكار القنبلة، وكانوا يتصوَّرون أنهم سيتوصلون إليها أوّلاً، ولكن طردهم للعلماء، وديكتاتوريتهم المطلقة، جعلت علماؤهم يفرون إلى الغرب، وينتجون القنبلة هناك، وفي كل الأحوال، فقد أذهلت العالم، ولكنها لم تذهل علماء الفيزياء أيامها.

بُهِتَ (فراس)، لذلك الهجوم الباغت، فعقد حاجبيه، وحاول أن يتماسك، وهو يقول في عصبية:

- ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء إذن؟!

اعتدل المدير، وأجاب في توتر:

- شيء غير أرضي.

هتف (فراس) في حدة:

- غير أرضي؟!.. وتظن أن هذا أفضل؟!.. إنها كارثة.. كارثة عسكرية وأمنية؛ فالقول بان هذا الشيء غير أرضي، يعني أننا نواجه غزواً من عالم آخر، يفوقنا تكنولوجياً بكثير.. عالم يمكنه، لو أراد، أن يقضي على الجنس البشرى كله.. ألم تربط ذلك العملاق الآلي، بالهيكل الذي عثرتهم عليه؟!.. ألا يوحي لك هذا بأن الهيكل يخص أحد مخلوقات ذلك العالم؟!.. ألا يمكن أن تفترض أن مركبته الفضائية قد سقطت به، في مكان آخر، وأنه جال في الصحراء، حتى لقي مصرعه، على هذا النحو؟!.. ألا يعني هذا أننا نواجه غزواً من عمالقة، لا قبل لنا بهم؟!..

تمتم المدير بعينين متسعتين، وقد هاله ما سمعه:

- كل الاحتمالات واردة.

أشار إليه (فراس)، بسبَّابة مرتجفة، من فرط الانفعال والتوتر، وهو يقول في حدة:

- وكل الأخطار أيضاً.. كل شيء أصبح محتملاً وممكناً، وعلينا أن نستعد لكل شيء.. نستعد لهجوم العمالقة، ولغزو فضائي، وحتى لمواجهة أسلحة رهيبة، ربما نعجز حتى عن فهمها.

بدا الاحتمال رهيباً للغاية، حتى أن عيني المدير اتسعتا أكثر وأكثر، ثم لم يلبث أن قال، في توتر بالغ:

- أليس من الأفضل أن ننتظر، ما ستتوصَّل إليه البعثة.

بدا (فراس) شديد التوتر، وهو يميل نحوه، متسائلاً:

- وهل تعتقد أنه لدينا الوقت لهذا؟!

في نفس اللحظة، التي ألقى فيها سؤاله، كانت قوات الجيش، في موقع البعثة، تحاول رفع بقايا الهليوكوبتر المحطَّمة، وحصر الخسائر، في حين فحص العلماء زميلهم الصريع، قبل أن يقول كبيرهم في أسى:

- يا إلهي!!.. من كان يتصوَّر كل هذا، عندما أتينا إلى هنا؟!

قال (عزت)، وهو يفحص ذلك الزى الذهبي، الذي يرتديه العملاق الآلي، والذي بدا سليماً لم يمس، على الرغم من كم القنابل التي انفجرت فيه، والرصاصات التي أصابته:

- إنني لم أر شيئاً كهذا قط.

أجابه عالم آخر:

- الشيء الإيجابي الوحيد، هو أننا نستطيع فحصه.

أمسك (عزت) تلك الأسلاك، التي تتدلى من العنق المقطوع، وقال وهو يفحصها في اهتمام:

- هذا لو أمكننا فهمه.

سأله أحدهم في قلق:

- ماذا تعني؟!

أشار إلى الأسلاك، مجيباً:

- تلك الأسلاك مصنوعة من مادة، لم أر مثلها قط، وهي تتقاطع، بلا تغطية واقية، وعلى الرغم من هذا، فالتيار لا يتعارض فيها، وهذا يفوق علومنا.

امتقع وجه العلماء، وغمغم كبيرهم:

- أتعني أنه...

لم يكمل سؤاله، وكأنما يخشى هذا، فالتفت (عزت) إليه، وأجاب:

- نعم.. هذا الشيء ليس من عالمنا.

اتسعت عيون الجميع في ارتياع، حتى قائد القوات، الذي قال في عصبية:

- ما هذا بالضبط؟!.. فيلم من أفلام الخيال العلمي.

غمغم (عزت):

- كنت أتمنى هذا يا رجل، ولكن المفزع أنها حقيقة.. حقيقة نعيش كل لحظة منها.

نقل العلماء بصرهم في ذعر، بين بقايا العملاق الأزرق، وذلك الهيكل الضخم، ثم تمتم أحدهم بصوت مرتجف:

- المفترض أن ننصرف من هنا على الفور، قبل أن نتعرّض لهجوم آخر، لن يكون حظنا جيّداً فيه.

التفت إليه كبير العلماء، وقال مستنكراً:

- ننصرف، قبل أن ندرس ما أمامنا؟!

وقال قائد القوات في عصبية:

- الأوامر تحتم عدم الانصراف، قبل التوصُّل إلى نتائج واضحة.

هزَّ العالم رأسه في قوة، وقال:

- هذا مستحيل!.. النتائج العلمية لا تظهر بين يوم وليلة.. إنها تحتاج إلى دراسات، وحسابات، ومراجعات، ومعامل ضخمة، لن يمكن نقلها إلى هنا.

تطلّع القائد على بقايا العملاق الأزرق مرة أخرى، في توتر ملحوظ، وهو يقول:

- لابد وأن ننقل ذلك الشيء من هنا إذن.

أشار (عزت) بسبّابته، قائلاً:

- هذه نقطة، أتفق معك عليها.

بدا كبير العلماء متوتراً، وهو يقول:

– لست أظن لدينا معدات كافية؛ لنقله مع الهيكل، إلى حيث يمكننا فحصهما، في مكان آمن.

أجابه القائد في توتر مماثل:

– كل شيء يمكن إرساله من القيادة، في غضون بضع ساعات، كما يمكن أن...

قاطعته، هذه المرة أيضاً، هزة أرضية مفاجئة..

ارتجاجة قوية، انبعثت تحت أقدامهما، دون مقدمات..

ثم أطلقت أجهزة (عزت) أزيزاً قوياً، يشير إلى أنها قد التقطت موجة كهرومغناطيسية سلبية جديدة..

وفي هذه المرة، هرع الكل إلى أجهزة (عزت)، الذي راح يسجّل الرصد في انفعال، وهو يقول:

– إنها آتية هذه المرة، من تحت أقدامنا.

سأله القائد في عصبية، ناشئة عن عجزه عن الفهم:

– ماذا تعني بأنها آتية من تحت أقدامنا؟!

راقب (عزت) الموجة، التي تزداد قوة، وهو يجيب:

– من الأعماق.. أعماق الأرض.

اتسعت عينا القائد في ارتياع، في حين هتف أحد العلماء متوتراً:

– رباه!.. هل يمكن أن يكون هناك عالم آخر، في أسفل.

مع نهاية كلماته، ارتجت الأرض مرة ثانية، في قوة أكثر، فاتسعت عينا القائد عن آخرهما، ثم هتف:

– إلى الهليكوبترات.. سنغادر على الفور.

حاول كبير العلماء أن يعترض، إلا أن الموجات، التي تشير إلى أن قوة المجال الكهرومغناطيسي السلبي تتزايد في قوة، جعله يقول في تخاذل:

– وماذا عن المعدات؟!

صاح به:

– سنترك كل شيء.. البشر لهم الأولوية المطلقة.

كان الارتجاج يتزايد..

ويتزايد..

وشدة الموجة السلبية تتضاعف، على نحو مخيف، حتى أن بعض الأشياء والرمال، راحت تتطاير من حولهم، مما أصاب الكل بالذعر، فأسرعوا نحو طائرات الهليوكوبتر، وراح الجنود يساعدون على تعبئة الكل في طائرتين فحسب، بعد تدمير الطائرة الثالثة، وأدار الطياران المراوح والمحركات بالفعل، فاشترك هذا في مضاعفة ما أحاط بهم من دوامات هوائية رملية..

وفي مكتبه، رأى (فراس) الصورة تختفي، عن شاشة الرصد، فقال في عصبية:

- ماذا يحدث؟!

أجابه المدير في تركيز مذعور:

- إنها الموجة.. تلك الموجة الكهرومغناطيسية.

التفت إليه (فراس) في توتر، دون أن ينبس ببنت شفة..

ففي أعماقه، راوده شعور قوي، بأن هذه المرة ستختلف..

ستختلف تماماً..

وفي موقع البعثة، أمسك (عزت) يد أحد الجنود، الذي يساعده على الصعود إلى الهليوكوبتر، والقائد يهتف:

- أسرعوا.. أسرعوا قبل أن نعجز عن الرحيل، إذا ما تزايد عنف الرمال أكثر..

كان (عزت) يهمّ بركوب الهليوكوبتر بالفعل، عندما اتسعت عيناه فجأة في ارتياع..

لقد ترك الكمبيوتر اليدوي الصغير، فوق معدات الرصد..

الكمبيوتر الذي يحوى كل البيانات..

وكل الأدلة..

وما أن وثبت الفكرة إلى رأسه، حتى قفز من الهليوكوبتر، واندفع نحو معدات الرصد، فصاح به كبير العلماء في ارتياع:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!

وصرخ فيه قائد القوات في صرامة:

- عد إلى الهليوكوبتر..

ولكن (عزت) لم يستمع إليهما..

كان من المستحيل أن يترك ذلك الكمبيوتر اليدوي الصغير خلفه..

من المستحيل تماماً..

وبينما يعدو، نحو معدات الرصد، بدأت عاصفة كهربية صغيرة تتكوّن، من الموضع الذي سقط فيه رأس العملاق الأزرق..

راحت تتكوّن..

وتتسع..

وتتزايد..

وتشتد..

وفي الهليوكوبتر، اتسعت عيون الجميع في رعب، وغمغم كبير العلماء:

- رباه!.. ما هذا.

كانت تلك العاصفة الكهربية، قد تحوّلت إلى ما يشبه كرة البرق، وهي تندفع، على ارتفاع متر من الرمال، نحوهم مباشرة..

ولقد رآها (عزت)..

ولكنه لم يتراجع..

لقد انطلق نحو معدات الرصد، على أمل استرجاع الكمبيوتر اليدوي، قبل

أن تتلفه تلك العاصفة الغامضة المخيفة..

وبوثبة أخيرة، بلغ معدات الرصد، وارتفعت يده نحو الكمبيوتر اليدوي..

ولكن العاصفة الكهربية، بدلت مسارها فجأة..

وانقضت عليه..

وصرخ الجميع في ذعر:

– احترس.

وأمسك هو الكمبيوتر اليدوي بالفعل..

ثم ارتطمت به العاصفة الكهربية..

ولوهلة، انطلق من ارتطامهما ضوء مبهر قوي، أغشى أبصار الجميع لحظة، حتى طياري الهليوكوبتر..

وأغلق الجميع عيونهم في ألم، ثم فتحوها..

وعندما فعلوا، تفجّرت في أعماقهم دهشة بالغة..

لقد عاد كل شيء إلى طبيعته..

العاصفة هدأت، والرمال استقرّت، والمعدات ثابتة..

مع فارق واحد..

لقد اختفى (عزت)..

تماماً.

* * *

الفصل الرابع

بدا (فراس) شديد التوتر، وهو يقف في ممر مركز القيادة العربية المشتركة، الذي تم إنشاؤه سراً في (الرياض)، بعد حوادث الاختفاءات الغامضة، والذي ضمّ عدداً من أفضل القادة العسكريين، من مختلف البلدان العربية..

كان ينتظر مقابلة اللجنة العليا، التي استعدت لسؤاله عما حدث هناك..

في الربع الخالي..

وكان يتحرّك في عصبية شديدة، ويفرك كفيه طوال الوقت، وهو يدرك، أكثر من غيره، أن الأمر عاجل للغاية، ولا يمكنه الانتظار، وأنه في ظروف كهذه، يمكن أن تصنع دقيقة واحدة فارقاً، بين حياة أو موت البشر أجمعين..

فمنذ اختفى (عزت صابر)، أمام عيون الجميع، دون أن يترك خلفه أدنى أثر، حتى تضاعف خوفه وفزعه ألف ألف مرة..

لقد ذاب وتلاشى وسط الصحراء، ووسط تلك العاصفة الكهربية الغامضة، في حين بقيت كل المعدات، التي كانت تحيط به، ولم يجد طاقم العلماء، أو حتى القوات المصاحبة، تفسيراً واحداً لهذا!!..

لقد أعادوا فحص المنطقة مرتين، وحفروا مساحة هائلة من الصحراء،

والتقطوا مئات الصور، وسجَّلوا التغيرات الكهرومغناطيسية، ومعامل الرياح، وحتى طبيعة الرمال، ولكن النتائج جاءت كلها سلبية تماماً!!..

وبعد يومين كاملين، لم يكن أمامهم سوى الاعتراف، بمنتهى اليأس، أنهم يواجهون حدثاً غامضاً..

إلى أقصى حد..

ووقف الكل عاجزاً..

خائفاً..

حائراً..

قلقاً..

ومذعوراً..

وتحت إجراءات أمن مشدَّدة للغاية، وفي حراسة كتيبتين كاملتين، من القوات الخاصة، وقوات مكافحة الشغب والإرهاب، تم نقل الهيكل العظمي العملاق، مع أجزاء ذلك العملاق الأزرق، إلى قاعة فحص ضخمة، ملحقة بمركز الرصد، الذي تم ترميمه وإصلاحه، واستبدال معداته، في سرعة لم يعهدها أحد من قبل..

ومنذ يوم كامل، ينهمك طاقم العلماء كله، في فحص الهيكل والعملاق، وإعادة دراسة كل المواقف الغامضة، التي حدثت في موقع البعثة..

ولكن أحداً لم يتوصَّل إلى نتائج بعد..

أية نتائج..

"سيادة العقيد (فراس)..."...

انبعث الصوت من خلفه، فانتزعه من أفكاره، وجعله يستدير، في حركة تحمل لمحة من التوتر، إلى جندي متين البنيان، قوي الجسد، يرتدي زياً عسكرياً مميَّزاً، لا يشبه أية أزياء عسكرية معروفة، ويقف أمامه في احترام..

ولقد أدَّى الجندي التحية العسكرية، وقال:

- السادة في انتظارك.

شعر (فراس) بتوتر شديد؛ عندما أدرك أن ساعة اللقاء قد حانت، وشدَّ قامته في قوة، وهو يغمغم:

- هيا بنا.

سار الجندي أمامه عبر الممر، حتى بلغا مصعداً كبيراً، ضغط الجندي زره، وتوقَّف أمامه، حتى فتح أبوابه، ثم أشار بيده يدعو (فراس) إلى الدخول، وسرعان ما بدأ المصعد حركته بهما..

وتفجَّرت الدهشة، في أعماق (فراس)...

فالمصعد لم يصعد بهما، وإنما هبط.

هبط ثلاثة طوابق كاملة، تحت مستوى الأرض، قبل أن يتوقَّف، ويقول الجندي في احترام:

- تفضَّل يا سيادة العقيد.

خرج (فراس) من المصعد، إلى قاعة كبيرة، ذات جدران معدنية ضخمة،

أثارت دهشته أكثر وأكثر..

من المستحيل أن يكونوا قد شيدوا كل هذا، خلال الأشهر القليلة الماضية، منذ بدأت حوادث الاختفاء..

لا ريب في أنه هنا، منذ زمن طويل..

منذ عدة أعوام على الأقل..

إنه يبدو بالنسبة إليه، أشبه بمخبأ نووي كامل التجهيز..

مخبأ معدّ منذ فترة طويلة؛ لمواجهة حالات الطوارئ القصوى، أو المفاجآت الخطيرة غير المنتظرة..

وبينما يسير خلف ذلك الجندي، عبر المخبأ الكبير، راح يراقب كل شيء فيه، في دهشة ما بعدها دهشة..

كان يبدو أشبه بمصنع كبير تحت الأرض..

رجال يعملون على أجهزة كمبيوتر حديثة، عبر المكان..

ورجال يرصدون شاشات كبيرة..

ورجال يحللون بيانات عديدة، تتراص طوال الوقت، على شاشة ضخمة أمامهم..

عدد من المدنيين..

والعسكريين..

والعلماء..

والخبراء..

وقبل أن تبلغ دهشته منتهاها، توقّف الجندي، وأشار إلى باب جانبي، قائلاً:

- تفضّل يا سيادة العقيد.

وقف (فراس) أمام الباب، الذي انفتح في نعومة، عندما انشق إلى نصفين، انزلق كل منهما في اتجاه معاكس للآخر، واختفيا في قلب الجدار، فتردّد هو لحظة، أمام الظلام الذي يسود المكان، ثم لم يلبث أن حزم أمره، ودلف إلى الداخل، ولم يكد يفعل، حتى انزلقت ضلفتا الباب في الاتجاه المعاكس، لينغلق خلفه، ولم يكد هذا يفعل، حتى أضيئت القاعة الصغيرة، التي وجد نفسه فيها، يقف أمامه ثلاثة من القادة العسكريين، يجلسون خلف مكتب كبير طويل، ويرتدي كل منهم زياً عسكرياً، يدل على رتبة رفيعة، ولكنه يختلف عن أي زي آخر، في حين تغرق وجوههم في ظل ضخم، بدا متعمداً، كما أن الإضاءة كانت في مواجهته تماماً، بحيث يعجز عن تبيُّن ملامحهم في وضوح..

وفي صوت هادئ عميق، وبلهجة مصرية، سأله أحدهم:

- ما الذي توصّلتم إليه حتى الآن؟!

تنحنح (فراس)، وقال:

- العلماء ما زالوا يعكفون على دراسة الموقف ولكن المعطيات تبدو لهم شديدة الغموض، وهناك أمور تتجاوز معارفهم وعلومهم.

قال آخر، بلهجة سعودية:

– المفترض أن فريقك يضم أفضل العقول العلمية، في العالم العربي كله.

أجابه (فراس):

– هذا صحيح، ولكن الأمر لا يتعلّق بعقولهم، وإنما بالمدى الذي بلغته العلوم والتكنولوجيا، في هذا العصر؛ فالعلماء يؤكّدون أن ما أمامهم يفوق هذا بخمسة أو ستة أعوام على الأقل.

قال الثالث، بلهجة كويتية:

– ألم يوصلهم فحص الآلي العملاق، أو الهيكل إلى شيء؟!

صمت (فراس) لحظة، قبل أن يجيب:

– بالتأكيد.

ولوهلة، بدا الجواب مكتملاً، ثم أضاف (فراس) في حزم:

– إلى مزيد من الحيرة والغموض.

لم يسمح ذلك الظل الكبير للعقيد (فراس)، برؤية الدهشة التي ارتسمت على وجوه الرجال الثلاثة، ولكن ذلك الصمت، الذي أحاط بهم، لما يقرب من دقيقة كاملة، كان دليلاً على هذا..

ولقد كسر أحدهم حبل الصمت، قائلاً في عمق، لا يشف من أية مشاعر:

– هل علمت أنه تم رصد وتصوير أطباق طائرة، فوق المملكة العربية السعودية، لأوّل مرة؟!

كان الخبر مفاجئاً، ولكن (فراس) حاول أن يستوعبه، وهو يغمغم:

– بعد ما رأيناه، لا أظن أن هذا يدهشني.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

– ثم أنها ليست أوّل مرة، يتم فيها تصوير مجموعات من الأضواء، في سماء العديد من الدول.

قال صاحب اللهجة الكويتية في حزم:

– ولكنها أوّل مرة يتم فيها تصوير أطباق طائرة بهذا الوضوح.

مع نهاية قوله، أضيئت شاشة كبيرة فجأة، على يمين (فراس)، وعرضت عليها مجموعة من الصور المتتالية، ثم فيلم متحرّك قصير..

وكلها كانت لتلك الأطباق الطائرة، التي تم رصدها فوق المملكة..

وفي دهشة بالغة، أقرب إلى الذهول، راح (فراس)، يتابع كل هذا..

الكويتي كان على حق...

إنها أوّل صور واضحة على هذا النحو، يشاهدها في حياته كلها..

صحيح أنه لم يبد يوماً أي اقتناع، بقصة الأطباق الطائرة هذه، أو حتى بمشاهداتها، ولكنه، ومنذ عمله الجديد هذا، بدا يولي أموراً عديدة اهتماماً، لم يوله لها من قبل..

وضمن واجباته، درس الكثير عن حوادث الاختفاءات الغامضة، في المنطقة التي تُعرف باسم مثلث برمودا..

وعن الأطباق الطائرة..

والقارات المفقودة..

والكائنات العجيبة..

وتغيّرت مفاهيمه كلها تماماً..

فجأة، لم يعد يهمل أو يتجاهل كل هذه الأمور، والظواهر الخارقة للمألوف..

بل وأصبح يشك فيها..

يشك في أنها تحمل كلها، لمحة من الحقيقة..

وعندما واجه ما واجهه، في صحراء الربع الخالي، أصبح يعتقد في كل هذا، وفي صحته..

وها هي ذي كل الأمور تفاجئه، وتحيط به، على نحو لم يعهده من قبل..

هيكل كائن عجيب..

واختفاءات غامضة..

وظواهر غريبة..

وأخيراً تلك الأطباق الطائرة..

ودون أن يدرك ما يفعله، اتجه نحو الشاشة الكبيرة، وأخذ يحدّق في الصورة الثابتة للأطباق الطائرة، والتي ثبتت عليها طويلاً..

وبالغرابة ما رأى!!..

التفاصيل واضحة للغاية..

كل التفاصيل..

تفاصيل لا يمكن لأية جهة إنكارها، أو استنكارها..

ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه ظهور تلك الأطباق الطائرة الآن؟!..

لماذا في هذا التوقيت بالذات؟!..

لماذا؟!..

بدا له وكأن الرجال قد قرءوا أفكاره، عندما سمع المصري يسأله:

- ألم تربط بين ظهور الأطباق الطائرة، وما حدث في صحراء الربع الخالي؟!

أجابه (فراس)، وهو ما زال يطالع الصورة:

- يخيفني أن أفعل.

قال المصري في حزم:

- ولكن من الضروري أن تفعل.

التفت (فراس) إليهم في دهشة، مغمغماً:

- لماذا؟!..

قال السعودي:

- لأن الاحتمال الأكبر هو أنهما مترابطان، وأن تلك الأطباق الطائرة، لم تسفر عن وجودها بهذا الوضوح، إلا لأن اختفاءها لم يعد له ما يبرّره، ما دامت تسعد لـ..

صمت لحظة، ثم استدرك في حزم:

- لغزونا.

انتفض جسد (فراس)، عندما سمع الكلمة الأخيرة..

لم ينتفض للمفاجأة..

ولكن للحسم..

فالفكرة نفسها جالت بخاطره وسيطرة على عقله كله، منذ فترة ليست بالقصيرة..

ربما لم يربطها بالأطباق الطائرة مباشرة، حتى رأى تلك الصور، ولكنها كانت التفسير الوحيد لما يراه..

ثم جاء قول السعودي، ليحسم الفكرة..

ويؤكِّدها..

وكم يخيفه هذا ويفزعه..

إلى أقصى حد..

فمن الواضح أن الذين أتوا، في تلك الأطباق الطائرة، أياً كانت ماهيتهم، أو الجهة التي أتوا منها، أكثر تقدُّماً منا بكثير..

كثير جداً..

ولو بدءوا حربهم وغزوهم، فلن تتمكَّن قوة في الأرض من مواجهتهم..

ومن الطبيعي أن يرعبه هذا..

ومع انفعاله الشديد، حاول أن يقف متماسكاً، أمام القادة الثلاثة، وهو يقول:

- لو أن هذا ما يسعون إليه حقاً، فينبغي أن نستعد لمواجهتهم.

قال الكويتي:

- حتى لو كانوا يفوقوننا قوة؟!

قال في حزم:

- حتى لو كانوا قادرين على ابادتنا بضربة واحدة.. إننا لن نتنازل عن حريتنا بهذه السهولة.. سنقاتل حتى نموت في سبيلها، لو أنه ليس أمامنا سوى هذا.

صمت الرجال الثلاثة لحظات، ثم قال المصري:

- هذا ما كنا نتوقَّعه منك، وما يدفعنا إلى أن نطالبك بالضغط على طاقم العلماء، للوصول إلى نتائج سريعة، قد تفيدنا كثيراً، في مواجهة أي غزو محتمل.

هزّ (فراس) كتفيه، وقال:

- لقد توصَّلوا إلى بعضها بالفعل، ولكنني لست أدرى، بما يمكن أن تفيدنا.

قال السعودي في هدوء:

- أخبرنا بها، وسنرى.

ازدرد (فراس) لعابه، قبل أن يقول:

- كلها آلية.

لم تبد عبارته واضحة في البداية، فصمت الثلاثة في تساؤل، جعله يضيف:

– حتى الهيكل العملاق، الذي عثرنا عليه، اتضح أنه لشخص آلي آخر، ربما تم إرساله إلينا من قبل، ولكنه أصيب بعطب ما، والتهمت الشمس الحارقة وحيوانات الصحراء غلافه المرن، الذي وُضِعَ على هيكله من العظام الصناعية، والذي يشبه تكوين الهيكل البشرى تماماً، ولكن بمقاييس هائلة، ربما تتناسب مع مقاييس من صنعوه، أو أنها مجرَّد تركيبة مقصودة؛ لإثارة الرعب في نفوسنا، تمهيداً للغزو.

صمت الرجال بضع لحظات أخرى، ثم تساءل أحدهم:

– أي الاحتمالين أقرب في رأيك؟!

هزّ رأسه، قائلاً:

– كلاهما.. ففي قصة (هـ.ج.ويلز) كاتب الخيال العلمي البريطاني الشهير، التي تحمل عنوان (حرب العوالم)، هاجم الغرباء عالمنا بآلات عملاقة، بثَّت الرعب في النفوس، ولكن الغرباء أنفسهم كانوا صغار الحجم، أشبه بلعب الأطفال الكبيرة.

قال الكويتي، وهو يبذل جهداً هذه المرة؛ للحفاظ على هدوئه:

– في قصة (ويلز) انتهى الغزو على نحو مفاجئ؛ بسبب عدم احتمال أجساد الغزاة للبكتيريا الهوائية الأرضية العادية، ولكن الأمور في عالم الواقع لا تتم بهذه السهولة.

غمغم (فراس):

– أعلم هذا.. للأسف.

سأله المصري في اهتمام:

– وكيف تظنهم أرسلوا تلك الآليات؟!.. عبر أطباقهم الطائرة؟!..

صمت (فراس) لحظة، ثم قال:

– عمق صحراء الربع الخالي واتساعها، يجعل من السهل جداً أن تهبط فيها أطباق طائرة عملاقة، دون أن يرصدها أحد، ولكن العلماء لهم رأي آخر.

سأله السعودي، وقد بدا أكثر اهتماماً:

– وما هو؟!

حاول (فراس) أن يسترجع تلك العبارات العلمية المعقَّدة، التي سمعها من طاقم العلماء، ولكنه فشل في هذا، فأخرج من جيبه تقريراً، وضعه على مائدة صغيرة أمامه، وهو يجيب:

– يقولون: إن تلك العواصف والموجات السلبية، التي تم رصدها، توحي بوجود بوَّابة ما، فتجاوز حدود الزمان والمكان، ويمكن عبرها نقل العديد من العمالقة المعدَّات الثقيلة، من كواكب ونظم شمسية، تبعد عنا ملايين السنين الضوئية، في لحظات قليلة..

على الرغم من الظل الكبير، شاهد (فراس) الرجال الثلاثة، ينظرون إلى بعضهم البعض في صمت، قبل أن يقول الكويتي في حزم:

– أهذا التقرير، يحوى جميع التفاصيل العلمية والفنية؟!

أومأ (فراس) برأسه إيجاباً، وقال:

- هذا صحيح.

سأله السعودي:

- وهل يحوى جميع ما توصّلوا إليه؟!

بدا عليه التردُّد لحظة، ثم قال:

- إلى حد ما.

سأله المصري في صرامة:

- أي جواب هذا؟!

أشار (فراس) بيده، قائلاً:

- لقد بذلوا قصارى جهدهم، ودرسوا وفحصوا وحلّلوا كل ما لديهم، وربما توصّلوا أو يحاولون التوصُّل إلى العديد من الغوامض والأسرار، ولكن العقبات أمامهم عديدة وعسيرة، وهناك أمر يشغلهم بشدة، ويبذلون أقصى جهدهم من أجلـه، ولا يمكنني منعهم عنه.

سأله الكويتي في صرامة:

- أي أمر يمكن أن يشغلهم عن هذا؟!

أجابه في سرعة:

- رفيقهم.

بدت الإجابة مبهمة لحظات، ثم انتبه المصري إلى ما يعنيه، وقال:

- المهندس المصري؟!.

أجابه (فراس):

- نعم.. المهندس (عزت)، الذي اختفى أمام عيونهم، دون أن يترك أدنى أثر.. إنهم يبحثون ما أصابه، ويطرحون السؤال طوال الوقت.

سأل السعودي في اهتمام:

- أي سؤال؟!

رفع (فراس) رأسه في حزم، وهو يجيب:

- أين؟!.. أين وكيف اختفى (عزت صابر)؟!

والواقع أن هذا السؤال كان يشغل الجميع بالفعل..

أين اختفى (عزت)؟!..

أين؟!.

• • •

الفصل الخامس

ارتجاج عنيف، ذلك الذي أصاب كل ذرة من كيان (عزت)، عندما ارتطمت به تلك العاصفة الكهرومغناطيسية السلبية..

ارتجاج أطاش صوابه، وأغشى عينيه، وأغلق عقله..

ثم أفقده الوعي..

لم يدر بالطبع، كم بقي فاقد الوعي، ولكن من المؤكَّد أن الفترة التي قضاها، كانت أشبه بكابوس..

كابوس كاد يشمل عقله بلا رحمة..

وبلا تفسير!...

كان عقله يلتهب، وهو يرى نفسه يسقط في هاوية بلا قرار..

ويسقط.

ويسقط.

وفي أثناء سقوطه، راحت صور غريبة تخترق رأسه..

حروب..

ودمار..

وضحايا..

وصراخ..

وانفجار...

انفجار نووي هائل، صنع تلك السحابة الرهيبة، الشبيهة بعش الغراب..

وبعدها رأى في خياله دماراً شاملاً..

مدينة ضخمة، تحوّلت إلى أطلال...

وأشلاء..

وجثث..

ولكن تلك المدينة، التي رآها أثناء سقوطه العقلي، لم تكن (هيروشيما)، أو (ناجازاكي)، أو حتى أية مدينة أخرى..

بل كانت أشهر مدينة في العالم الحديث..

نيويورك..

وفجأة، وبينما عقله يزداد اشتعالاً، تبدّلت الصورة تماماً..

بلا مقدمات، اقتحمت عقله صورة عماليق ماردة، زرقاء البشرة، حمراء الأظافر والعيون، تسير وسط دمار شامل، وتطارد البشر..

كل البشر..

ثم، وعلى نفس النحو الفاجئ، اقتحم علم قديم ذهنه، وملأ الصورة كلها، وامتزج بكثير من الدمار، و...

واستعاد وعيه..

لم يحدث هذا تدريجياً، كما تؤكِّد القواعد العلمية، وإنما استعاده على نحو مباغت، كما لو أنه أنهى سقوطه، وارتطم بالأرض في عنف..

والعجيب أنه بالفعل، شعر بآلام مبرحة، في كل جزء من جسده، حتى أنه لم يفتح عينيه، على الرغم من استعادته وعيه، وراح عقله المجهد يحاول استيعاب ما أصابه.. آخر ما يذكره، هو تلك العاصفة الكهربية، وهي تنقض عليه..

والصدمة..

المؤكَّد أن ما شعر به الآن، هو نتاج ما حدث..

نتاج ذلك التصادم العنيف، بين عاصفة سلبية، وجسد بشري..

لم ينجح عقله في التوصل إلى أكثر من هذا، فطرح الأمر من رأسه، وحاول أن يسترخي، ويقاوم الآلام، التي بدت وكأنها تثبته بالأرض، كما لو أن يداً قوية تضغط جسده من أعلى في عنف..

ورويداً رويداً، راح ذلك الشعور ينسحب، والآلام تخف، وجسده يسترخي ويشعر بالراحة أكثر، وهو لم يفتح عينيه بعد، حتى استعاد شعوره الطبيعي، فالتقط نفساً عميقاً، وتنهّد مغمغماً:

- حمداً لله.

لاحظ لأوّل مرة رائحة عجيبة، في الهواء المحيط به..

رائحة أشبه برائحة احتراق مادة حيوية..

احتراق دم..

ومع تلك الرائحة، التي أثارت ذعراً مبهماً في أعماقه، فتح عينيه دفعة واحدة، وحدّق فيما حوله..

وانفجرت في كيانه كله دهشة عارمة..

لم يكن يرقد في قلب صحراء الربع الخالي، كما تصوّر، بل وسط طريق قديم متهالك، يمتد أمامه بلا نهاية، وسط مجموعة من الجبال والصخور الهائلة..

واعتدل (عزت) بحركة حادة، وحدّق فيما حوله، بمنتهى الذهول والدهشة!..

أين هو بالضبط؟!..

تفجّر السؤال في رأسه بمنتهى العنف والحيرة..

عندما فتح عينيه في البداية، دار في رأسه ألف احتمال واحتمال..

احتمال أن يرى نفسه في حفرة هائلة..

أو أن يكون جسده قد احترق..

أو أن العاصفة الكهرومغناطيسية أصابت الجميع معه..

وسحقتهم سحقاً..

تصوّر أن الرائحة، التي ما زالت تزكم أنفه، هي رائحة دمائهم.

بل لقد وصل به الأمر، إلى احتمال ألا يرى شيئاً!..

ألا يبصر إطلاقاً..

لقد وضع في رأسه احتمال أن يكون قد أصيب بالعمى، أو الخلل العقلي، أو...

ولكن مهلاً..

من قال: إنه لم يصب بذلك الخلل العقلي بالفعل؟!..

ما يراه أمامه قد يوحي بهذا!..

لقد أصابته العاصفة وسط الصحراء، واستيقظ منها ليجد نفسه في طريق قديم مهجور، يمتدّ إلى مالا نهاية وحوله جبال وصخور هائلة..

وهناك من بعيد، يبدو له ظل مخيف..

ظل أشبه بالأطلال..

أطلال مدينة كبيرة محترقة..

أطلال، ما زال الدخان يتصاعد منها، وكأن تدميرها قد تم منذ قليل..

قليل جداً..

وهذا لا يشبه ما تركه خلفه..

أبداً..

حتى التوقيت، اختلف تماماً..

لقد أصابته الصاعقة الكهرومغناطيسية في وضح النهار، وها هو ذا يستيقظ مما أصابه بسببها، قرب غروب الشمس، في جو معتم، ووسط سحب قاتمة، تحمل تلك الرائحة البشعة..

رائحة الدم... المحترق..

فماذا حدث؟!..

ماذا أصابه؟!..

ماذا فعلت به العاصفة؟!..

بل، ماذا فعلت بكل شيء من حوله؟!..

كل شيء..

التهب عقله بالتساؤلات، وهو يتلفّت حوله، بمنتهى الحيرة والتوتر، بحثاً عن جواب واحد، يمكن أن يشفي غليله..

أي جواب..

استند إلى صخرة ضخمة، وراح يفحص ما حوله وهو يسأل نفسه: ماذا ينبغي أن يفعل الآن؟!..

هل يبقى في مكانه، أم يبحث عن هدف؟!..

أي هدف؟!..

طال تساؤله عن الخطوة التالية، وبدأ أنفه يعتاد رائحة الدمار المحترقة، على الرغم من بشاعتها، حتى بدأ قرص الشمس يتوارى، خلف السحب الداكنة، والأطلال البعيدة، فتلفّت حوله مرة أخرى، واعتدل مغمغماً في عصبية:

- خطأ.. البقاء هنا هو الخطأ بعينه.. مهما كان ما حدث، وأياً كانت أسبابه، فأنا الآن في منطقة أجهلها، وينبغي أن..

قبل أن يتم عبارته، ارتجّت الأرض فجأة تحت قدميه..

ارتجّت على نحو عجيب ومفاجئ، وفي إيقاع منتظم، كما لو أنه تنقل وقع أقدام ثقيلة للغاية..

أقدام عملاقة..

اتسعت عيناه عن آخرهما، عندما أدرك ماهية الارتجاج، واستعاد ذهنه مشهد ذلك العملاق الأزرق، الذي هاجمهم في قلب الصحراء، والذي كاد يهزم فرقة حربية كاملة..

وامتلأ قلبه بالرعب!!..

فوفقاً لقوة الارتجاج وانتظامه، بدا الأمر وكأنه وقع أقدام فرقة من العملاقة..

أو جيش كامل..

اتسعت عيناه أكثر وأكثر، وخاصة عندما امتزج وقع الأقدام الثقيلة المنتظمة، بوقع أقدام تهرول في سرعة، حتى بدا الأمر أشبه بهجرة جماعية، شبيهة بتلك التي تحدث في قلب الأدغال، عندما يفرّ قطيع من الحيوانات، من خطر داهم مفاجئ..

وكان ذلك الارتجاج يقترب..

ويقترب..

ويقترب..

ومن ذعر هلع، أسرع يختبئ خلف صخرة ضخمة، ويختلس النظر من خلفها، إلى الطريق الممتد أمامه، والذي يأتي منه ذلك الارتجاج..

ورويداً رويداً، تناهت إلى مسامعه أصوات مختلطة، تكفي لإثارة الرعب والفزع، في قلب أشجع الرجال، وأكثرهم بأساً..

أصوات، هي مزيج من صرخات الرعب والألم، ممتزجة بأصوات متصلة رفيعة، أشبه بصوت إليكترونيات، تمر في أجهزة رقمية كبيرة..

وبكل رعبه وهلعه، وكل خوفه من المجهول، الذي يثير في قلب البشر كل الذعر، اختفى خلف الصخرة أكثر، واتسعت عيناه، وهو يراقب الطريق، الذي انبعثت من نهايته أضواء متقطعة خافتة، مع كل مرة يسمع فيها تلك الأصوات الرقمية الرفيعة..

وكمهندس تكنولوجيا وإليكترونيات، حاول أن يجد تفسيراً لما يسمعه، من أي منطلق علمي، أو حتى أية نظرية حديثة..

ثم فجأة، وبلا مقدمات، ظهر أولئك البشر، عند نهاية الطريق..

وعلى ضوء الغروب الخافت، رآهم..

ورصدهم..

وتفجّرت في أعماقه ألف دهشة ودهشة..

كانوا عشرات، من نساء وأطفال ورجال، يرتدون كلهم أسمالاً بالية، ويعدون بكل الرعب والفزع، والنساء والرجال يحملون أبناءهم، ويحتضنونهم في

قوة، وكأنهم يحاولون حمايتهم من خطر داهم..

وأمام عينيه، عبر بعضهم..

ولحقهم آخرون..

وتضاعفت دهشته... ألف مرة..

كانوا أشبه بقطيع من البشر، من العصر الحجري، بما يرتدون من أسمال ممزّقة بالية، وبشعر النساء الأشعث، ولحى الرجال الطويلة، وتلك الرماح الخشبية، التي يحملونها في أيديهم..

ولوهلة، بدا له أن تلك العاصفة السلبية، قد قذفته ملايين السنين، عبر الزمان والمكان، إلى الماضي..

الماضي السحيق..

وعلى الرغم من غرابة وتعقيد هذا الاحتمال، بدا له، في تلك اللحظة، منطقياً تماماً، وهو يراهم يعدون أمام عينيه..

وفي محاولة عقلية غريزية، استعاد معادلات نظرية (آينشتاين)، التي اعتبرت الزمن بعداً من الأبعاد، وأشارت إلى إمكانية السفر عبره، أماماً وخلفاً..

ولقد أشار (آينشتاين) إلى أن حدوث هذا، يحتاج إلى طاقة هائلة..

طاقة سلبية..

وهذا بالضبط ما تحقّق هناك... في الربع الخالي..

ومع خوفه، وانكماشه خلف تلك الصخرة الضخمة، بدأ يحاول وضع ذلك

المشهد المذهل أمامه، في إطار علمي..

ربما دفعته تلك الطاقة السلبية بالفعل إلى الماضي..

ولو صح هذا، فهي كارثة..

إنه لم يؤهل للتعامل مع زمن كهذا..

وهذا يعني أنه لن يحتمل البقاء، في زمن توهب فيه الحياة للأقوى فقط.

وهؤلاء الرجال الأشداء، الذي يعدون أمامه مذعورين، يشفون عن أن الخطر يفوق قدراتهم..

فماذا عنه؟!..

ماذا عن جسده النحيل الضئيل؟!..

كيف يمكن أن يقاوم؟!..

ويحتمل..

وينجو..

مرّت كل تلك الأفكار في ذهنه، في أقل من ثانية واحدة، وهو يحدّق بعينين متسعتين مذعورتين، في المشهد الرهيب أمامه..

ثم فجأة، اقتحم أحدهم مكمنه..

فتاة حسناء شابة، ترتدي نفس الأسمال البالية، اندفعت فجأة، في محاولة للاختباء، خلف نفس الصخرة الضخمة، التي اتخذها مكمناً، وعندما فوجئت به، أصابها الذعر، وحاولت أن تتراجع..

ولكن فجأة، انهمرت تلك الخيوط الإشعاعية الزرقاء..

خيوط رفيعة، من ضوء أشبه بالليزر، اخترقت الهواء، مصدرة ذلك الفحيح الرقمي المميّز، قبل أن تصيب أجساد بعض الفارين، فتلقى بهم أرضاً في عنف، لتحترق أجسادهم على نحو مخيف، وتتصاعد منها تلك الرائحة المخيفة..

رائحة دم محترق..

وفي رعب هائل، أنساها خوفها الأوّلي منه، التصقت الفتاة بالمهندس (عزت)، وهي تغمغم بحروف مرتبكة:

- (روبا).. (روبا).

لم يفهم ما تعنيه بكلمتها، وهو يحدّق فيها ذاهلاً، حتى برزت تلك الأجساد العملاقة الهائلة...

وفي لحظة واحدة، تجسّد أبشع كوابيسه..

الآليون الزرق العمالقة، كانوا يسيرون في بطء، بزيهم الذهبي اللامع، خلف الجموع البدائية المذعورة، وكل منهم يحمل في يده أنبوباً شفافاً، ينتهي بكرة زجاجية، تنطلق منها حزم الأشعة، التي تحرق الرجال والنساء..

وحتى الأطفال..

وقفز ذهول (عزت) إلى ذروته..

كل شيء من حوله، كان يوحي بأنه قد انتقل إلى الماضي السحيق..

فيما عدا هؤلاء العمالقة..

هيئتهم، وزيهم، وتكنولوجيتهم المعقّدة، كانت تشير كلها إلى أنه لم يثب إلى الماضي.. بل إلى المستقبل..

كان الرعب يمتزج بذهوله، وهو يلتصق دون وعي بالفتاة، التي التصقت به، وتشبّثت بذراعه في ارتياع، وكأنها تنشد عنده شعوراً بالأمان، افتقدته منذ مولدها..

وما أعجب ذلك الشعور، الذي تولّد في أعماقه، في تلك اللحظات العصيبة بالذات!!..

التصاق الفتاة به، والذعر البادئ على ملامحها، وتشبّثها بذراعه، في ذلك الموقف الرهيب المميت، فجرا في أعماقه شعوراً ذكورياً قوياً، لا يمكن أن ينشأ، إلا في ظروف شديدة التعقيد..

ملمس الفتاة وذعرها، ولّدا في كيانه رغبة عارمة في حمايتها، واحتوائها، وبث الأمان في أعمق أعماقها..

وفي حنان جارف، أحاط كتفيها بذراعه، وضمّها إلى جسده في رفق، وكأنما يمنحها ذلك الأمان، الذي لا يشعر هو نفسه به..

والعجيب أن الفتاة قد استكانت تماماً في صدره، والتصقت به أكثر، وهي تلصق ذراعه بجسدها في خوف..

ولسبع دقائق كاملة، لاذ كلاهما بالصمت التام، وهما يتابعان حملة الصيد الوحشية التي قام بها العمالقة، لاصطياد الفارين..

وكان مشهداً بشعاً..

دموياً..

رهيباً..

مشهد، لا يمكن وصفه إلا بأنه مذبحة..

مذبحة رهيبة، على أي مقياس..

ومع مرور آخر العمالقة، توقَّف قلب (عزت) عن الخفقان في عنف، وحاول أن يهدأ، ويخفِّف خفقانه، وهو يضم الفتاة إليه في حنان أكثر، وحزم أكبر..

ورويداً رويداً، تباعدت أصوات الصراخ والعويل، مع وقع الأقدام الثقيلة..

ولدقيقة إضافية، ظل الاثنان صامتان.. هو والفتاة..

وفي حذر مذعور، وبعد أن ساد صمت وسكون شبه كاملين، رفعت الفتاة رأسها في حذر؛ لتطمئن إلى أن العمالقة كلهم قد ابتعدوا..

وفجأة، انخرطت في بكاء حار..

بكاء، يبدو وكأنها قد كتمته في أعماقها طويلاً..

طويلاً جداً..

بكاء يجمع بين الذعر، والهلع، والضياع، والانهيار..

ولقد فجَّر هذا مشاعر (عزت) أكثر، فضمَّها إليه في حنان، وهو يهمس:

– لقد انتهى الأمر.. العمالقة رحلوا.

كان المفترض أن تعمل هذه الكلمات على تهدئتها، إلا أنها، على العكس تماماً، جعلتها تعتدل في حركة حادة، وتنتزع نفسها من صدره، وتحدِّق فيه مرة

أخرى في ذعر، وهي تهتف بكلمات ما..

كلمات لم يفهم (عزت) منها حرفاً واحداً، وإن بدت له أشبه بمزيج معقَّد، من الإنجليزية والألمانية، مع لغة ثالثة، لم يدرك ماهيتها بالضبط.

وبقليل من التركيز، حاول أن يستوعب ما تقوله...

كان بإمكانه أن يلتقط بعض الكلمات، ذات الأصول الإنجليزية، ويضيف إليها حركات ذراعيها، ونظراتها الملتاعة، ليستوعب المعنى العام لما تقول..

كانت منزعجة؛ لأنه يتحدَّث لغة مجهولة، بالنسبة لها، ويرتدي ثياباً لم تشهد مثلها من قبل..

الثياب بالذات كانت تثير فيها ذعراً مبهماً، حتى أنها راحت تمسك قميصه، وتجذبه، ثم تفلته في خوف، ثم تعود لتتحسَّس ملمسه الناعم، وتثب بيدها بعيداً، وكأنما يلسعها ذلك اللمس..

وفي هدوء، بذل جهداً رهيباً ليتظاهر به، حاول أن يشرح لها أنه قادم من بلاد بعيدة للغاية..

بلاد، ربما لم تعرفها قط.

وعلى الرغم من مظهرها الهمجي الرث، راحت تحدِّق فيه في تركيز متوتر، وكأنها تحاول فهم ما يقول..

ولقد استغرق هذا وقتاً طويلاً للغاية، حتى استوعبته.. واستوعبها، إلى حد ما..

لقد أدرك هذا، عندما تألَّقت عيناها، وهتفت:

- أوه.. (أومريجا).

مرة أخرى، لم يفهم ما تعنيه، ولكنها راحت تردّده في إصرار وحماس، وهي تشير إليه بيدها:

- (أومريجا).. فو (أومريجا).

حاول أن يوجد لغة تواصل بينهما، فأشار إلى صدره، قائلاً:

- أنا (عزت).. اسمي (عزت).

تطلّعت إليه في حيرة، فعاد يشير إلى نفسه، مردّداً الاسم، إلى أن تألّقت عيناها مرة ثانية، وهتفت:

- (أزت).. فون (أزت).

ثم نهضت واقفة، وأشارت إلى صدرها في حماس، مرددة:

- (مارا).. مو(مارا).

بدا هذا أشبه بالأفلام الخيالة، التي تتحدّث عن العصر الحجري، وتفترض لغة تخاطب وهمية لأهله، على نحو شبه هزلي، ولكنه، على الرغم من هذا، استطاع فهم الأمر، وقال في حماس، لم يبد متفقاً مع الموقف كله:

- (مارا).. اسمك (مارا).. أليس كذلك؟!

بدا في عينيها، أنها لم تفهم ما قاله، فيما عدا اسمها، فأشارت إلى صدرها مرة أخرى، وقالت:

- (مارا).

ثم اندفعت تتحدّث في انفعال، بتلك اللغة المركّبة، وتلوّح بذراعيها طوال الوقت، وهو يحاول التقاط الكلمات الإنجليزية المصدر، ليستوعب حديثها..

ولكنه لم يستوعب شيئاً..

كانت تتحدّث عن أمور غريبة، ممتزجة ببعضها البعض، على نحو يشف عن اضطرابها، وعجز عقلها عن التنظيم والترتيب..

كانت تتحدّث عما يسمى (نازو)، و(فوهار)، وتكرّر الحديث عن (روبا) و(فوربادا)، ومصطلحات عديدة أخرى، بدت وكأنه لم يسمع مثلها من قبل...

وبينما تتحدّث، استعاد ذهنه مشهد الأطلال البعيدة، وعاد عقله يطرح سؤالاً مرهقاً: أهو في الماضي بالفعل؟!..

مستحيل!..

الجو المحيط به لا يوحي بالماضي..

ربما بالمستقبل..

مستقبل مظلم..

كئيب..

مخيف..

مستقبل عالم دمّرته حروب طاحنة، سحقت حضارته، وتركته مجرّد حطام وأطلال، وجهل، ومرض..

ولكن الفكرة لم تبد له منطقية أيضاً..

لو أنه في المستقبل، فلماذا يواجه بشر بدائيين، ومذعورين على هذا النحو؟!...

وما سر العمالقة الآليين؟!..

من أين يأتون؟!..

من يتحكّم فيهم ويديرهم؟!..

من ما زال يمتلك الحضارة، في عالم كهذا؟!..

دارت كل تلك الأفكار والتساؤلات في ذهنهن و(مارا) تواصل حديثها في انفعال، قبل أن تتوقّف فجأة، وتميل عليه، محاولة رؤية وجهه في الظلام، وهي تقول، فيما يشبه التساؤل:

– (فوكامبي)؟!..

مرة أخرى، لم يفهم اللغة أو المصطلح..

ولم يحاول الفهم..

فقد كانت هناك أمور أخرى أضخم، عليه أن يفهمها ويستوعبها..

أمور كثيرة.. ومخيفة..

قفز إلى ذهنه فجأة، أن الوسيلة الوحيدة؛ لفهم شيء ما مما حوله، هي اللغة..

عليه أن يستوعب لغة هذا المكان..

أو هذا العصر..

وبضغط شديد على أعصابه، تظاهر بالهدوء؛ حتى لا يفزع (مارا)، وهو يميل نحوها، ويقول:

– (مارا).. دعينا نحاول أن نبدأ في هدوء، استيعاب لغة كل منا للآخر.. دعينا نبدأ من البداية.. أنا رجل.. أنت فتاة.. رنْدى خلقي.. أنا رجل.

أطلّت حيرة كبيرة من عينيها، وهي تتطلّع إليه، وكأنها عاجزة عن فهمه، ثم قالت في إصرار:

– (أزت).

هزّ رأسه، قائلاً:

– كلا.. (عزت) هو اسمي، أما نوعي فأنا ذكر.. رجل.

كرّرت في توتر، وهي تشير إلى صدره:

– (أزت).

أدرك عندئذ، أنه من الصعب عليها استيعاب الموقف، فتنهّد، مغمغماً:

– لا بأس.. أنا فاشل تماماً في تعليم الآخرين.. أدرك هذا.

تنهّد مرة أخرى، وهمّ بالجلوس أرضاً، وهو يضيف:

– وهذا يعني أن الأمر سيحتاج إلى فترة طويلة... ربما عمر كامل.

وتلفّت حوله، قبل أن يكمل في مرارة:

– في هذا العالم المخيف.

لم يكد ينهي عبارته، حتى تردّد من حوله بغتة صوت رهيب..

صوت أشبه بفحيح ألف ألف أفعى، ممتزجاً بزئير جيش من الأسود الجائعة..

وبمنتهى العنف، انتفضت كل ذرة من كيانه، وهو يثب من مكانه، وعيناه تتسعان عن آخرهما في رعب، في حين وثبت (مارا) تتعلّق بعنقه، وهي تصرخ:

– (تانو).. (تانو).

لم يفهم معنى الكلمة كغيرها، ولكنه ضمها إليه، وهو أكثر منها رعباً، وانكمش معها خلف الصخرة، وهو يردّد في ارتياع:

– ما هذا الشيء؟!.. ماذا تعنين بكلمة (تانو)؟!

لم تفهم (مارا) السؤال، ولم تحاول إجابته، وهي تنكمش في صدره أكثر، في حين أضاءت الدنيا من أمام الصخرة، حيث يختبئان، بوهج أشبه بوهج النيران، استغرق لحظات، ثم توقّف، مع انطلاق ذلك الصوت الرهيب مرة أخرى..

وأغلق (عزت) عينيه في قوة..

لم يكن يدري ماهية ذلك الشيء، الذي يطلق الصوت الرهيب، ولا سر وهج النيران القوى، ولكنه كان موقناً، لسبب ما، من أنه ذلك، الذي أطلقت عليه (مارا) اسم (تانو)..

وبينما ينكمشان في رعب، خلف الصخرة الكبيرة، وكلاهما يرتجف في عنف، سمع فوق رأسيهما خفقان جناحين هائلين، يضربان الهواء في قوة، وهما ينطلقان عالياً..

وأغلق (عزت) عينيه أكثر..

وارتجف أكثر..

وأكثر..

وتضاعفت الحيرة والتساؤلات في رأسه..

ألف مرة..

ذلك العالم، المحيط به، لم يعد أشبه بالماضي..

ولا حتى بالمستقبل..

لقد بدا مثل عالم أسطوري مخيف..

عالم لم يشهد مثله من قبل..

ولم يتخيّل وجوده فيه..

أبداً..

وربما هو ليس موجوداً فيه بالفعل..

ربما كان كل ما يحيط به مجرّد حلم..

مجرّد كابوس بشع، ولّدته في عقله تلك العاصفة السلبية، التي ضربته في عنف، وانتزعته من عالمه في قسوة..

دغدغت الفكرة أفكاره، وتمنى لو أنها حقيقية، ولو أن كل ما يمر به بالفعل، ليس سوى حلم بشع، سرعان ما يستيقظ منه، ليجد نفسه في عالمه، محاط بكل من يعرفهم ويعرفونه..

حاول أن يركز أفكاره حول هذه النقطة، وهو يغمض عينيه في قوة، محاولاً صم أذنيه عن صوت خفقان الأجنحة العملاقة، التي تحوم حول المكان، وكأنها تبحث عن فريسة بشرية..

لم يدر كم طال هذا، ولا كيف اعتادته أذناه، وألفته نفسه، إلا أنه فجأة غرق في سبات عميق، وهو ما زال يضم (مارا) المذعورة إليه..

وحتى في نومه، لم يخل الأمر من كوابيس رهيبة..

كوابيس رأى نفسه محاطاً فيها بوحوش عجيبة..

وحوش خرافية، اعتاد رؤيتها في كتب الأساطير، أو حتى في خياله وحده..

وكانت تلك الوحوش هائلة..

ماردة..

عملاقة..

وكان العماليق الزرق حولها، يقودونها، ويوجّهونها، ويدفعونها للهجوم على البشر.. كل البشر..

ومن بعيد، رأى تلك الأطلال القديمة تشتعل، وتحوم حولها طائرات غريبة، تلقي عليها أطنان من القنابل..

ومرة أخرى، امتزج كل هذا بذلك العلم الغريب..

علم قديم، ذو تصميم حديث..

علم يعرفه..

ويجهله..

علم رآه مرات، في كتب التاريخ، و...

وفجأة، استيقظ..

استيقظ، ليجد نفسه وحيداً، خلف تلك الصخرة الضخمة، وضوء الشمس يغمر وجهه، وقد اختفت (مارا)..

اختفت تماماً..

وبحركة حادة، اعتدل، وحدّق فيما حوله، وكأنه يراه لأوّل مرة..

وعلى ضوء النهار، وبعد انقشاع تلك السحب الداكنة، بدت له الصورة مختلفة تماماً، وخاصة عندما امتدّ بصره لمسافة أطول..

كان من الواضح أن ذلك الطريق، الذي يختبئ على حافته، كان يوماً ما طريقاً عظيماً، انشق بين الجبال، بفعل آلات عملاقة، وتكنولوجيا قوية..

فعلى جانبيه، كانت تتهالك إشارات قديمة، كانت تنظم المرور، وتحدّد مسار السيارات..

وهناك، من بعيد، في المسافة بين الطريق، وأطلال المدينة المحترقة، كانت هناك بقايا بيوت، ومزارع، ومحال تجارية محطّمة..

كان المكان أشبه بعالم جميل، تعرّض لكارثة بشعة، فاحترق ودُمّر عن آخره، بلا رحمة أو هوادة..

بقايا الأشجار محترقة..

متهالكة..

وكل شيء حولها تتصاعد منه أدخنة خفيفة، ذات لون أزرق مخيف..

وما زالت الرائحة هناك..

رائحة الدماء المحترقة..

حاول أن يفهم ما حدث، ويستوعب ذلك العالم، الذي يجمع بين سمات الماضي والمستقبل، مع لمحة خيالية أسطورية غامضة، إلا أن عقله لم يستطع التركيز في هذا الأمر، من شدة قلقه على (مارا)، التي راح يبحث حوله عنها، وهو يهتف باسمها..

ترى أين ذهبت؟!..

ولماذا تسلّلت خفية؟!..

لماذا؟!..

كان يتلفّت حوله، بحثاً عنها، عندما تناهى إلى مسامعه صراخ أنثى مذعورة..

صراخ يقترب مع وقع أقدام ثقيلة..

أقدام عملاقة..

وميّز في الصراخ صوت (مارا)، فهتف بكل الذعر:

- يا إلهي!.. (مارا).

ومع نهاية هتافه، ظهرت الفتاة..

كانت تعدو نحوه صارخة، وهي تحمل حيواناً صغيراً صريعاً في يدها، وخلفها عملاق آلي أزرق هائل، يطاردها في إلحاح، وهو يمسك بيده تلك العصا الشفافة، ويطلق من كرتها الزجاجية الأمامية تلك الأشعة الحارقة، محاولاً اصطيادها..

واتسعت عينا (عزت) في ارتياع..

لا.. ليس (مارا)..

ليس هي..

لم يدر لماذا شعر بالخوف عليها إلى هذا الحد!..

لماذا ارتبط بها بهذه القوة، ولم يعرفها حتى بعد؟!..

ولكنه كان يرفض أن يراها تلقى نفس المصير، الذي رأى الآخرين يلقونه، بفعل الأشعة نفسها..

من المستحيل أن يراها تصاب..

وتسقط.

وتحترق..

كانت (مارا) تقترب منه، بكل ذعرها وارتياعها، وهي تصرخ..

وتصرخ..

وتصرخ..

ولم يحتمل (عزت) صراخها..

أو فكرة موتها..

ودون وعي منه، وعلى نحو بثته طبيعته الشرقية في عروقه، اندفع نحوها، وهو يصرخ:

- لا.. ليس هي.

صرخت (مارا) صرخة أخرى، وهي تلقي نفسها بين ذراعيه، واتجه العملاق الأزرق الهائل نحوهما، وصوّب عصاه القاتلة، فهتف (عزت)، وهو يدفعها بعيداً عنه:

- خلف الصخرة.. اختبئي خلف الصخرة.

دفعها في قوة، وأسرعت هي تختبئ، وهي تهتف به:

- (أزت).. (أزت).

حاول مخلصاً أن يلحق بها..

أن يختبئ..

ولكن الوقت لم يكن في صالحه..

فقبل أن يتحرّك من مكانه، أطلق العملاق الآلي أشعته الحارقة..

وارتطمت الأشعة بصدر (عزت)..

مباشرة.

• • •

الفصل السادس

على الرغم من كل ما واجهه، طوال حياته، لم يشعر (فراس) بتوتر وضياع عنيفين، مثلما شعر بهما، وهو يواجه هذا الأمر بالتحديد..

الأمور كلها متشابكة ومعقّدة، على نحو لم يعهده من قبل قط.

والمعطيات كثيرة..

كثيرة للغاية..

والضغوط أكثر.. بكثير..

رؤسائه مصابون بهلع الغزو، ويطالبونه بالمزيد من المعلومات، في كل دقيقة، والعلماء منشغلون للغاية بمعرفة مصير زميلهم (عزت)، الذي اختفى أمام أعينهم، ويبحثون أمره طوال الوقت..

وهو حائر، بين أولئك وهؤلاء..

بطبيعته، يرغب بشدة في تطبيق أوامر الرؤساء، الذين يثقون تمام الثقة، في أن هذا لمصلحة البلاد..

والأمة العربية..

وربما العالم أجمع أيضاً..

وبعقله، لا يرغب في شحن طاقم العلماء، بمزيد من التوتر والعصبية والغضب، خشية أن يعوقهم هذا، عن منحه أخطر سلاح، أن يواجه به غزو محتمل..

المعلومات..

وعندما وصل إلى مركز الرصد، في ذلك اليوم، كان يلتهب بتلك الحيرة المتناقضة، والتي شملها توتر جارف، عندما رأى طاقم العلماء كله ملتف حول مائدة كبيرة، يناقشون كل الاحتمالات لاختفاء (عزت)، فلم يتمالك نفسه، عن أن يقول في عصبية، لم يستطع إخفاءها:

– أما زلتم تناقشون هذا الأمر؟!

التفتوا إليه جميعاً، وأجاب كبيرهم في حسم:

– بالتأكيد.

تضاعفت عصبيته، على الرغم من محاولته إخفائها، وهو يقول:

– ألا توجد أمور أخرى، أكثر أهمية؟!..

تبادلوا نظرة دهشة، قبل أن يجيب أحدهم:

– لقد فقدنا اثنين من أفضل علمائنا.. أحدهم لقي مصرعه، في قلب الصحراء، بسبب هجوم عملاق آلي عجيب، والثاني اختفى أمام عيوننا، وسط عاصفة كهرومغناطيسية غامضة، لم يُسجل العلم مثلها من قبل قط. فأي أمر يمكن أن يفوق هذا أهمية؟!

أجاب في حدة:

– مصير العالم... ألم يخطر ببالكم أن يكون كل هذا، مقدمة لغزو من عالم آخر؟!.. ألم يجل بخاطركم، أن وجود تكنولوجيا هجومية، بكل هذا التقدُّم وهذه القوة، أمر مثير للقلق والخوف؟!.ز ألا تشعرون أن كل هذا أكثر أهمية، من البحث عن شخص واحد، أياً كانت قيمته؟!

بدت عليهم الدهشة، وتطلَّعوا إلى بعضهم البعض في حيرة استفزته، فصاح في غضب بالغ:

– لماذا يدهشكم ما أقول؟!.. إننا لا نتحدَّث عن رواية، من روايات الخيال العلمي، بل عن واقع مخيف، عشناه جميعاً، وربما يهدِّد عالمنا كله بالفناء.

أتى مدير المركز مسرعاً، على صوت صياحه، وتساءل في قلق:

– ماذا حدث؟!

التفت إليه (فراس)، مواصلاً حدَّته:

– سل طاقمك ماذا حدث، وما الذي يفترض أنه حدث، واطلب منهم البحث عن أجوبة، قبل أن تنطبق السماء على رءوسنا.

قال المدير في دهشة:

– وهذا ما يفعلونه.

صاح (فراس)، وقد بدا فاقداً لأعصابه:

– إنهم لا يفعلون شيئاً.. فقط يجلسون، ويتبادلون الحوارات والأحاديث،

ويناقشون الأمر نظرياً فحسب.

مرة أخرى، تبادل العلماء نظرة دهشة مستنكرة، في حين تطلّع مدير المركز إلى (فراس) لحظة، ثم ربت على ذراعه، قائلاً:

– اهدأ يا سيِّد (فراس)، وتعال نتحدث قليلاً في مكتبي.

حدّق فيه (فراس) في توتر شديد، وبدا لحظة وكأنه سينفجر في وجهه، إلا أنه لم يلبث أن تماسك ظاهرياً، وإن حمل صوته توتره، وهو يقول في خفوت:

– لا بأس.

صحبه المدير إلى مكتبه، وتركا العلماء خلفهم في نفس الدهشة المستنكرة، وما أن دخلا إلى المكتب، حتى أغلقه المدير، وأشار إلى (فراس) بالجلوس، قائلاً:

– اجلس لنتحدث قليلاً.

قال (فراس) في عصبية:

– ألا يمكنك أن تتحدث، ونحن واقفان؟!

ابتسم المدير، واتجه نحو مكتبه، وجلس خلفه، مجيباً:

– هذا شأنك، ولكنني أفضّل الجلوس.

بدا (فراس) شديد العصبية، عندما أبى عليه غروره ألا يجلس، استجابة لعبارة المدير، وقال:

– ماذا تريد أن تقول؟!

تراجع المدير في مقعده، وقال في هدوء:

– أردت أن أروي لك قصة.

تطاير الشرر من عيني (فراس)، وهو يقول في حدة:

– قصة؟!.. أنحن هنا لنحكي بعض الحكايات الهزلية؟!..

هزّ المدير كتفيه، قائلاً:

– ربما بدت هزلية، ولكنها تحكي واقعة حقيقية، وربما تخرج منها بحكمة كبيرة، تفيدك في عملك هنا.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وهو يقول في عصبية:

– فليكن.. إليّ بها، ودعنا ننتهي من ذا.

التقط المدير نفساً عميقاً، وبدأ يروي:

– إبان الحرب العالمية الثانية، ومع التجارب التي أجريت، لإنتاج أوّل قنبلة ذرية في التاريخ، قرّرت الإدارة الأمريكية أن الأمر أخطر من أن يوضع تحت إشراف مدني تام، لذا فقد اختارت واحداً من أكفأ جنرالات الجيش؛ ليتولّى الإشراف الكامل على برنامجها، وفي أوّل أيامه في العمل، تفقّد الجنرال المكان كله، ثم توقّف عند حجرة، جلس فيها عدد من الرجال، في معاطف بيضاء، يتحدّثون، ويكتب بعضهم أرقاماً مبهمة، على لوح كبير، فغضب الجنرال، وأصرّ على طرد أولئك الرجال، الذين لا يعملون، ولكن المدير الفني للمكان أخبره أنهم بالفعل يعملون، وأن عملهم هو أن يناقشوا ويحللوا، ويدرسوا.. ويفكروا.. وأن عقولهم هي التي تنتج وتطور القنبلة الذرية، وطردهم، أو حتى إزعاجهم، قد يؤدي إلى عدم إنتاجها، أو إلى أن يسبقهم إليها الألمان، فيتغيّر مصير العالم كله..

وهنا أدرك الجنرال أن العمل العقلي، أهم وأخطر من العمل اليدوي، وأن عقول العلماء التي تنتج القوة، أما أذرع العمال، فهي التي تبرزها إلى الوجود فحسب.

ثم اعتدل، ومال نحو (فراس)، وأكمل:

– وبفضل فهم الجنرال، واستيعابه للأمر، توصّلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى القنبلة الذرية، قبل أن ينتجها النازيون، ولو أنه أصرَّ على تفكيره الأمني، فمن يدري، كيف ستكون صورة العالم الذي نحن فيه الآن.

انتهى المدير من روايته، وتراجع في مقعده، وهو ينظر إلى (فراس) في هدوء، بابتسامة ذات مغزى، فتطلّع هذا الأخير إلى عينيه مباشرة لبعض الوقت، قبل أن يبعد بصره، ويجلس في هدوء، مغمغماً في توتر:

– فهمت.

ساد الصمت بينهما لحظات، قبل أن يضيف (فراس):

– ولكنهم يولون كل اهتمامهم لاختفاء زميلهم.

أشار المدير بيده، قائلاً:

– لو أنك نظرت إلى الأمر دون حساسيات؛ لأدركت أن سر كل ما نواجهه من غموض، يكمن في اختفاء المهندس (عزت)، على هذا النحو، ولو أمكنهم حل هذا اللغز، سيكشفون كل ما يحدث هناك، وكل ما يمكن أن نواجهه من خطر.

والتقط نفساً عميقاً، ثم مال نحوه، مضيفاً:

– إنهم يولون اهتمامهم للأمر كله إذن.

هزّ (فراس) رأسه متفهماً، وبقي صامتاً بعض الوقت، قبل أن ينهض، قائلاً:

– فليكن.. دعنا ننضمّ إليهم مرة أخرى.. لدى الكثير لمناقشته معهم.

لم تمض دقائق خمس، على هذا الحوار، حتى كان الجميع يجلسون حول مائدة المناقشة، في حجرة العلماء، و(فراس) يقول، محاولاً كتمان توتره:

– هناك أمور ينبغي أن تعلموها؛ فربما نفيدكم في بحثكم، عن سر ما نواجهه.

تطلّع إليه الجميع في اهتمام شديد، ضاعف من توتره، وجعله يبرز عبر صوته، وهو يتابع، محاولاً تفادي النظر إليهم مباشرة:

– إننا نواجه غزواً فضائياً.

نطق عبارته استغرق ثانيتين، وتأثيرهما استغرق دقيقة كاملة...

لقد حدّق الجميع فيه بذهول، واتسعت عيونهم، وانفغرت أفواههم، وسرت قشعريرة في أجساد بعضهم..

فالخبر لم يكن مجرّد مفاجأة..

بل كان صدمة...

صدمة أعنف من كل ما توقّعوه..

والجزء الأكبر، من تلك الصدمة، يكمن في اللهجة الإقرارية الواثقة، التي نطق بها (فراس) عبارته..

لقد قالها، باعتبارها حقيقة واقعة، وليست مجرَّد شك أو افتراض..

وهذه الحقيقة كانت تتفق، مع كل ما لديهم من معطيات..

مع التكنولوجيا المتقدِّمة للعملاق الآلي..

وللهيكل المارد..

والعواصف السلبية الغامضة..

وربما حتى لاختفاء (عزت)..

كل هذا قد يعني أنهم يواجهون تكنولوجيا فائقة التقدُّم، تتجاوز علومهم ألف ألف مرة.. على الأقل..

وهذا أمر بالغ الخطورة..

إلى أقصى حد..

فلو أنهم يواجهون غزواً من عالم آخر، يفوقهم تكنولوجياً، إلى هذا الحد، فستصبح أبحاثهم وحساباتهم كلها بلا طائل..

من المستحيل أن يقفزوا بعلومهم فجأة، إلى حد منافسة حضارة مجهولة، من عالم مختلف، نجحت بتكنولوجيتها في الوصول إليهم، قبل حتى أن يدركوا هذا..

ولقد أطلَّ كل هذا من عيونهم..

الدهشة..

والذعر..

والإحباط.

واليأس..

ولأنه رجل أمن مخضرم، قرأ (فراس) كل هذا في عيونهم، وتضاعف توتره أكثر وأكثر، وهو يقول:

- لا تجعلوا هذا يحبطكم أو يفزعكم.. فارق القوة والتكنولوجيا يمكن أن يحقِّق لصاحبه انتصاراً سريعاً، ولكنه ليس مستقراً أو دائماً.

قال مدير المركز في انفعال:

- أنت تتحدَّث عن المقاومة، قبل أن تناقش الحرب نفسها.

أطلق (فراس) زفرة متوترة، وقال:

- قد لا يمكننا مواجهة الحرب المباشرة.

هتف به:

- لقد قلتها.. قد.. ربما ننتظر غزواً فضائياً بالفعل، ولكن هذا لا يعني أن نصمت ونستسلم... سنفعل كما تفعل أية دولة صغيرة، تواجه غزواً طاغياً من دولة عظمى.. سنبحث عن وسائل للقتال، وسنحارب حتى آخر قطرة دم.

سأله (فراس) في عصبية:

- وبم سنحارب؟!.. بمقاتلات لا تبلغ سرعتها ربع سرعة أقل مركبة غزو فضائية، أم بأسلحة تبدو أشبه بالنبال، نسبة إلى ما رأيناه؟!

هتف الرجل في حزم:

– حتى لو حاربنا بالعصي والحجارة.. ربما تكون رجل أمن مخضرم يا سيِّد (فراس)، ولكنك لا تدرك ما يعنيه أن تواجه محاولة احتلال لوطنك، التي تنتمي إليه، وتحيا فيه..

هبَّ (فراس) واقفاً، وهو يقول في حدة:

– من قال هذا؟!

بدا غاضباً مستاءً، وهو يشير إلى صدره، مكملاً:

– ما لا تعرفونه هو أنني من أب سعودي الجنسية، وأم فلسطينية، وأن أخوالي ما زالوا يعيشون على تراب (فلسطين)، ويواجهون الاحتلال ليل نهار.. وشقيق أمي التوأم قضى مصرعه في (العراق)، إبان الغزو الأمريكي، فكيف يمكن ألا أدرك ما يعنيه الاحتلال.

غمغم مدير المركز في حرج:

– إنني لم أقصد..

قاطعه (فراس)، وهو يكمل في انفعال:

– إنني أدرك هذا تماماً، ولكنني أحاول -كرجل أمن- أن أواجه الأمور بواقعية، حتى لا يصدم الواقع أحلامنا، إذا ما بدأ الغزو.. أحاول أن أنقل إليكم صورة أقرب إلى الحقيقة، بدلاً من أن أغرقكم في أحلام نصر زائف.. هكذا فقط، يمكننا أن نواجه غزواً فائقاً.

ران على الحجرة صمت مهيب، بعد أن انتهى من حديثه، وتلاقت العيون

كلها في نظرة واحدة، قبل أن يقطع مدير المركز حبل الصمت، قائلاً في حزم:

– هناك وسيلة أخرى.

التفت إليه (فراس) بحركة حادة، وعيناه تحملان كل الشغف والاهتمام، منتظراً أي جواب، من بين شفتي مدير المركز، ولكن الجواب أتاه عبر لسان أحد العلماء الآخرين، وهو يقول:

– الآلي العملاق، وذلك الهيكل الضخم.. يمكننا دراستهما، واستخلاص كل ما يمكن من معلومات منهما، حول التكنولوجيا التي صنعتهما.. بهذا يمكننا أن نستوعب طبيعة ومستوى التفوق، الذي بلغه العدو.

أضاف عالم آخر في حماس:

– وهذا يمنحنا قدرة أكبر على المقاومة.

نقل (فراس) بصره بين الرجلين، قبل أن يقول:

– ولكن ما نواجهه ليس الآليين العمالقة فحسب.. إننا نواجه أيضاً عواصف كهربية، تقولون: إنكم لم تسجلوا مثلها من قبل، وحوادث اختفاء غامضة، لا ندري كيف تحدث، ولا أين تذهب كل الأشياء، التي تذهب ضحيتها.. في رأيي كل هذا يحتاج إلى الكثير والكثير من الوقت.

أضاف مدير المركز:

– ومن الاعتمادات المالية.

التفت إليه (فراس)، قائلاً في حزم:

– لا تقلقوا أنفسكم بالاعتمادات المالية.. ستحصلون على أكبر اعتماد مالي عرفه التاريخ، وستساهم فيه كل الدول العربية، بالإضافة إلى الجهات الأخرى، التي أجرينا اتصالاتنا بها سراً، منذ أدركنا مدى خطورة الموقف.

أطل تساؤل من عيونهم جميعاً، فتابع في شيء من التوتر، كالذي كشف سراً خطيراً:

– لقد اتصلنا بوكالة (ناسا) للفضاء والطيران، في الولايات المتحدة الأمريكية، وبوكالة الفضاء الأوروبية، وإدارة أبحاث الفضاء الروسية، ولقد أصابهم الفزع جميعاً، خاصة وأنهم سجلوا ظهور الأطباق الطائرة بالفعل، وإن لم يتخيلوا وجود ظواهر أخرى خطيرة..

صمت لحظة، وكأنه يريد أن يكتفي بهذا، إلا أنه لم يلبث أن تابع في حزم:

– سيرسلون إلينا كل ما نطلبه، وستصل بعثة مشتركة منهم؛ لدراسة وفحص تلك المنطقة، في الربع الخالي، وسيحضر ثلاث من كبار العلماء؛ لمعاونتكم في أبحاثكم، وتزويدكم بأحدث ما توصل إليه الأوروبيون، والأمريكيون والروس، حتى ما كانوا يعتبرونه سراً، لا يصح الإفصاح عنه.. لقد أدركوا جميعاً أننا نواجه خطراً واحداً، وأن اتحادنا هو الوسيلة الوحيدة لمواجهته.

بدا العلماء مبهورون، وهم يتبادلون نظرة صامتة، قبل أن يتساءل أحدهم في حذر:

– في حالة وصول تلك الأطقم الثلاثية، لمن ستكون القيادة... العلمية

بالطبع؟!

شدّ (فراس) قامته، مجيباً في صرامة:

– لنا نحن.. الربع الخالي يقع في أرض سعودية، ولابد وأن تكون لنا السيادة الكاملة على أرضنا، حتى عندما يواجه العالم خطراً مشتركاً.

وعاد العلماء يتبادلون نظرة أخرى..

وفي هذه المرة، كانت نظرة ارتياح..

واطمئنان..

وثقة..

ولوهلة، بدا وكأن الموقف كله قد استقر، لولا أن قال أحد العلماء فجأة، في لهجة توحي بالتفكير العميق:

– هناك أمر هام، لا يتفق مع كل هذا.

التفت الكل إليهن وتساءل (فراس) في قلق:

– وما هو؟!

أشار بيده، مجيباً في سرعة:

– الوسيلة..

بدت كلمته غامضة محيِّرة، وأدرك من نظراتهم، أنه الوحيد الذي فهم معناها، فارتبك مستطرداً:

– من الناحية العملية، فمن المستحيل أن يتم غزو كوكب كامل، ببضعة

أطباق طائرة فحسب.. لابد من وجود جيش كاف؛ لمواجهة كل مقاومة محتملة، مهما كانت تكنولوجية الغزاة، ونقل كل هذا، عبر الزمان والمكان، وعبر الفضاء الشاسع، ليس بالأمر السهل.

قال (فراس):

- ولكنهم وصلوا إلينا بالفعل.

عاد الرجل يشير بيده، قائلاً:

- وصلوا كبعثات استكشافية، أو حتى استعراضية، أو تحذيرية وإرهابية، ولكن لو أدركت أن أقرب كوكب إلينا، يبعد ملايين السنوات الأرضية، لـتدرك أن نقل جيش كامل، بكل عدته وعتاده، عبر الفضاء السرمدي، هو أمر بالغ الصعوبة والتعقيد.

بدا العلماء مهتمون بحديثه تماماً، ولكن (فراس) تساءل في عصبية:

- كيف وصلت الأطباق الطائرة إلينا إذن؟!.

أجاب الرجل في سرعة:

- ربما ليس بوسيلة مباشرة.

انعقد حاجبا (فراس)، وهو يسأل:

- ماذا تعني بوسيلة مباشرة؟!

أجابه مدير المركز:

- يعني عبر الفضاء مباشرة.

تضاعفت حيرة (فراس)، وتضاعف توتره، وهو يتساءل:

- وهل هناك وسيلة أخرى؟!

غمغم عالم ثالث:

- بالطبع.

شعر (فراس) بالغضب، من هذا الأسلوب المقتضب في الإجابة، فلوّح بذراعيه في حدة، هاتفاً:

- ألا يمكنكم شرح الأمور دفعة واحدة؟!

شعر مدير المركز بتوتره الشديد، فربت على كتفه، مجيباً:

- هناك وسائل نظرية عديدة؛ للسفر عبر الزمان والمكان، كما تؤكّد كل النظريات الفيزيائية، التي لم يثبت بعضها تجريبياً بعد. فهناك نظرية الثقوب السوداء، التي يعتبرها البعض فجوات كونية، تربط مسافات شاسعة من الفضاء الكوني ببعضها البعض، والتي يمكن أن تعبرها مركبة فضائية، فتقطع ملايين السنوات الضوئية في لحظات، وهناك الأنفاق الدورية، التي تملأ الكون، وتؤدى إلى النتيجة نفسها، وهناك..

استوقفه (فراس) في عصبية:

- كفى.. عقلي لا يمكنه أن يحتمل كل هذا.

ثم التفت إلى جموع العلماء، مستطرباً في حدة:

- ألا يمكنكم شرح كل هذا التعقيد، بكلمات أكثر بساطة؟!

مرّت تلك النظرة الصامتة مرة أخرى، بين عيون العلماء، قبل أن يقول كبيرهم، محاولاً التمسُّك بالهدوء:

- لا توجد كلمات بسيطة، أكثر من أن أولئك الغزاة، أياً كانت الجهة، التي أتوا منها، يمكن أن ينتقلوا من مكانهم إلى هنا، دون أن يخطروا لقطع مسافات شاسعة من الكون، في زمن كبير جداً، بل قد تكون لديهم وسيلة شديدة التطور، يمكن أن تنقلهم إلى هنا بقفزة واحدة، وربما كانت تلك العواصف الكهرومغناطيسية السلبية، التي سجلناها، والتي تتعارض مع كل القوانين الفيزيائية الطبيعية لعالمنا، هي الدليل على وجود بوّابة ما، تتيح لهم الانتقال إلى عالمنا.

فغر (فراس) فاه، من شدة ذعره من تلك المعلومات بالغة الخطورة، وغمغم بصوت خافت، لم يستطع منع ارتجافته:

- وهل يمكنهم نقل أسلحتهم أيضاً؟!

أجابه مدير المركز، وهو يحاول التماسك:

- يستطيعون نقل جيش كامل.

انتفض جسد (فراس) على نحو قوي، وهو يتراجع، ويحدّق فيهم جميعاً، في ذعر مصدوم، وارتياع واضح، وانعقد لسانه، حتى لم يستطع أن ينطق حرفاً واحداً..

فما قاله العلماء كان خطيراً..

إلى أقصى حد يمكن تصوره..

كان يعني أن الغزو قد يبدأ في أية لحظة..

وبأقصى قوة..

وفكرة البوّابات الخفية، عبر الزمان والمكان، تعني أنه من الممكن أن يظهر أيضاً في أي مكان..

وأية بقعة من الأرض..

وبعقليته وخبرته، كرجل أمن قديم، لم يكن هناك حل واحد، ولم تكن هناك وسيلة واحدة، لمواجهة غزو كهذا..

حتى الدراسات الأمنية والعسكرية، لم تفترض وجود مثله..

فكل غزو، مهما بلغت قوته، له أماكن هجوم، يمكن التنبؤ بها..

أو حتى استنتاجها..

كل غزو يبدأ من نقطة، يمكن حشد كل القوى للتصدي لها، وقتالها، حتى ولو لم يكن هناك أمل في صده..

أما هذا الغزو المترقَّب، فلا أحد يدرى متى وأين وكيف يمكن أن يقع..

لا العسكريين..

ولا حتى العلماء..

إنه يمكن أن يحدث من الربع الخالي..

أو من قلب (القاهرة)..

أو (باريس)..

أو (موسكو)..

أو (واشنطن)..

ومن المستحيل، على أي مقياس، حشد كل القوات، في كل دول العالم، للتصدّي لغزو محتمل!..

من المستحيل تماماً، حماية كل نقطة في العالم!..

أو حتى في دولة واحدة..

أضف إلى هذا حالة الرعب الهائل، التي ستجتاح العالم كله، فور إعلان الخبر..

الرعب، الذي يمكن أن يؤدي إلى صراعات..

وانقلابات..

وثورات..

واشتعال للعالم كله، على نحو يفيد الغزاة..

وهذا يعني أنهم يواجهون دائرة مغلقة..

دائرة لا فكاك منها... أبداً..

تملّكه يأس شديد، حملته نبرات صوته، وهو يسأل في انكسار، بدا متعارضاً مع شخصيته:

– وماذا يمكن أن نفعل؟!

أجابه أحد العلماء، في اهتمام واضح:

– يمكننا البحث عن المدخل... أعني مدخل تلك البوّابة، التي ينتقلون

عبرها إلى عالمنا..

سأله (فراس):

– ولنفترض أننا قد عثرنا عليه، فماذا سنفعل؟!

أجاب آخر في سرعة:

– نحاول منعهم من عبوره، باستخدام كل ما يمكن، من أسلحتنا وتكنولوجيتنا..

أطلّت اللهفة من عينيه وصوته، وهو يسأل:

– أهذا ممكن؟!

تردّد كبير العلماء لحظات، قبل أن يجيب:

– من الناحية النظرية.. نعم.

بدا أكثر لهفة، وهو يسأل:

– كيف؟!..

أجابه مدير المركز في رصانة:

– لو أننا توصّلنا إلى إحداثيات المدخل، والتردُّد الكهرومغناطيسي الفائق، الذي يحدثه، وهو ما نسعى إليه الآن، بدراسة اختفاء زميلنا (عزت)، فسيمكن الاستعانة بالتكنولوجيا المتطوّرة، لكل البلدان المشاركة؛ لإنتاج تردُّد مضاد، يكفي لتشتيت التوتر الرئيسي.

تساءل (فراس) في حذر:

– وهل هذا يكفي؟!

أجابه أحد العلماء في حماس:

– بالتأكيد، فالعبور من عالم إلى آخر، عبر الزمان والمكان، يحتاج إلى تردُّد قوي وثابت، وتشتيت ذلك التردُّد، سيبدو أشبه بإغلاق البوَّابة، أو وضع عائق ضخم أمامها، فلا يتمكَّن أي شيء من عبورها، مهما بلغت قوته.

اتسعت عينا (فراس) في انبهار، وتراجع رأسه في ارتياح، وتألَّقت عيناه على نحو واضح..

فلأوَّل مرة، منذ بدأت المأساة، تلوح لمحة أمل..

لمحة، قد تكون الفارق بين دمار العالم ونجاته..

لمحة هامة للغاية..

وفي لهفة واضحة، اعتدل (فراس)، متسائلاً:

– وما الذي تحتاجونه، للتوصُّل إلى هذا؟!

أجابه مدير المركز على الفور:

– كل ما يمكن تقديمه.

قال (فراس) بكل الحزم:

– لكم هذا.

ثم تحرَّك في حماس، فارقه طويلاً، وهو يكمل:

– سأجرى اتصالاتي بكل الدول فوراً، لتجنيد الإمكانيات العالمية كلها،

من أجل هذا الهدف، الذي ستكون له الأولوية المطلقة، فوق كل برامج التنمية والتطوير.

غمغم أحد العلماء:

– لو تم الغزو، لن تكون هناك تنمية، أو يكون هناك تطوير.

لم يتوقَّف (فراس) عند العبارة، أو أنه قد تجاهلها تماماً، وهو يكمل، بنفس ذلك الحماس العجيب:

– وسيتم إنشاء مراكز فرعية تكنولوجية، في كافة الدولة المشاركة، وتزويدها بنسخة كاملة مما تم رصده وتسجيله، منذ بدأت هذه الظاهرة، وبكل الدراسات التي أجريت حولها، وكل النتائج، وحتى الاحتمالات والاستنتاجات؛ لنضع الكل في منظومة واحدة، ونعمل جميعاً كيد واحدة، عبر جيش من العلماء، من مختلف التخصصات والجنسيات، لدراسة وسائل التحدي والمقاومة، والبحث عن ذلك التردُّد المضاد، الذي يمكنه إغلاق البوَّابة؛ لمنع الغزو.

بدا العلماء مبهورين، وكبيرهم يغمغم:

– مدينة العلماء!... حلم التكنولوجيا، منذ زمن بعيد.. يا إلهي!.. هل يمكن أن يتحقَّق هذا.

أشار (فراس) بيده، قائلاً:

– ولمَ لا؟!

أجابه أحدهم في أسف:

– لأن العالم متحارب، متصارع، متنازع.. كل دولة فيه تسعى لبلوغ درجة من العلم والتقدُّم، تفوق أقرانها ومنافسيها؛ لكي تتفوّق عليهم، وتسيطر على مقاديرهم، وتفرض هيمنتها على كل ما يفعلونه، وكل ما يتجهون إليه، ومن أجل هذا لا يتآزر علماء الدول، إلا لو واجهوا موقفاً كهذا، يحتم عليهم التضامن، وحتى في هذا الموقف، أؤكّد لك أن معظمهم سيحاول إخفاء تكنولوجيته المتطوّرة جداً، بحجة أنها لن تفيد في هذا الأمر، وخصوصاً تكنولوجيا التسليح والقتال، وللأسف، يمكن أن يؤدى هذا إلى فشل النظام الجماعي، و....

صمت لحظة، ثم أضاف في خفوت مرير:

– ونجاح الغزو.

عاد (فراس) ينتفض عند سماعه العبارة، وغمغم بصوت مختنق:

– فلنأمل ألا يحدث هذا.

حاول عقله أن يبحث عن أمر ما؛ للخروج من هذه الناقشة، فلم يجد فيه إلا أن طرح تساؤل، بدا له هاماً للغاية:

– لو أيّدنا نظرية ذلك الدخل، بين الكواكب البعيدة، فهل يمكن لهذا تفسير حوادث الاختفاء الغامضة، التي انتهت باختفاء زميلكم (عزت) أمام أعينكم؟!

أجابه كبير العلماء في حزم:

– بالتأكيد؛ فلو انفتح ذلك المدخل، فسيصبح معبراً بين العالمين، ويمكنه أن يجذب احد الجانبين، إلى الجانب الآخر.

قال (فراس) في انفعال:

– أتمنى أن كل ما اختفى، ومن اختفى، قد ذهب إلى ذلك العالم الآخر، الذي يأتي منه الغزو؟!

قال الرجل فوراً:

– بالضبط. وكلنا نعتقد أن ما تم رصده، وما حدث في الربع الخالي، هو مجرّد تجارب، أجريت في منطقة خالية؛ للتوصّل إلى التردُّد المناسب، قبل فتح الدخل على نحو دائم.

التقى حاجبا (فراس) في شدة، وانطلق عقله يدرس هذه الكلمات الأخيرة، ويبحثها في سرعة، من منظور أمنى بحت..

ما يحدث في الربع الخالي، قد يكون مجرّد تجارب..

تجارب لم تكتمل بعد..

وعندما تكتمل، سيصبح هناك مدخل دائم..

مدخل يأتي منه الغزاة، وتعبره أسلحتهم، وآلياتهم العملاقة..

وهذا يعنى أنه ما زال هناك أمل آخر..

أمل هام جداً..

"وماذا لو أعقنا تلك التجارب؟!.."..

تطلّع إليه العلماء في دهشة، واتسعت عيونهم على نحو أدهشه..

فالواقع أن سؤاله قد صدمهم..

صدمهم؛ لأنه أمر ساذج للغاية، لم تخطر بعقولهم الفائقة قط..

نعم.. لماذا لا يعملون على إعاقة تلك التجارب، حتى لا تكتمل، فيفشل الغزاة، أياً كانت ماهيتهم، في صنع المدخل بين العالمين..

ويفشل الغزو كله بالتالي..

لماذا لم يخطر هذا بذهنهم؟!..

ألأنهم ليسوا رجال أمن، أم لأن عقولهم لا يمكن أن تفكر بمنطق رجل أمن، لا يسعى للمعرفة العلمية، بقدر ما يتعامل بغريزة أدغالية، ومنطق قتال بحت؟!..

وفي لحظة واحدة، أدرك الجميع أنه من الضروري الجمع بين الأمرين في آن واحد..

العلم..

والأمن..

وفي خفوت، صنعته الصدمة، غمغم أحدهم:

– وماذا عن (عزت)؟!

ولكن سؤاله بقي بلا جواب..

فقط، التفت إليه الجميع، وتطلّعوا إلى وجهه صامتين..

فحتى تلك اللحظة، لم يكن باستطاعة أحدهم معرفة أين ذهب (عزت)..

وهل ما زال حياً؟!..

هل؟!.

• • •

الفصل السابع

في جزء من الثانية، وعندما ارتطمت تلك الأشعة القوية بجسد (عزت)، استعاد عقله مشهد البدائيين، وهم يحاولون الفرار، أمام العمالقة الآليين، وتلك الأشعة الحارقة تحصدهم حصداً بلا هوادة..

وبلا رحمة..

وعندما انتزعته الأشعة من مكانه، وألقته أرضاً، على مسافة ثلاثة أمتار كاملة، أدرك أنها النهاية..

(مارا) أيضاً أدركت هذا، وحاولت أن تطلق صرخة رعب وارتياع، ولكن صرختها اختنقت من حلقها، من شدة فزعها وانفعالها، فانتفض بها جسدها كله، بمنتهى العنف..

وسقط (عزت)، وأغلق عينيه في قوة، منتظراً الموت، في حين استدار العملاق الآلي الأزرق يواجه (مارا)، التي شلّها الرعب، فجمدت في مكانها، واتسعت عيناها، وهي تحدّق فيه..

ولكن مهلاً..

لقد أدرك (عزت) فجأة أنه لم يمت..

وجسده لم يحترق..

صحيح أن الأشعة قد ضربت جسده، انتزعته من مكانه، وربما أحرقت بعض ثيابه..

ولكنها لم تقتله..

ولم تحرق جسده..

لم يكد يدرك هذا، حتى فتح عينيه عن آخرهما، وطرح كل تساؤلاته وحيرته مما حدث خلف ظهره، ونهض هاتفاً:

- لا.. ليس هي.

هتافه كان له تأثير السحر، في تلك اللحظة..

لقد انتزع (مارا) من جمودها، وجعلها تلتفت إليه في ذهول، كاد ينسيها رعبها وفزعها، في حين توقّف العملاق فجأة، وكأنما يتعارض هذا مع برنامجه الآلي تماماً، واستدار في بطء، يواجه (عزت) مرة أخرى..

ولكن ذلك البطء، لم يكن يتفق مع دقة الموقف كله..

فعلى الرغم من الفارق الهائل في الحجم بينهما، وعلى الرغم مما يعانيه (عزت)، من دهشة وحيرة، فقد انقضّ على العملاق، وكأنه قادر على مواجهته وقتاله..

خوفه على (مارا) أنساه ما أصابه، وما يمكن أن يصيبه..

كل ما امتلأ به كيانه، في تلك اللحظة، هو حتمية أن ينقذها..

أو أن يحاول هذا..

مهما كان الثمن..

ومهما كانت النتائج..

ولقد اتسعت عينا (مارا) عن آخرهما، بكل ذهول الدنيا، عندما شاهدته يهاجم العملاق، الذي يفوقه حجماً بخمس مرات على الأقل..

ولكنه هاجم..

وانقض..

ووثب..

وانتفض جسد (مارا)، في عنف أكبر، وذهول بلغ منتهاه، وهي تشاهد ما يحدث أمام عينيها..

(عزت) نفسه أصابه الذهول؛ عندما ارتفع بوثبته أربعة أمتار تقريباً، قبل أن يضرب العملاق بقدميه من صدره..

كان وزن العملاق يتجاوز طنين كاملين، وعلى الرغم من هذا، فقد أسقطته ضربة (عزت)، ليقع على ظهره، ويرتطم بالأرض في عنف..

أما (عزت) نفسه، فقد هبط على قدميه، واتسعت عيناه في دهشة كبيرة..

هل فعل هذا حقاً، أم أنه جزء من كابوسه، الذي يرفض الانتهاء؟!..

هل ارتفع لأربعة أمتار، وأسقط العملاق الهائل بضربة واحدة؟!

كانت (مارا) في قمة ذهولها، والعملاق ينهض في بطء، وبرنامجه يحاول

استيعاب ما حدث، عندما أدرك (عزت) أن الأمر لم ينته بعد..

العملاق لن يقبل حتماً بما حدث..

لن يرضى بالهزيمة..

والتراجع..

والفشل..

فمثل أي برنامج آلي، لن يمكنه التوقُّف، قبل أن يتم مهمته..

الذكاء الاصطناعي، لا يمكن أن يبلغ حر قبول التراجع..

ربما يدرس الموقف، ويبحث عن وسيلة أخرى للهجوم، أو منظور آخر للمواجهة، أو يستخدم حتى سلاحاً جديداً..

ولكنه لن يتراجع..

أبداً..

ولقد بدأ العملاق تحرُّكه بالفعل..

امتدَّت يده إلى حزامه؛ لالتقاط سلاح آخر، وهو ينظر نحو (عزت) مباشرة..

وصرخت (مارا) في رعب.

صرخت وهي تتوقَّع مصرع (عزت) الحتمي، في الهجوم الثاني..

فمنذ حداثتها، شاهدت هؤلاء العمالقة الزرق، وهم يهاجمون أقرانها وشعبها..

وشاهدت الكل يواجههم، بشتى الوسائل..

ولكن العمالقة انتصروا، في كل مرة..

وقتلوا..

وسحلوا..

وحرقوا..

دمروا مدن بأكملها، وأبادوا قبائل عن آخرها..

ولم ينهزموا مرة واحدة..

وها هو ذا شخص، يبدو شبيهاً بأهلها، باستثناء ثيابه، يواجه عملاقاً أزرق، بكل حجمه وأسلحته..

فكيف يمكن أن تتغيّر النهاية؟!..

(عزت) أيضاً بدا له أن المواجهة الثانية ستكون عنيفة وقاتلة، وأنه ما من سبيل للفرار..

إلا إذا..

قفزت الفكرة إلى رأسه فجأة..

فكرة الفرار..

نعم.. إنه السبيل الوحيد، للخروج من هذا الموقف..

أن يسعى للفرار، بكل وسيلة ممكنة..

وفوراً..

وبدون إضاعة ثانية واحدة، اندفع نحو (مارا)، وحملها بين ذراعيه، وانطلق يعدو بها مبتعداً..

وكانت دهشته هائلة..

ومزدوجة..

أدهشه أن حمل (مارا) بين ذراعيه، فلم يشعر بوزنها، كما لو أنها مجرّد دمية صغيرة بلا وزن..

وأدهشته بشدة، تلك السرعة، التي كان يعدو بها..

لقد كان يعدو، وهو يحمل (مارا)، عبر الطريق القديم المتهالك، بسرعة خرافية، تكاد تقترب من سرعة سيارة صغيرة..

ولقد اتسعت عينا (مارا)، في ذهول شديد، وكادت عيناه أيضاً تتسعان، لولا أنه كان منشغلاً بالفرار..

بالابتعاد عن العملاق، إلى أقصى مسافة ممكنة..

والمدهش أن العملاق لم يحاول مطاردته..

ولم يحاول حتى أن يطلق عليه سلاحه الجديد..

كل ما فعله هو أن توقّف في مكانه، وراح يتابع (عزت)، وهو يبتعد..

ويبتعد..

ويبتعد..

وعبر دماغه الإليكتروني، راح نظام تصوير رقمي شديد التطور يسجّل كل

ما حدث، وبثه عبر نظام اتصال لاسلكي خاص، إلى مكان آخر..

مكان لا يشبه أي مكان رآه (عزت)، في ذلك العالم..

إلى قاعة كبيرة، ذات أرضية لامعة، وسقف مضيء بذاته، دون أضواء محدودة واضحة، وداخلها تراص عدد من أجهزة شديدة التطور، وعدد كبير من شاشات الرصد الهائلة، واكتظت بعدد ضخم من الرجال، كلهم يشبهون بعضهم تمام الشبه، كما لو أنهم جيش من الآليين التماثلين، أنتجهم مصنع واحد، وكل منهم يرتدي زياً مضيئاً، من قطعة واحدة، وعلى الجانب الأيسر من صدره، رقم واضح، بخط كبير أسود...

ولقد استقبل الرجال ذلك البث، وتفجّرت فيهم دهشة كبيرة، ولكن ملامحهم ظلّت جامدة تماماً، وكأنما لا يحوي برنامجهم أية انفعالات، واتجه أحدهم إلى شخص يرتدي زياً ذهبياً، يحمل الرقم واحد، ورفع يده، وفردها أمامه عن آخرها، وهو يقول، بلغة بدت معروفة:

– بث آلي غير مفهوم.

ظلّت ملامح رقم واحد جامدة، وهو يضغط زراً أمامه، فأعيد البث على شاشة كبيرة، مثبتة بمقعده، وتابعه في صمت، قبل أن يقول بنفس الجمود.

– غير مفهوم بالفعل.

ثم نهض مضيفاً:

– ويجب عرضه على الزعيم الكبير... فوراً.

اتجه خارج القاعة، حيث ممر طويل للغاية، يشترك معها في طبيعة أرضيته وسقفه، واستقل ما يشبه سيارات الجولف الصغيرة، يقودها سائق، يشبهه تمام الشبه، ولكنه يرتدي ما يشبه زياً عسكرياً قديماً..

ولقد انطلق السائق بالسيارة، فور ركوب رقم واحد، وكأنه يعرف هدفه ووجهته بالضبط، واستمر عبر الممر الطويل، حتى بلغ دائرة، تفرّعت منها عدة ممرات، فاتخذ أحدها، وواصل طريقه، إلى أن بلغ باباً هائلاً، في قاعة شديدة الضخامة، يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار على الأقل، وهنا توقّف تماماً، ولم ينبس ببنت شفة...

وهبط رقم واحد من السيارة، واتجه نحو الباب الضخم، الذي يحتل واجهة القاعة كلها، والذي يقف أمامه حارسان، لهما نفس ملامحه، ويرتديان أيضاً زياً عسكرياً قديماً، وقال في اقتضاب:

– بث خاص.

بقي أحد الحارسين صامتاً جامداً، في حين لم يظهر الثاني من مظاهر الحياة، سوى إشارة بيده، نحو دائرة تحيط بفجوة في الجدار، المجاور للباب، وتضمّ دائرة زجاجية داكنة في القمّة..

وبدون مناقشة أو اعتراض، تقدّم رقم واحد من تلك الدائرة، وانحنى يلصق وجهه بها، فانبعث من مركزها شعاع رفيع، من ضوء أزرق، مسح ملامحه في لحظات، ثم تركّز على عينيه، وسجّل بصمات قزحيتهما، قبل أن ينبعث صوت آلي، قائلاً:

– اكتمل الرصد.. رقم واحد يطلب الإذن بالدخول.

مع آخر العبارة الآلية، انفتح الباب الهائل إلى الجانبين في نعومة، وشدّ رقم واحد قامة، وعبره بخطوات عسكرية قوية..

كان الباب يقود إلى قاعة أخرى، هائلة الحجم، وتحوى مثل الأولى شاشات رصد كبيرة، في كل جدرانها، ولكنها تختلف عن الأولى في خلوها التام، إلا من عملاقين آليين، وقفا جامدين، إلى يمين ويسار منصة كبيرة مرتفعة، يتوسّطها عرش كبير، مصنوع من مزيج من الذهب والفضة، ويجلس فوقه شيخ، شديد الشبه برقم واحد، إلا أنه أكبر سناً، بشعره الأشيب، والتجاعيد التي تملأ وجهه، وتلك الصرامة المحفورة على ملامحه، والزى العسكري القديم الذي يرتديه..

ولقد تابع ذلك الشيخ رقم واحد، وهو يسير عبر القاعة، حتى بلغ مركزها، فتوقّف، ورفع يده أمامه، وفرد كفه، مطلقاً هتافاً قوية، استقبله بإيماءة من رأسه، وهو يقول في غلظة:

– ما الجديد؟!.

خفض رقم واحد يده، وقال:

– بث غير مفهوم، أرسله أحد عمالقتنا الآليين، ويتنافى مع كل ما يحتلنا طوال الوقت.

عقد الشيخ حاجبيه الكثين في غضب، وهمهم بكلمات غير مفهومة، وأشار إلى أحد الشاشات الكبيرة أمامه، وهو يقول بصوته الغليظ، ولهجته الجافة:

– اعرضه.

أخرج رقم واحد من جيبه كرة صغيرة، ضغط أحد جوانبها، فاختفت الصورة التقليدية، من على الشاشة، التي أشار إليها الشيخ، وظهر بدلاً منها، ذلك البث غير التقليدى، الذي سجّله الآلي..

وانعقد حاجبا الزعيم في شدة، وهو يتابع المشاهد التالية..

تابع قفزة (عزت) الهائلة..

وضربته..

وسرعة وقوة عدوه..

ومع نهاية البث، قال رقم واحد، في لهجة خالية من الانفعال تماماً:

– ثيابه أيضاً غريبة، ولا تتفق مع كل ما ألفناه هنا.

صمت الزعيم لحظات، ثم قال في صرامة جافة:

– ثياب قديمة.

التفت إليه رقم واحد، في بطء جامد، ولكن عيناه حملتا تساؤلاً حائراً، لم يجب عنه الشيخ، وهو غارق في تفكير عميق، وكأنه يسترجع ذكرى قديمة..

قديمة للغاية..

ولدقيقة ونصف الدقيقة، ظلّ الزعيم صامتاً، غارقاً في أفكاره، ثم لم يلبث أن التفت إلى رقم واحد في صرامة قاسية، وهو يقول:

– أريد هذا الرجل.

تلقّى رقم واحد الأمر، بنفس الصمت والجمود، وشدّ قامته، ورفع يده

يفردها أمامه، على نفس النحو السابق، ويطلق الهتاف ذاته، ثم دار على عقبيه، وغادر القاعة بخطواته العسكرية القوية، وقد حمل هدفاً واحداً..

إحضار ذلك الرجل..

بأي ثمن..

في نفس اللحظة، التي بدأ فيها في اتخاذ الخطوات اللازمة لإحضار (عزت)، كان هذا الأخير قد ابتعد مسافة كافية، وهو لا يدرك أن العملاق لم يحاول حتى مطاردته، فتوقَّف، ونظر إلى (مارا) في صمت، وكأنه يطمئن إلى أنها بخير وأمان..

والعجيب أنه، على الرغم من المسافة الكبيرة التي قطعها، والسرعة المدهشة التي كان ينطلق بها، وكل ما واجهه من صراع وانفعالات، كان متماسكاً، منتظم الأنفاس، دون لهاث أو إرهاق..

ولقد أدهشه هذا أيضاً..

بمنتهى الشدة..

وبنظرة عجيبة، وعينين متسعتين، حدَّقت فيه (مارا)، وهو يسألها:

- أأنت بخير؟!..

لم تفهم عبارته، ولم تنطق حرفاً واحداً، وهي تملأ عينيها بوجهه مبهورة، حتى أنزلها في رفق، فسقطت على ركبتيها أمامهن وضمَّت قبضتيها تحت ذقنها، وأحنت رأسها وهي تردِّد في خفوت واحترام وتبجيل:

- (سافور).. (سافور).

مرة أخرى، لم يفهم عبارتها، فمدَّ يده يدفعها إلى النهوض، وهو يقول في رفق:

- انهض يا (مارا).. لا تركعي إلا لله (عزَّ وجلَّ).

قاومت النهوض لحظة، ثم لم تلبث أن نهضت مستسلمة، وأحنت رأسها أمامه مرة أخرى، وهي تتحدَّث بمنتهى الاحترام، وتشير نحو تلك الأطلال، التي لم تعد بعيدة كما كانت..

وبحركة غريزية، تطلَّع (عزت) على تلك الأطلال، في شغف واضح..

ولأوَّل مرة، بدت له واضحة..

مفهومة..

ومألوفة..

كانت أطلال مدينة قديمة كبيرة، تهدَّمت مبانيها، وما زال الدخان المتصاعد منها، يشير إلى أن تدميرها لم يحدث منذ فترة طويلة..

بل منذ زمن قريب..

وبوسيلة عنيفة..

بل شديدة العنف..

ولم يدر (عزت) لماذا بدت مألوفة، مع الكثير من الاختلافات..

وربما الكثير جداً..

فالمدينة التي يعرفها، كانت محاطة بعدد كبير من المزارع الصغيرة، ولا تقف وحدها هكذا، وسط مساحة شاسعة خالية..

كان يرغب في دراسة الأمر أكثر، ولكن (مارا) جذبت يده في حذر، وعادت تشير إلى تلك الأطلال، وهي تومئ برأسها، وكأنها تدعوه لاتباعها، فغمغم في توتر:

- أتريديننا أن نذهب إلى هناك؟!

لم تفهم سؤاله، فتطلّعت إليه في حيرة، وعادت تشير إلى تلك الأطلال، التي رفع عينيه إليها مرة أخرى، وسأل في قلق:

- أليس من الخطر أن نذهب إلى هناك؟!

مرة أخرى، لم تفهم سؤاله..

ومرة أخرى، أشارت بيدها إلى الأطلال..

وفي هذه المرة، زفر مغمغماً:

- لا بأس.. يبدو أن منزلك هناك.. فليكن.. سأتبعك.

سارا معاً في حذر، نحو تلك الأطلال البعيدة، عبر طريق، يتضاعف تدهور حالته، في كل خطوة يخطوانها..

كان من الواضح أنهما يسيران وسط منطقة، تعرّضت لتدمير شديد، سحقها بلا رحمة، وتركها أثراً بعد عين..

وبطبيعة عقليته الفيزيائية، حاول أن يتوصّل إلى نوع السلاح، الذي فعل

هذا..

لم يكن سلاحاً نووياً بالتأكيد، وإلا لأصيب سكان المكان بكل الأمراض والتشوهات والالتهابات، التي تصيب من يتعرّضون للإشعاع النووي..

ولكن أي سلاح هذا الذي يمكن أن يسبّب كل هذا الدمار، دون أن يكون نووياً؟!.. أي سلاح؟!..

العلوم التي درسها ويعرفها، لا تنتج سلاحاً كهذا..

وهذا يعني أنه في مكان شديد التقدّم..

مكان أشبه بالمستقبل..

نعم..

إنه في المستقبل..

مستقبل الأرض، الذي لم يتوقّعه أحد..

مستقبل عالم دمّرته الحروب، وأتلفته الصراعات، وأعاده التقاتل بين سكانه، ألف سنة إلى الوراء..

ولكن بقيت هناك قوة واحدة..

قوة ما زالت تحتفظ بكل تقدُّم، وتكنولوجيا، وعلوم المستقبل...

قوة غاشمة..

سيطرة..

طاغية..

جبّارة..

قوة ما زالت تكمل عمليات تصفية جسدية، تبدو وكأنها مرتبة، ومنسّقة، ومنهجية، وتتبع سياسة وحشية خاصة، ومنطق الغاب الرئيسي..

البقاء للأقوى..

غرق ذهنه في الفكرة، وهو يسير مع (مارا)، عبر ما بدا أشبه بحقول محترقة، تتخللها برك من ماء عجيب، له لون أخضر فاتح، وتنمو حوله نباتات حمراء، وكأنها قد ارتدت بكل ما أريق حولها من دماء..

كان مشهداً رهيباً، حاول (عزت) التشاغل عنه، بالتفكير في احتمالات ما حدث، حتى اقتربا من تلك الأطلال، التي بدت أكثر إثارة للرهبة، من منظور قريب..

المباني متهدّمة بشدة، وقممها سوداء محترقة، والدخان ما زال يتصاعد من كل مكان، ويصنع في سماء المدينة سحابة داكنة، تحمل رائحة الموت، الذي ينتشر في كل مكان..

أما تلك الرائحة الأخرى، فقد كانت فجّة إلى حد مخيف..

رائحة الدماء المحترقة..

وعندما وصلا إلى الأطلال، وأصبحا داخلها، انفصلت مشاعرهما على نحو متناقض، فقد انعقد حاجباه في توتر شديد، في حين ابتهجت (مارا)، وبدت شديدة السعادة، وهي تهتف:

- (أوما).. (أوما).

حاول (عزت) أن يبتسم، وهو يومئ لها برأسه، ولكن التوتر كان يسري في كل ذرة من كيانه، وهو يتوغّل معها أكثر وأكثر، في قلب ذلك الرعب الغامض..

وهناك، في قلب الأطلال، تيقّن من أنه قد قفز، بوسيلة ما، إلى مستقبل الأرض؛ فكل شيء من حوله، كان شبيهاً بما رآه يوماً، في زمنه الفعلي..

بقايا اللوحات..

والإعلانات..

والعلامات الإرشادية..

الفارق الوحيد، هو أنها كلها كانت بلغة مختلفة عما ألفه..

لغة ألمانية، ولكنها تحوى الكثير من الكلمات الإنجليزية، ولمحة من الفرنسية..

إنها لغة المستقبل ولا شك..

اللغة التي يحلم بها العالم الحديث، منذ ثلاثينات القرن العشرين..

ذلك الحلم، الذي من أجله ابتكروا (الإسبرانزو)، وهي اللغة التي جمعوا فيها مفردات، من كل لغة معروفة، واعتبروها لغة عالمية، وأملوا أن تنتشر، ولو كلغة ثانية، في كل بلدان الدنيا..

ولكن الفكرة، على الرغم من أناقتها، لاقت فشلاً ذريعاً..

للغاية..

ولكن يبدو أنهم قد طوّروا الفكرة مرة أخرى..

وأنها قد نجحت..

كل ما يحيط به يوحي بهذا..

لقد نجحت اللعبة..

وفشل العالم كله..

كانت (مارا) تسير في سرعة، وكأنها تعرف طريقها جيداً، في حين يسير هو في حذر شديد، محاولاً تفادي ما يقابله من حطام وأطلال، وأحجار متناثرة هنا وهناك، ومخاطر قد تبرز فجأة، من مكان يجهل كل شيء عنه..

وكأن المكان كئيباً..

إلى أقصى حد..

وطوال الوقت، لم يكفّ (عزت) لحظة واحدة، عن التلفُّت حوله، في توتر عصبي حذر، في حين تسير (مارا) إلى جواره في هدوء، وتشق طريقها وسط الحطام في ثقة، و....

وفجأة، توقفت (مارا)، وأمسكت يده، هاتفة في ارتياع:

- (نينت).. (نينت).

التفت إليها، يسألها في توتر:

- ماذا تعنين؟!

جذبته في قوة وذعر، نحو جدار نصف متهدم، وهي تكرّر:

(نينت).

اختفى معها، خلف ذلك الجدار، إلا أن الفضول كان يلتهمه، حتى أنه أخرج نصف وجهه من خلفه، محاولاً فهم ما أثار فزعها، إلى هذا الحد..

ثم انعقد حاجباه في شدة..

فهناك، من خلف أطلال قريبة، برزت ثلاثة أشكال بشرية، تتحرك في نسق بسيط، وزي مثير للغاية..

كانوا يسيرون اثنان في الخلف، والثالث أمامهما في المنتصف..

وكانوا يرتدون دروعاً..

دروع معدنية لامعة، تشبه تلك التي كان يرتديها فرسان (أوروبا)، في القرون الوسطى، ويحملون سيوفاً ضخمة، أشبه بسيوفهم..

وتفجّر ألف سؤال وسؤال، في عقل (عزت) المندهش المذعور..

فرسان؟!..

في أرض المستقبل؟!..

لم يصدّق عينيه، وهو يتابع تحركاتهم بين الأطلال، والضوء الباهت ينعكس على دروعهم اللامعة، على نحو يزيدهم رهبة ومهابة، وسيوفهم تلتمع على نحو مدهش، وهم يرفعونها أمامهم في قوة..

وبكل الرعب، حاولت (مارا) جذبه خلف الجدار، وهي تكرّر:

- (نينت)..

وفجأة، استوعب عقله سر تلك المصطلحات، التي ترددها طوال الوقت..

(نينت).... لقد وصفت الفرسان باسم (نينت)..

إنها تعني (ذا نيت).. أي الفارس باللغة الإنجليزية..

الآن فقط فهم ما تقول..

إنها بقايا لغة، اندثرت لسبب ما، وبقيت منها مصطلحات، لا يجيد نطقها أحد..

وعندما وصفت أولئك العمالقة باسم (روبا)، كانت تعني روبوت.. أي الشخص الآلي..

ما الذي كانت تعنيه إذن بمصطلحات (نازو)، و(فوهار)، و(فورباد)؟!..

ولماذا وصفته بكلمة (أومريجا)؟!..

هل كانت تعني أنه أمريكي؟!..

ربما.. هذا أقرب إلى الفهم والاستيعاب..

لو أنه على حق، فربما أمكنه فهم هذه اللغة الجديدة، أو بقايا اللغة القديمة، على نحو سريع..

أسرع مما كان يتصوَّر..

جذبته (مارا) مرة أخرى، في رعب أكثر، عندما اقترب الفرسان على نحو مقلق، فانتزعته من أفكاره وحساباته، وجعلته يسألها في توتر واهتمام:

- لماذا تخشينهم إلى هذا الحد؟!..

يبدو أنه قد نطق سؤاله في شيء من الحدة، وبصوت مرتفع قليلاً؛ إن لم

يكد يفعل، حتى توقَّف الفرسان الثلاثة دفعة واحدة، كما لو أنهم قد التقطوا صوته، في حين اتسعت عينا (مارا)، وتراجعت في رعب هائل..

ثم اتجه الفرسان الثلاثة نحو الجدار مباشرة، وهم يشهدون سيوفهم الكبيرة اللامعة، على نحو متحفِّز مخيف، ويلوِّحون بها، متوعدين عدواً، لم يلتقوا به بعد..

وتراجع (عزت) في خوف متوتر، وحاول أن يحمي (مارا) بجسده، حتى لا تمسُّها تلك السيوف الحادة القوية، واستعاد ذهنه ما فعله مع العملاق الأزرق، إلا أن مرأى السيوف القوية، جعله يدير الأمر في رأسه مرة أخرى..

ربما لم تؤذه الأشعة الحارقة لسبب ما..

وربما هو الأدرينالين، ذلك الهرمون الطبيعي، الذي تتضاعف قوته في العروق، عند مواجهة الخطر، المسئول عما فعله بالعملاق..

ولكنه لن يصمد حتماً، أمام تلك السيوف القوية...

جسده البشري، لن يحتمل ضربة واحدة منها..

وثبت إلى عقله فجأة صورة مخيفة، لشهد عنقه، وهو يُقطع، بضربة من أحد تلك السيوف، فسرت في جسده قشعريرة، وتراجع أكثر..

ولكن الفرسان انقضوا فجأة، وحاصروا الجدار من الناحيتين، واندفع أحدهم خلفه، وشهر سيفه في وجه (عزت)..

وشهقت (مارا) في ارتياع، وتشبثت به في رعب، ورأى هو صورته

منعكسة، على نصل السيف، وشعر انها بالفعل النهاية..

بلا أمل..

وفي قوة، رفع الفارس المواجه له سيفه، حتى أقصى ارتفاعه..

ثم هوى به، على رأس (عزت) مباشرة..

وبكل قوته...

وعلى نحو غريزي، رفع (عزت) يده، لتفادى الضربة القاتلة..

ودون وعى منه، أمسك معصم الفارس..

وتسمَّر الفرسان الثلاثة في أماكنهم، كما لو أصابتهم صدمة عنيفة..

فما حدث كان صدمة بالفعل..

صدمة للفرسان..

وللحسناء (مارا)..

وحتى للمهندس (عزت) نفسه!..

فعلى الرغم من قوة الفارس المعدني وبأسه، أمسك (عزت) معصمه؛ فأوقف يده وسيفه في الهواء، وسمره في الأرض تماماً..

وكانت أوّل مرة، يتصدّى فيها بشرى، لواحد من الفرسان المعدنيين، الذين يجوبون الأطلال أحياناً، ويقتلون كل من يجدونه أمامهم من بشر، أياً كانت جنسياتهم أو أعمارهم..

رجال.. نساء.. أطفال.. شيوخ.. لا فارق؛ فمهمتهم هي التصفية

الجسدية، لكل قاطني الأطلال..

وكل من يخالف النظام..

أو يتمرّد عليه..

ولأن الأمر مفاجئاً، وغير مفهوم؛ فقد تجمّد الموقف كله لحظة، قبل أن يتحرّك الكل في آن واحد..

فارس المواجهة استنفر كل قواه، وجذب معصمه من قبضة (عزت)، الذي تراجع خطوة واحدة، في حركة حادة، وجذب معه (مارا)، التي أطلقت شهقة أخرى، واتسعت عيناها أكثر، في حين رفع الفارسان الآخران سيفيهما، واشتركا مع الثالث في انقضاضة قوية، استهدفت (عزت) مباشرة..

وتراجع (عزت) في حدة أكثر..

وذعر أكثر..

والعجيب أن أكثر ما أثار ذعره، في تلك اللحظة، هو مصير (مارا)..

ماذا سيفعلون بها، لو أنهم تخلّصوا منه؟!..

هل سيقتلونها؟!..

أم يستعبدونها، على نحو ما؟!..

ماذا سيكون مصيرها؟!..

ماذا؟!..

ماذا؟!..

لم يجد الكثير من الوقت، ليفكّر في الأمر؛ فقد انقض الفرسان المعدنيون بمنتهى القوة، والعنف، والشراسة، و...

فجأة، اقتحم آخرون المشهد..

شاب قوي، مفتول العضلات، متين البنيان، عريض الصدر، طويل الشعر، حليق الوجه، وثب فجأة، بين (عزت) ومهاجميه، وشهر سيفاً قوياً، أشبه بسيوف الفرسان، وهو يُطلق صرخة قتالية قوية..

وانتفض (عزت) في عنف، من فرط المفاجأة، وصرخت (مارا) في انفعال، لا يمكن تبيُّن ماهيته:

- (أوجار).

وعلى الرغم من مظهره البدائي، وصدره العاري، تصدَّى الشاب القوى للفرسان الثلاثة في بسالة وبأس، وانقضّ بسيفه على سيوفهم، وهو يواصل إطلاق صرخاته القتالية القوية، التي امتزجت بصليل السيوف، على نحو مخيف..

وفي لحظات، برز ثانٍ..

وثالث..

ورابع..

وتوالى ظهور المقاتلين، الذين يحملون سيوفهم، واشتبكوا كلهم مع الفرسان المعدنيين الثلاثة، الذين تراجعوا لحظات، وهم يقاتلون في استماتة، ثم صنعوا من أنفسهم مثلثاً، يلصق كل واحد منهم فيه ظهره، بظهري زميله..

وصرخ الشاب بما يشبه التعليمات للآخرين، فالتفوا في دائرة، حول المثلّث المعدني، الذي صنعه الفرسان، في حين تألّقت عينا (مارا)، وهي تردّد في حماس:

- (أوجار).. (أوجار).

أدرك (عزت) أنها تهتف مبهورة، باسم ذلك الشاب..

وأنها تثق تماماً في أن ظهوره يعني الحماية..

والأمن..

والأمان..

وعلى الرغم منه، شعر بالغيرة..

وكم أدهشه هذا..

لقد التقى بتلك الحسناء الشابة، منذ أقل من يوم واحد، فكيف ارتبط بها إلى هذا الحد؟!..

ولماذا يشعر بالغيرة الآن؟!..

لماذا؟!..

هل من الممكن -منطقياً- أن يقع في حب فتاة، لا يعرف سوى اسمها، وفي هذا الوقت القصير للغاية؟!..

أم أنها تلك الظروف، التي التقيا فيها؟!..

هل كان الخطر عاملاً قوياً، في تفجير مشاعره تجاهها؟!..

أم أنه التصاقها به، وشعوره بأنها تحتمي برجولته؟!..

لقد قضى شبابه كله منكباً على العلم، ولم يحاول الارتباط بأنثى..

أية أنثى..

ثم حدث ما حدث، ودفع القدر (مارا) إليه، في ظروف بلغ توترها مبلغه..

فهل فجّر هذا فيه كل ما اختزنه في أعماقه، طوال عمره كله؟!..

هل؟!..

أدهشه هذا، وأدهشه أكثر أن انشغل عقله به، في هذا الموقف، التي ربما تتوقف حياته، وحياة الآخرين فيه، على ما سينتهي إليه..

هزّ رأسه؛ لينفض عنه توتره وأفكاره، وعاد يولي اهتمامه وانتباهه لذلك القتال العجيب، الذي يدور على بُعد خطوات منه..

كان الرجال يكثفون هجومهم على الفرسان الثلاثة، الذين قاتلوا في شراسة أكثر، وبدا من قتالهم أنهم أدركوا أن خصومهم أكثر عدداً، وأنهم قد يربحون القتال، على الرغم من أجسادهم نصف العارية، والتي لا تحميها دروع قوية..

وفجأة، أطلق أحد الفرسان صرخة قوية..

ومع صرخته، تألّقت سيوفهم، والتمعت وكأنها قد تحولت إلى مصابيح قوية، كاد ضوؤها يغشى أبصار الجميع..

وعلى نحو مدروس، ازدادوا تلاصقاً ببعضهم البعض، حتى بدا وكأن دروعهم قد امتزجت؛ ليتحوّلوا إلى كيان معدني واحد..

وفي اللحظة نفسها، التقطت مسامع (عزت) صوت خفقان أجنحة قوية

فوقه، فرفع عينيه إلى السماء..

وتفجّرت في كيانه ألف ألف دهشة...

فما رآه في السماء كان مذهلاً..

بل أكثر من هذا.

• • •

الفصل الثامن

التقى حاجبا الزعيم الكبير في غضب صارم، وهو يتابع المشاهد على شاشة الرصد الكبيرة، قبل أن يتراجع بملامحه العجوز، وتغضينته الكبيرة، ويسند ذقنه على سبّابته وإبهامه، مغمغماً:

– كيف؟!..

نطقها، وعاد إلى صمته، ومتابعته للمشاهد، ثم لم يلبث أن ضغط زر الإغلاق، فتلاشت الصورة من الشاشة، وعادت الصور التقليدية للظهور..

ولدقائق، ظلّ الزعيم صامتاً مفكّراً، على عرشه الكبير، ثم لم يلبث أن اعتدل في بطء، ونهض عن عرشه في صعوبة، تشفّ عن حالة الضعف، التي يعاني منها جسده شبه المتهالك، وغمغم في عصبية:

– الأوزون.

لم يكد ينطقها، حتى برزت من الأرض اللامعة قطعة مستديرة، راحت تعلو في بطء، لتكشف جدرانها الشفّافة، وذلك المقعد الثابت داخلها، وهي تبدو أشبه بكابينة استحمام خاصة، لفرد واحد..

وعندما استقرّت تلك الكابينة أمام المنصة، كان الزعيم قد هبط إليها، في

صعوبة واضحة، وفتح بابها، ويده تكاد لا تساعده، ثم ألقى جسده على ذلك المقعد في شبه انهيار، وضغط زراً في مسند المقعد، ثم استقر فوقه، وهو يلهث على نحو عجيب، وكأنما يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة..

ومع ضغطة الزر، أغلق باب الكابينة، وتألّقت قمتها، وبدء ضخ غاز خاص داخلها.. غاز، هو مزيج من الأوزون، وبعض العناصر النادرة، بالإضافة إلى غاز خاص، تم ابتكاره حديثاً، بمقاييس ذلك الزمن..

أو ذلك العالم..

وفي ارتياح شديد، استرخى الزعيم على مقعده، وملأ صدره بذلك المزيج الخاص جداً، وراح يتنفّس في عمق، وهو يسبل جفنيه، وكأنه يجلس على شاطئ جميل، وسط نسيم عليل..

ولقد استغرقت هذه الجلسة ما يقرب من نصف الساعة، قبل أن تعود قمة الكابينة للتألّق، ويتوقّف ضخ الغاز، وينفتح باب الكابينة في بطء..

ولدقيقة أو أكثر، ظلّ الزعيم صامتاً، مغلق العينين، وكأنه يستمتع بآخر رشفة، من ذلك الغاز الخاص، ثم فتح عينيه دفعة واحدة، وتطلّع إلى عرشه، الذي يستقر فوق المنصة أمامه..

والمدهش أنه، عندما فتح عينيه، كانتا تختلفان تماماً عما كانتا عليه، قبل دخوله تلك الكابينة الأسطوانية الخاصة..

كانتا تتألّقان في ذكاء..

وألمعية..

وحيوية..

وعندما نهض من ذلك المقعد، كان على عكس جلوسه عليه، ممتلئ بالحيوية والنشاط والقوة، ولقد ظهر هذا في خطواته، وهو يخرج من الكابينة، التي أغلق بابها خلفه، وعادت تغوص في أرضية القاعة، حتى اختفت فيها تماماً..

أما هو، فقد عقد كفيه خلف ظهره، وشدّ قامته على نحو عسكري، بدا متناسقاً تماماً مع زيه القديم، وأدار عينيه إلى شاشة مطفأة، خلف أحد العملاقين الحارسين، واتجه إليها في خطوات قوية، وتوقّف أمامها لحظات، ثم مال يضغط زراً إلى جوارها، ويتراجع خطوتين؛ ليمكنه متابعة ما ظهر عليها..

وأمام عينيه، على الشاشة، توالت مشاهد متحركة، تصف حرباً طاحنة..

حرب تضافرت فيها كل القوى..

وكل الأسلحة..

حرب سالت فيها الدماء أنهاراً، وارتفعت فيها أعلام كثيرة..

ثم كانت الضربة الكبرى..

ومع تألّق عينيه بشدة، شاهد الزعيم تلك الضربة الهائلة، التي حسمت الحرب الكبيرة..

الضربة التي ارتفع فيها على عالمه علم واحد..

علمه..

انتهت المشاهد بذلك العلم، الذي قاتل الدنيا كلها لرفعته، وامتلأت نفسه

بالنشوة، وشدّ قامته في اعتداد، وتألّقت عيناه أكثر وأكثر، وهو يثبّت الصورة، لتمتلئ الشاشة كلها بذلك العلم، وتوقّف دقيقة كاملة يتطلّع إليه، قبل أن يلتقي حاجباه الكثّان في صرامة، ويكرّر العبارة نفسها، التي قالها لرقم واحد من قبل...

"أريد هذا الرجل.."..

ومع تكرارها، بدأت عيناه وكأنهما تشتعلان، بألف ألف نار..

على الأقل..

وفي نفس اللحظة، التي كرّر فيها عبارته، كان (عزت) يعدو، مع (مارا) و(أوجار) والباقين، فراراً من ذلك الكائن الرهيب، الذي يحلّق فوق رءوسهم..

كان لم يره (عزت) من قبل، إلا في لوحات وكتب وأفلام الأساطير!!..

ولم يتخيّل قط وجوده.. في عالم الواقع..

كان والآخرون قد فروا من موقع القتال، فور (ظهور) ذلك الكائن العملاق، الذي راح يرفرف بجناحيه الضخمين، وهو يلاحقهم على نحو مخيف.

وأمام عيني (عزت) المذعورتين، انقضّ على أحد الفارين، وأنشب مخالبه في ظهره، وارتفع به عالياً، وهو يضرب آخر بذيله في قوة، فيطيح به خمسة أمتار على الأقل، ليهوى فوق الأطلال، ويتحطّم ظهره في عنف..

وفوق رءوسهم، قضم الكائن رأس فريسته، ثم ألقاه فوق رءوسهم، في مشهد فاق كل ما راود (عزت)، حتى في أبشع كوابيسه، حتى أن ذعره قد تضاعف عدة مرات، ودفعه للعدو بتلك السرعة، التي جعلته يتجاوز الآخرين بعدة أمتار،

قبل أن ينتبه إلى هذا، ويستدير بحثاً عن (مارا) في هلع..

كانت تعدو إلى جوار (أوجار)، متعلّقة بذراعه، وهو يكاد يحملها بذراع واحدة، وهو يعدو بكل قوته، محاولاً الفرار من الكائن، الذي دار دورة كبيرة في الهواء، ثم خفق بجناحيه الكبيرين، وهو ينقض عليهم في وحشية..

واتسعت عينا (عزت) عن آخرهما..

إنه تنين!!..

نعم.. تنين حقيقي، كما قرأ أوصافه، وكما رآه في رسوم الأقدمين، وحتى في أفلام الخيال العلمي!..

تنين حي، يحوم فوق رءوسهم، وينقض عليهم، كما لو أنهم جزء من مشهد رهيب مخيف..

ولكنه ليس وقت التفكير والدهشة والتساؤل..

التنين ينقض..

و(مارا) في خطر..

لا.. ليس (مارا)...

شيء ما، كان يجذبه إلى تلك الحسناء البدائية بشدة..

شيء لا يدرى ما هو!!..

ولا كيف نشأ!!..

ولكنه هناك... في أعمق أعماق قلبه..

شيء، كان أقوى من خوفه، ومن مشهد ذلك التنين الرهيب، الذي ينقض عليهما، وعلى (أوجار) في وحشية، وأنيابه الحادة تبرز، وكأنه يهم بقضم رأسيهما، كما فعل مع ضحيته السابقة..

ودون أن يدرى حقاً، صرخ (عزت) بكل قوته:

- لا.. ليس هي.

ثم انطلق يعدو، عائداً إلى (مارا) و(أوجار)، والتنين ينقض عليهما، من الجهة الأخرى..

وكان سباقاً وحشياً..

من يصل إليهما أوّلاً..

(عزت)..

أم التنين..

ووفقاً للسرعة والمسافة، كان الأرجح هو أن التنين سيبلغهما أوّلاً..

لذا، فقد وثب (عزت)..

وثب وثبة، لم يتخيّل هو نفسه، أنه قادر على أدائها..

وثبة جعلته يرتفع أربعة أمتار إلى أعلى، ويتجاوز رأسي (مارا) و(أوجار)، أمام كل العيون الذاهلة، ويتعلّق بقدمي التنين، الذي بوغت بما حدث مثلهم، فاختلّ توازنه، وانخفض على نحو مخيف، قبل أن يضرب الهواء بجناحيه القويين، ويعاود الارتفاع مرة أخرى، جاذباً (عزت) معه..

العجيب أن (عزت) أيضاً بوغت بما فعله، ولم يدر ما الخطوة التالية، والتنين يخفق بجناحيه، ويعلو به عالياً..

ويعلو..

ويعلو..

ومن هذا الارتفاع، رأى (عزت) لأوّل مرة، تلك القلعة الكبيرة..

قلعة هائلة، تشبه قلاع (أوروبا) القديمة، ولكنها أكثر ضخامة، وتحيط به عدة مبان متماثلة، من الطراز نفسه، وحول كل هذا سور هائل، تألّقت قمته على نحو عجيب..

وفي منتصف تلك القلعة، كانت هناك قبة كبيرة، تتألّق على نحو يفوق تألّق قمة السور، وحولها حلّقت تنانين عديدة، تحوم.. وتحوم.. وتحوم.. وانتفض جسد (عزت) في عنف، عندما أدرك أن التنين يحمله إلى هناك مباشرة..

إلى حيث التنانين الآخرين..

إلى القلعة..

وعلى الرغم من أنه يجهل ما يمكن أن يجده هناك، شعر (عزت) بخوف شديد، وبصرخة قوية تتردّد في أعماقه..

لا تجعله يأخذك هناك..

لا تجعله يفعل، مهما كان الثمن..

ولكن التنين كان يحمله عالياً جداً، ويطير به بسرعة كبيرة، نحو القلعة

مباشرة، ولا يوجد سبيل للفكاك..

أي سبيل..

إنه لا يحمل حتى أي سلاح، يمكن أن يستخدمه؛ لإيقاف هذا التنين العملاق، الذي يطير به نحو ما بدا حتفه..

لا يحمل سوى كلمة..

كثيراً ما سمع، في صباه وشبابه، تلك المقولة القديمة، التي تقول إن القلم أمضى من السيف، وأخطر منه كسلاح..

ولكنها مجرّد مقولة..

الفيلم سيظل قلماً..

إلا إذا..

قفزت الفكرة إلى رأسه، وبدت حمقاء مجنونة، إلا أنها كانت الأمل الوحيد لنجاته، لذا فقد أفلت يده اليمنى، وتعلّق بساق التنين بيسراه وحدها، والتقط قلمه من جيبه، ثم دفعه بكل قوته إلى أعلى، وطعن به التنين، فيما بدا له موضع قلبه.. وبمنتهى القوة، انطلقت من حلق التنين صرخة..

صرخة رهيبة، شعر بها (عزت) ترجّ كيانه كله، قبل أن يضرب بجناحيه الهائلين في الهواء، وينخفض بجسده الضخم، الشبيه بثعبان هائل، له سيقان نسر ضخم، وجناحي رخ، ورأس ديناصور..

ولوهلة، توقّع (عزت) أنه سيضربه بمخالبه في جسده، أو أنه سيحاول

فضم رأسه غضباً..

ولكن التنين الهائل لم يفعل..

لم يحاول حتى أن يفعل..

فبمنتهى العنف، راحت الدم تنزف، من موضع طعنة قلم (عزت)، في قوة وغزارة، وتتناثر على وجه مهندس الإليكترونيات وجسده..

وبالنسبة إليه، كان هذا يعني حسم نقطة بالغة الأهمية..

ذلك التنين ليس آلة..

ليس مجرَّد آلة، على الرغم مما قد يوحى به هذا، أو توحي به هيئته الأسطورية..

إنه كائن حي..

كائن حي حقيقي..

وواقعي..

وهذا يعنى بالتالي أن هذا العالم، الذي يحيط به، ليس عالماً طبيعياً..

وربما لا يكون مستقبل الأرض..

أو ما فيها..

أو أي عصر من عصورها..

ربما كان عالماً آخر..

عالم أسطوري غريب، يجمع بين الواقعية المؤلمة، والإسراف في خيال بلا

حدود..

خيال مخيف..

مثير..

غامض..

كانت تلك الفكرة تشتعل في رأس (عزت)، والتنين الهائل ينخفض به..

وينخفض..

وينخفض..

والأرض المغطاة بالأطلال شبه المحترقة تقترب، في سرعة مخيفة، توحي بأن الارتطام العنيف قادم لا محالة..

ولم يدر (عزت) ماذا يفعل؟!..

لقد نجحت خطته، وأصاب التنين في مقتل، وها هو ذا يتهاوى من حالق..

المشكلة الوحيدة، أنه يتهاوى، وهو يمسك به..

ويسقطان معاً، بمنتهى السرعة..

ومنتهى العنف..

ومع اقتراب قمم الأطلال شبه المحترقة في سرعة، لم يجد (عزت) أمامه سوى حل واحد، على الرغم مما ينطوي عليه من خطر..

وعلى الفور، وقبل أن يضيع لحظة واحدة، أفلت (عزت) كفيه، وترك جسده يسقط من حالق، وهو لا يدرى ماذا يمكن أن يصيبه..

وماذا يمكن أن يخفي له القدر؟!..

ماذا؟!..

ماذا؟!..

السؤال نفسه كان يطرحه على نفسه رقم واحد، في تلك القاعة الواسعة، في قلب قلعة الزعامة، عندما تابع مشهد (عزت)، وهو يطعن التنين..

ولقد أدهشه المشهد بشدة..

أدهشته جرأة (عزت)!..

وقوته أيضاً!..

فوفقاً لمعلوماته، كان جسد التنين شديد القوة والمناعة، وليس من السهل أن يخترقه بشرى بطعنة واحدة، إلا إذا كان شديد القوة والبأس..

ولكن (عزت) فعلها؛ وهذا يضاعف الغموض المحيط به، ألف مرة..

الغموض، الذي يحاول رقم واحد كشفه، أو حتى فهمه، منذ ظهر (عزت) في عالمه..

لم يكن يعرف اسمه، أو هويته، ولكنه واثق من أن الزعيم يعرف عنه الكثير..

والكثير جداً..

ولكن لماذا يخفي الزعيم كل ما يعرفه عنه؟!..

ولماذا يريده؟!..

لماذا؟!..

قبل أن تتواصل الأسئلة في رأسه، اختفت الصورة عن شاشة الرصد فجأة، وظهرت بدلاً منها صورة الزعيم الكبير، الذي بدا أكثر قوة وحيوية، على الرغم من أن تجاعيد وجهه لم تختلف، وهو يقول في صرامة:

- أريد هذا الرجل.

اعتدل رقم واحد في سرعة، ورفع يده مفرودة الراحة أمامه، وهو يطلق هتاف التحية، قبل أن يقول في جمود:

- إنه يسقط أيها الزعيم، بعد أن طعن تنيننا، وسيرتطم بالأرض حتماً في عنف، و..

قاطعه الزعيم في صرامة:

- سينجو.

أدهشه القرار الحاسم، الذي يوحي بكل الثقة، وبدا له جزءاً من الغموض المحيط بالموقف كله، فحدّق في صورة الزعيم، على الشاشة الكبيرة، ولكن هذا الأخير قال بمنتهى الصرامة، وعيناه تتألقان على نحو عجيب:

- أريد هذا الرجل.

ولم يملك رقم واحد سوى أن شد قامته، وفرد يده أمامه، ورفع راحته، وهو يطلق ذلك الهتاف..

الهتاف الذي يعني السمع والطاعة..

دون مناقشة..

لحظة إطلاقه الهتاف، اقترنت باقتراب (عزت) من الأطلال..

وارتطامه بها في قوة..

ارتطم في البداية بقمة مبنى نصف متهدم، ثم سقط عنها، ليرتطم بسور متهالك، ويسقطه معه؛ ليرتطم الاثنان بالأرض في عنف..

وأخيراً، استقر على الأرض، وسط كومة من الحطام والدمار..

ولنصف دقيقة كاملة، أغلق عينيه، وتصوّر أنه يحتضر..

ثم فجأة، انتبه إلى أمر بالغ الغرابة..

لقد سقط من حالق، وارتطم عدة مرات، قبل أن يستقر أرضاً، وعلى الرغم من هذا، فهو لا يشعر بألم مناسب لما حدث..

صحيح أن هناك آلام، في كل شبر من جسده، ولكن ليس بالدرجة التي تتناسب مع ما حدث..

إنه يشعر وكأنه قد سقط، من فوق أريكة عالية، وليس من ارتفاع عشرات الأمتار في السماء!!..

ولكن كيف؟!..

كيف قاوم جسده عنف السقوط؟!..

كيف احتمل هذا؟!..

كيف؟!..

مع تساؤله، فتح عينيه، ورأى نفسه يرقد وسط الحطام، والشمس توشك على المغيب، و...

وفجأة، برزت عدة رءوس من حوله..

رءوس بدائية، يطل من عيونها كل الدهشة والحيرة والفضول..

والتوقير أيضاً..

ومن بين كل تلك الرءوس، ظهر وجه (مارا)، ووجه (أوجار)، الذي كان يحدّق فيه بدهشة متوترة، في حين كانت (مارا) تردّد، في احترام مبهور:

- (سافور).. (سافور).

وبينما يبحث (عزت) عن مرادف للكلمة، في اللغة الإنجليزية، نهض من سقطته، واعتدل، ثم هب واقفاً..

ومع وقوفه، فوجئ بكل من حوله، فيما عدا (أوجار)، يسقطون على ركبهم، ويضمون قبضاتهم تحت ذقونهم، وكلهم يردّدون في آن واحد:

- (سافور).. (سافور).

وهنا فقط، انتبه إلى ما تعنيه الكلمة..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

(سافور) تعني كلمة (سافيور) بالإنجليزية..

المنقذ..

إنهم يعتبرونه منقذهم..

يتصوَّرون أنه المنقذ، الذي هبط عليهم من السماء، لينتشلهم من عذاب ذلك العالم، الذي يحيون فيه..

تلك القوى العجيبة، التي اكتسبها جسده النحيل، في هذا العالم، جعلتهم يتصوَّرونه كذلك!..

ولو أنه في مكانهم، ويحيا بتفكيرهم؛ ربما كان تصوَّر المثل..

فوحده دونهم، يستطيع احتمال الأشعة الحارقة..

والسقوط من علو..

ويسقط العمالقة..

ويتصدَّى في قوة للفرسان المعدنيين..

وحده دونهم، يمتلك قوة شبه خارقة، في عالم غريب..

وعجيب..

ومخيف..

كان الكل من حوله يواصلون ترديد الكلمة، في خشوع عجيب، أصابه بالتوتر، وجعله ينظر إلى (أوجار)، الوحيد الذي بقي صامتاً، واقفاً، ويقول في عصبية:

- لست منقذاً.. أنا مجرَّد رجل عادي.. مجرَّد مهندس إليكترونيات بسيط

انعقد حاجبا (أوجار)، وهو يتطلَّع إليه، وكأنه يفهم ما يقول، ثم استلَّ

سيفه فجأة، وانقض عليه..

وفي ذعر، تراجع (عزت) هاتفاً:

- لا.. ليس الـ.

وقبل أن يكمل هتافه، هوى عليه (أوجار) بسيفه، بكل ما يملك من قوة..

وفي حركة غريزية، دفعه إليها ذعره، رفع يده، وأمسك معصم (أوجار)؛ ليمنع سيفه من بلوغه..

واتسعت عينا (أوجار) عن آخرهما..

واتسعت معهما عيون الجميع..

حتى (عزت) نفسه..

فبالنسبة للجميع، كان (أوجار) رمز القوة والبسالة والبأس..

وبعضلاته المفتولة وجسده الممشوق، إلى جوار جسد (عزت) الضئيل النحيل، بدا أشبه بعملاق هائل..

وعلى الرغم من هذا، فقد أوقفته يد (عزت)..

أمسكت معصمه، بقبضة من فولاذ، وأوقفت يده القوية، بعضلاتها المفتولة، قبل أن يبلغ السيف رأسه..

وفي توتر شديد، عقد (أوجار) حاجبيه، في حين خر الآخرون على ركبهم، ورفعوا أيديهم نحو (عزت)، وهم يرددون في آن واحد، تقودهم (مار):

- (سافور).. (سافور).

وفي بطء، أفلت (عزت) يد (أوجار)، والتقت عيناه بعيني هذا الأخير في صمت، استغرق دقيقة تقريباً، قبل أن يعيد (أوجار) سيفه إلى غمده، ويقول، في شيء من العصبية:

– (كوناد).

نطقها، فعاد الجميع يقفون على أقدامهم في بط مشددة، وغمغمت (مارا):

– (سافور).. (كوناد).

لم يفهم (عزت) بالطبع هذا الاسم الجديد، فاكتفى بأن غمغم في توتر:

– لست منقذاً.. أنا مهندس إليكترونيات عادي.

ولكن (أوجار) أمسكه من يده في قوة، وانطلق الكل يعدون به عبر الأطلال، وعبر دروب ومسالك شديدة التعقيد، ومعظمها مستتر عن الأعين، وهو صامت مستسلم، لا يحاول أن يتساءل حتى إلى أين يحملونه، حتى بلغوا جداراً ضخماً.. أسود معظمه من آثار حريق قديم، فتوقّف عنده الجميع، وقال (أوجار)، وهو ينظر إليه، ويشير إلى ذلك الجدار:

– (كوناد).

فردَّد (عزت) خلفه في تردُّد:

– (كوناد).

وهنا دق (أوجار) الجدار ثلاث دقات متتالية، ثم انتظر لحظة، ودق دقة أخرى.. وفي بطء، وبصرير مزعج، انفتح الجدار، ليكشف خلفه آخر مشهد يتوقّع

(عزت) رؤيته، في هذا المكان..

قرية كاملة، داخل قاعة هائلة..

بيوت صغيرة نظيفة ومنتظمة..

سوق..

مسبح كبير..

رجال، ونساء، وأطفال وشيوخ..

مكان متكامل مغلق، دلف إليه الجميع، وجذبه (أوجار) إليه برفق هذه المرة، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة، في حين همست (مارا) في نشوة وارتياح:

– (أوما).

هذه المرة، فهم (عزت) ما تعنيه..

فوفقاً للموقف، وللغتهم المتحوِّرة، كان تعني حتماً (هوم)..

المنزل..

والملاذ..

والمستقر..

ولقد صمت سكان ذلك المكان كلهم، وتيممت أبصارهم شطر (عزت)، الذي سار مع (أوجار) و(مارا) والآخرين، في حذر شديد، نحو كوخ كبير، كان من الواضح أنه محاط بتكريم خاص، وعيناه ترصدان كل ما حوله..

كان المكان أشبه بقاعة فنون ضخمة قديمة، ببقايا اللوحات المتهالكة، التي

تملأ الجدران، وتلك اللافتات الدعائية، التي تعود إلى الحرب العالمية الثانية، و...

وفجأة، توقَّف مصعوقاً، أمام لوحة بعينها..

لوحة كبيرة، لزعيم قديم، تحفظ الدنيا كلها صورته عن ظهر قلب..

ولكن اللوحة لم تكن تتطابق مع صورته، التي رآها طوال حياته..

ففي اللوحة، كان يبدو أكبر سناً..

أكبر بكثير..

ملامحه أضيفت إليها تجاعيد كثيرة، وشعره اكتسى كله بالشيب، وزادت مساحة صلعته، و...

"إنه هو.."..

جاءت العبارة من خلفه، بلغة إنجليزية سليمة، يسمعها لأوَّل مرة، منذ وجد نفسه في هذا العالم العجيب، فالتفت إلى صاحبها في لهفة، وهتف بالعربية:

– أتتحدَّث الإنجليزية؟!

رأى أمام شيخاً عجوزاً، أشيب الشعر واللحية، يرتدي رداءً أبيض، من قطعة واحدة، ويتكئ على عصا كبيرة، تكاد تفوقه طولاً، ولقد انعقد حاجباه الأشيبان الكثّان، عندما سمع عبارة (عزت)، وتطلَّع إليه في إمعان، قبل أن يقول في بطء:

– العربية.. لغتك هي العربية.. اللغة الوحيدة التي قاومت الغزو، ولم تكتسب منه سوى قشور سطحية.

قال العبارة كلها بالعربية، فسأله (عزت) مبهوراً:

– أتتحدَّث العربية أيضاً؟!

ابتسم الشيخ، وقال:

– هذا قدري يا ولدي.. أنا أحفظ تلك اللغات القديمة، التي نجح الاحتلال في محوها أو تشويهها.. إنني أتحدَّث الإيطالية والفرنسية والأسبانية أيضاً.

سأله (عزت) في خفوت، والانبهار لم يفارقه بعد:

– وماذا عن الألمانية؟!

ابتسم الشيخ ابتسامة مريرة، وأجاب:

– ليست بحاجة إلى من يحفظها.

اتسعت عينا (عزت) عن آخرهما، وهو يحاول فهم ما يعنيه هذا، في حين طرد الشيخ المرارة في ابتسامته، ومد يده إلى (عزت)، قائلاً:

– أنا (كوناد).. حكيم هذا المجتمع الصغير، الذي يحاول النجاة من ذلك الجحيم، الذي غزا العالم كله.

غمغم (عزت)، وذهنه مشغول تماماً:

– اسمي (عزت)، وأنا مهندس إليكترونيات، لو أنكم تفهمون معنى العبارة.

ابتسم الشيخ، وهزّ رأسه، على نحو لم يفهم منه (عزت) شيئاً محدوداً، فالتفت مرة أخرى إلى اللوحة الكبيرة، وسأل في حذر:

– معذرة، ولكن ما تقوله جعلني أتساءل أكثر.. أهذه صورة... صورة..

تردّد في نطق الاسم، فقال (كوناد) في حزم:

- نعم.. صورته.. صورة (أدولف هتلر).

واتسعت عينا (عزت)، حتى بلغتا أقصاهما..

فالمفاجأة كانت مذهلة..

إلى أقصى حد.

• • •

الفصل التاسع

"ما توصلنا إليه مجرّد استنباطات، ولكنها مذهلة.. ومخيفة أيضاً"..

نطق مدير المركز بالعبارة، في توتر شديد، جعل (فراس) يسأله في قلق:

- وما هو؟!

نظر إليه الرجل لحظة في صمت، ثم نهض من خلف مكتبه، وقال بنفس التوتر:

- عندما وضع (آينشتاين) نظريته الشهيرة، مما يزيد قليلاً عن قرن من الزمان، افترض وجود أبعاد زمنية وأرضية مختلفة، بمعنى أن تكون هناك أرض ثانية، وثالثة، ورابعة.. وربما عدد غير محدود من العوالم، التي تتشابه معنا، في نفس المنحنى الزمني والتطوري، ولكن كل منها يحيا في بعد مختلف، وتتشارك كلها في الساحة نفسها، بحيث لا يشعر عالم منها بوجود الآخر، إلا إذا ما حدثت نقطة تماس، تصل العالمين ببعضهما البعض، إما من قبيل المصادفة، كما تفسّر بعض النظريات حوادث الاختفاء الغامضة، في المنطقة المعروفة باسم مثلث (برمودا)، وإما عمداً، عن طريق إحداث خلل كهرومغناطيسي خاص.

وصمت لحظة، ثم أردف في اضطراب:

- خلل سلبي.

حدّق فيه (فراس) لحظات، ثم قال في عصبية:

- ألا يمكننا تجاوز هذه المصطلحات العلمية المعقّدة، والوثب إلى النتائج فوراً؟!

غمغم مدير المركز:

- سأحاول.

وعاد يجلس خلف مكتبه، وهو يضيف، في حزم متوتر:

- إننا نتعرّض لغزو.. أو بمعنى أدق.. لمحاولة غزو.

امتقع وجه (فراس)، وهو ينهض، قائلاً:

- من عالم آخر؟!

أومأ مدير المركز برأسه إيجاباً، قبل أن يقول:

- نعم.. ولكنه ليس عالماً بعيداً، يكمن في غياهب الفضاء، كما قد يتصوّر الكل، وإنما هو عالم يشاركنا المساحة نفسها.

سأله في عصبية:

- ما معنى هذا؟!

أجابه الرجل، في عصبية شديدة:

- هناك عالم آخر.. عالم مواز لنا.. عالم في بُعد مختلف، كشف وجودنا بوسيلة ما، وقرّر أن يغزونا.. والآلي العملاق، والهيكل العظمى المارد، وتلك

العواصف الكهرومغناطيسية السلبية، وحوادث الاختفاء الغامضة، في الربع الخالي، كلها عبارة عن نتائج تلك الثغرة، التي يحاول العالم الموازى فتحها، بين عالمه وعالمنا، لتنطلق منها قوات الغزو.

اتسعت عينا (فراس) عن آخرهما، وهو يقول:

- ولكن ماذا عن تلك الأجسام الطائرة المجهولة؟!

هزّ الرجل رأسه نفياً، وقال:

- الكل يصرون على أنها ظاهرة مختلفة.. ظاهرة ربما جذبتها محاولة فتح الثغرة بين العالمين، وما أسفرت عنه من ظواهر عجيبة.

بدت حيرة مضطربة على (فراس)، وهو يقلب كفيه، قائلاً:

- لن يمكنني إقناع رؤسائي بهذا.

أجابه الرجل، في حزم متوتر:

- لابد وأن تقنعهم، وبأسرع وسيلة ممكنة، لأن الخرائط الكهرومغناطيسية تشير إلى أن الثغرة تتسع، وعبور ذلك العملاق الآلي منها، يعني أنه لن يمضي وقت طويل، حتى نجد جيوشاً جرّارة تعبر إلينا، من عالم آخر، لتغزو عالمنا كله.

قال (فراس)، في عصبية أكثر:

- فكرة العالم المواز هذه، ليس من السهل إقناع الرؤساء بها، فالمفترض أن

يتخذوا قرارات شديدة الخطورة بناءً على هذا.. لابد من محاصرة منطقة الثغرة، وإحاطتها بجيوش وقوات، وربما استدعى الأمر قصفها بقنبلة نووية أو ما شابه.

هتف مدير المركز في ذعر:

- لا.. لا قنابل نووية.. هذا كفيل بتدمير واسع المدى، مع وجود تلك الثغرة بين عالمين.

هتف (فراس) بدوره:

- ولكن بم يمكن أن أصف لهم هذا العالم، الذي يسعى لغزونا، والذي يوجد حولنا، ولكننا لا نشعر به.

أجابه في حزم:

- أخبرهم أن النسخة الشريرة من أرضنا.. ظلنا.. ظل الأرض.

ومرة أخرى، لم يستوعب (فراس) الأمر..

على الإطلاق..

وفي نفس اللحظة، التي بدأ يبحث فيها عن وسيلة؛ لإقناع رؤسائه، كان (عزت) هناك، في ذلك العالم الآخر، الذي أطلقوا عليه اسم ظل الأرض، يجلس مع (كوناد)، في كوخ هذا الأخير، الذي يقول في رصانة، تتفق مع مكانته وهيبته وسنه:

- لا يمكنني استنتاج ما حدث، في العالم الذي أتيت منه، ولكن هنا،

بدأت الكارثة كلها، في عام 1943م.. ففي الولايات المتحدة الأمريكية القديمة، والتي لم يعد لها وجود الآن، تولّى قيادة مشروع إنتاج القنبلة الذرية جنرال أمريكي، كان شديد الصرامة والانضباط، من الناحية العسكرية، وشديد الجهل بالقواعد العلمية، إلى حد مستفز، حتى أن قراراته، التي تصوّر أنها ستضمن الانضباط للمشروع، أدّت إلى تأخّر خطواته كثيراً، في نفس الوقت الذي راح الألمان يعملون فيه، على قدم وساق، لإنجاز مشروع مماثل، خاصة وأن قواتهم كانت تلاقي هزائم رهيبة، على الجبهة الروسية، وحتى في (أوروبا).. وفي أواخر عام 1944م، توصل النازيون إلى القنبلة الذرية، قبل أن يفعل الباقون، وفي أوّل عام 1945م، ألقوا قنبلتين ذريتين، على (موسكو) و(لينينجراد)، ومحوهما تماماً من الوجود، فأصيب العالم كله بذعر ما بعده ذعر، وحاول محاولة أخيرة للمقاومة، ولكن حاملة طائرات ألمانية نجحت في الاقتراب من (أمريكا)، في منتصف يناير، من العام نفسه، وأقلعت من على متنها ست طائرات، تحمل القنابل الذرية، وفي ساعة واحدة، تم محو (واشنطن)، و(نيويورك)، و(لوس أنجلوس)، و(لاس فيجاس)، وعلى الرغم من إعلان (أمريكا) الاستسلام، دون قيد أو شرط، فقد تم قصفها بثمان قنابل ذرية أخرى، بعد أسبوعين فقط، كما لو أن الفوهلر قد قرّر تأديبها، على مشاركتها في الحرب.

غمغم (عزت) مشدوهاً:

- يا إلهي!.. قرار خاطئ واحد، فعل كل هذا؟!

تابع الشيخ، وكأنه لم يسمعه:

– ومع سحق (أمريكا)، استسلمت (بريطانيا) فوراً، وحاولت (أفريقيا)، والعالم العربي الابتعاد عن اللعبة كلها، ولكن (هتلر) كان قد غرق في جنون القوة والسيطرة، فأعلن أن العلم النازي سيرتفع على كل دولة في العالم، وأن القوات النازية ستدخل كل الدول معزّزة مكرّمة، وهدد بضرب أية دولة بالقنابل الذرية، لو انطلقت فيها رصاصة مقاومة واحدة، وهكذا لم ينتصف عام 1945م، حتى كان العلم النازي يرتفع على العالم كله، وأصبحت اللغة الألمانية هي اللغة الرسمية لكل الدول، وصدر قرار باعتقال كل من يرفض التحدُّث بها، وحتى بداية عام 1950م، شهد العالم بحوراً من الدم، لم يشهد لها مثيل، منذ بدء التاريخ.

غمغم (عزت) في اشمئزاز:

– يا للبشاعة!

وافقه الشيخ بإيماءة من رأسه، وأكمل:

– النظام النازي أعدم ما يزيد عن ستة ملايين شخص، في أنحاء العالم المختلفة، واعتقل ضعف هذا العدد، وسخرهم في بناء قلعة هائلة، تتوسط الجزر البريطانية، التي أصبحت ملكاً له أخيراً، ويقولون أن هذه القلعة صرحاً علمياً، بكل ما تحمله الكلمة من معان، وأنه جمع فيها أعظم العقول المفكِّرة، من كل الدنيا، وأنها تحوى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وللحفاظ على سريتها، تم قتل كل من شارك في بنائها، وتم حظر العلم والدراسة، إلا على الألمان، وسكان القلعة الرهيبة، التي تحكم العالم، والتي يطلق عليها الكل اسم (فوربادا)، وهو تحوير لكلمة (فوربدن)، أو المنطقة المحرَّمة؛ لأنه يحظر على أي مخلوق الاقتراب

منها، وإلا كان الموت مصيره، وتحرسها تلك العمالقة، التي تخرج في حملات تصفية، كل حين وآخر، فتقتل كل من يعترض طريقها دون تمييز؛ لتبث الرعب في القلوب، وتضمن ابتعاد الكل عن القلعة، وعن أية وسيلة للتطوُّر، بحث يقتصر التقدُّم عليها وعلى قاطنيها، لضمان السيطرة التامة الدائمة على الجميع.

بدا (عزت) مبهوراً مشدوهاً، وهو يقول:

– ولكن التاريخ الذي أعرفه، يختلف عن هذا كثيراً.

هزَّ الشيخ كتفيه، قائلاً:

– هناك تفسير واحد لهذا.

سأله في حذر قلق:

– وما هو؟!

أجابه في بطء:

– أنك من عالم آخر.

على الرغم من أن هذا ما توصَّل إليه عقله، منذ بدء الحديث، إلا أن مواجهته به جعلت جسده ينتفض، ووجه يشحب، وعينيه تزوغان، وهو يتراجع مغمغماً:

– عالم آخر.

أجابه الشيخ، وقد لاحظ ما اعتراه:

– جدي رحمه الله كان أحد العلماء، الذين أفلتوا من قبضة الاحتلال، ولقد كان يواسي من حوله، بأنه وفقاً للنظريات العلمية، هناك عالم آخر مواز، ربما لم يحدث فيه ما حدث لعالمنا.. عالم ربما انهزم فيه النازيون، وربح العالم حريته وأمنه.

هزّ (عزت) رأسه في بطء، وقال في شحوب:

– لم نكن نتصوّر أننا قد ربحنا.

سأله الشيخ في شغف:

– هل انهزم النازيون بالفعل في عالمك؟!

أومأ (عزت) برأسه، وغمغم شارداً:

– في عالمي توصل الأمريكيون إلى القنبلة الذرية أوّلاً، وانهزمت (ألمانيا) و(اليابان)، وانتحر (هتلر).

التمعت عينا الشيخ، وهو يقول:

– انتحر؟!

أجابه (عزت) بنفس الشرود:

– بعد انتحاره، تصوّر الكل أن السلام سيعم العالم، ولكن (أمريكا) غرقت في شهوتي القوة والسلطة أيضاً، وبعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية، أعادت الاحتلال المسلّح إلى الوجود.

أمسك الشيخ بيده فجأة، وسأله في انفعال:

– ولكن أحداً لم يحاول حظر العلم.. أليس كذلك؟!

شعر (عزت) بالألم من قبضته، وحاول سحب يده منها، وهو يجيب:

– بلى.. يحظرون أموراً محدودة فقط.

ازداد التماع عيني الشيخ، وهو يقول:

– إذن فأنت المنقذ.

هزّ (عزت) رأسه في قوة، وقال في عصبية:

– لست منقذاً.. أنا مجرّد شخص عادى، في عالم مختلف.

أجابه الشيخ في حماس:

– لست شخصاً عادياً بالتأكيد.. أنت شخص يعايش التطوّر العلمي، ويمكنه أن يفهم النظام النازي، ويواجهه.. أنت الشخص الذي ينتظره الكل، منذ زمن طويل.

ثم أمسك يديه معاً، وتهدّج صوته، وهو يضيف:

– أنت المنقذ.

وخفق قلب (عزت)..

وبمنتهى العنف..

وعبر المكان والزمان والأبعاد، وفي اللحظة نفسها، لو أن للترابط الزمني معنى محدود، كان (فراس) يواجه رؤسائه، وهو يحاول التماسك بقدر الإمكان،

والسعودي يسأله في صرامة غاضبة:

– وهل صدَّقت قصة العالم الموازى هذه؟!

تنحنح (فراس)، مجيباً:

– مهمتي ليست أن أصدّق أو أرفض.. مهمتي فقط أن أنقل كل ما يتوصّل إليه العلماء إلى القيادة، لتتخذ ما تراه مناسباً من قرارات.

قال الكويتي في هدوء:

– لابد للقيادة من أن تقتنع أوّلاً.

أشار (فراس) بيده، قائلاً:

– حتى يمكنني إقناع القيادة، لابد وأن أشعر بالاقتناع أوّلاً، ولكن معلوماتي العلمية لا تؤهلني؛ لاستيعاب ما يفوق إدراكي، ولكنني أثق تماماً في فريق العلماء، وفي قدرته على فهم وتحليل الأمور العلمية، وما دام هذا ما توصّلوا إليه، بعد جهد جهيد، وحسابات، ومناقشات، ومداولات، ومعادلات شديدة التعقيد، فالواجب على مثلي أن يؤمن بأنهم مقتنعون بهذا على الأقل، وفي ظروف كهذه، أرى ضرورة أن نثق فيما توصّلوا إليه، قبل أن نفقد وقتاً ثميناً.

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة، قبل أن يقول المصري:

– الموقف شديد الحساسية بالفعل، ونحن أيضاً نثق في فريق العلماء، الذي تم انتقاؤه من خيرة العقول، ولكن يقلقنا أنهم قد تجاوزوا ظاهرة الأطباق الطائرة، التي ظهرت متوازية مع ظاهرة العواصف الكهرومغناطيسية السلبية، على الرغم من أن القيادة كلها تحبذ ترابط الظاهرتين.

التقط (فراس) نفساً عميقاً، محاولاً السيطرة على أعصابه الثائرة، قبل أن يقول:

– إننا نواجه مشكلة علمية غامضة، وليس مشكلة عسكرية تقليدية، وفي مثل هذه الأمور، الأفضل أن نضع الأمر كله في قبضة العلم، لا الأمن.

مرة أخرى، تبادل الرجال الثلاثة نظرة متوترة، ثم قال السعودي في صوت ينقصه الحزم:

– فليكن أيها العقيد.. سندرس الأمر جيداً، وسنبلغك قراراتنا، خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر.

شدّ (فراس) قامته، قائلاً:

– أتمنّى أن يكون هناك أمل عندئذ.

ودار على عقبيه، وغادر القاعة، تاركاً الجنرالات الثلاثة خلفه، في حيرة شديدة..

حيرة اتخاذ القرار..

أخطر قرار في تاريخ الأرض.. كلها..

"في أي عام نحن؟!.."..

ألقى (عزت) السؤال، في ذلك العالم الموازى، وهو يتجوّل مع (كونراد)، في تلك القرية المغلقة، فأجابه هذا الأخير في هدوء:

– هناك تاريخان في العالم الآن.. تاريخ فرضه النازيون، ويبدأ من تاريخ سيطرتهم على العالم، وهذا التاريخ في عامه الثالث والخمسين الآن، وهناك التاريخ

العالمي، الذي تم منع استخدامه، وهو يشير إلى عام ألفين وثمانية.

توقَّف (عزت) بحركة حادة، والتفت إلى الشيخ، هاتفاً:

- إنه نفس زمن عالمي.

أجابه الشيخ:

- هذا أمر طبيعي، فهما عالمان متوازيان، انفصلا في نقطة ما، ولسبب مجهول، بحيث اتخذ كل عالم منهما مساراً مختلفاً، اعتباراً من هذه النقطة، ولكن من خلال نفس النسق الزمني.

غمغم (عزت) مبهوراً، وهو يعاود السير، وكل سكان القرية يتابعونه في حذر مشوه:

- يدهشني أن تمتلك هذه الرؤية الحكيمة، في مثل هذه الظروف.

ابتسم (كوناد)، قائلاً:

- إنني أعمل على تنميتها، منذ أكثر من نصف قرن.

تمتم (عزت):

- حسناً فعلت.

قالها، وهو يتطلَّع إلى بقايا صورة (هتلر) المتهالكة، على جدار القاعة، و..

"مهلاً.."..

توقَّف مرة أخرى، وهو يهتف بالكلمة في انفعال، جعل التوتر يسري في

الجميع، ودفع (أوجار) إلى إمساك مقبض سيفه في توتر، فأمسكت (مارا) بيده، وربتت عليه مهدِّئة، في حين التفت (كوناد) إلى (عزت)، يسأله في هدوء:

- ماذا هناك؟!

أجابه (عزت) في انفعال:

- عندما أتى عام **1945**م، كان (هتلر) في الأربعينات من عمره، فكيف يمكن أن يظلّ حياً وقوياً، بعد ثلاثة وخمسين عاماً.. المفترض أن يشرف على المائة الآن.

قال الشيخ في هدوء:

- وهو كذلك.. ولكنه يحيا داخل قلعة العلم، ولا أحد يدرى أي شيء نجحوا في التوصُّل إليه، خلال نصف قرن من الابتكار المستمر.

انعقد حاجبا (عزت)، وهو يقول:

- أتعنى أنهم ربما توصَّلوا إلى وسيلة؛ لتجديد خلايا الجسم، وإطالة العمر؟!

هزَّ (كوناد) كتفيه، وقال:

- من يدرى؟!

غمغم (عزت) في توتر:

- نعم.. من يدرى؟!

أمسك الشيخ بيده فجأة، وهو يقول في حزم:

- وهذه هي الخطوة الأولى.. أن ندرى.

انعقد حاجبا (عزت)، وهو يتطلع إليه في تساؤل متوتر، فأكمل في حماس، وهو يقترب منه:

– وفقاً لما أخبرني به (أوجار) وشقيقته (مارا)، فانتقالك إلى عالمنا، منحك قوة تفوق المعتاد.. قوة مكّنتك من أن تواجه العمالقة، وأشعتهم المبيدة، والفرسان بدروعهم، وسيوفهم الرهيبة، وحتى التنانين، التي تسود العالم الآن.. لو أضفت هذا إلى ما يمتلكه عقلك، من معارف وعلوم، وعقلية علمية صرفة، فستجد أن هؤلاء، الذين يحيطون بك، لم يخطئوا كثيراً، عندما وصفوك بأنك منقذهم.

بدا (عزت) حائراً، وهو يقول:

– ولكنني لست كذلك.. ربما أملك قوة تفوقكم في عالمكم، وربما أفهم العلوم التي تجهلونها، ولكنني لست شخصية مقاتلة بطبعي.. إنني أفر من المتاعب، ولا أسعى لمواجهتها.

قال (كوناد) في حزم:

– ولن تضطر لمواجهتها.

ثم التفت إلى (أوجار)، وأشار إليه، فأسرع العملاق يلبي الإشارة، دون لحظة واحدة من التردُّد، وعلى نحو يبين مكانة الشيخ في نفوس الجميع، فالتفت إليه الشيخ مبتسماً، وتحدَّث إليه ببضع عبارات، بلغتهم التي لم يفهمها (عزت)، ولكن (أوجار) التفت إليه بعدها في احترام، وضم قبضته اليمنى، وضرب بها موضع قلبه في قوة، فعاد الشيخ ببصره إلى (عزت)، وقال:

– (أوجار) سيتبعك كظلك، سيكون سيفك، ودرعك، وحارسك الخاص،

وسيحميك بحياته، إذا استلزم الأمر.

تطلَّع (عزت) إلى (أوجار)، بقامته الممشوقة، وعضلاته المفتولة، والبأس المرتسم على ملامحه، ثم هزَّ رأسه، قائلاً:

– المشكلة لا تكمن في القوة، بل في العلم.. إنني أجهل تماماً أي شأن بلغوا، وأنت تؤكِّد أنهم يحيطون قلعتهم العلمية بسياج من فولاذ، بحيث يستحيل أن توجد وسيلة لدخولها، والإطلاع على ما بها.

ابتسم الشيخ، قائلاً في ثقة:

– ولكنك ستفعلها.

ردَّد (عزت) في توتر:

– أنا؟!.. أفعلها؟!

أومأ الشيخ برأسه، قائلاً:

– بالتأكيد.. هذه فائدة العقل والعلم.

ثم مال نحوه، مضيفاً بابتسامة كبيرة:

– أيها المنقذ.

وانعقد حاجبا (عزت)..

في شدة..

"أي منقذ؟!.."..

نطقها رقم واحد في حيرة حذرة، وهو يواجه الزعيم الكبير، فتطلّع إليه (هتلر) الشيخ بنظرات صارمة، وهو يقول في خشونة:

– كل الشعوب المقهورة، العاجزة عن مقاومة قاهريها، تحلم بمنقذ ما.. شخص يهبط عليها من السماء، ويخلّصها مما هي فيه.. ونحن لم نتركهم يعيشون الفكرة، طوال السنوات الماضية فحسب، وإنما عملنا على تعميقها في نفوسهم أيضاً، فعندما تستكين الشعوب لفكرة المنقذ الخرافي الخارق، تفقد الكثير من قدرتها على المقاومة، وتكتفي بانتظار وصول المنقذ، الذي لا يظهر أبداً في المعتاد.

غمغم رقم واحد:

– ولهذا أقلقك ظهور ذلك المجهول.

مطّ (هتلر) شفتيه، وقال في امتعاض:

– ثيابه وقدراته، تقول: إنه قد سقط في عالمنا، من العالم الذي نسعى لغزوه، ربما من خلال الثغرة نفسها، التي نسعى لفتحها بين العالمين، منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وربما بسبب خطأ ما، أو نتيجة لعدم ثبات الثقب، على الرغم من محاولاتنا العديدة.. لكن المهم أنه جاء، ولسبب ما، ما زال العلماء يدرسونه حتى الآن، اكتسب في عالمنا قوة إضافية، جعلته يبدو في عيون العامة أشبه ببطل أسطوري، هبط عليهم من السماء، أو بذلك المنقذ، الذي ينتظرونه، منذ زمن طويل.

هزّ رقم واحد كتفيه، وقال في حذر:

– وما الذي يمكن أن يفعله لهم؟!.. إنه مجرّد رجل واحد.

صاح فيه الفوهلر فجأة:

– أيها الغبي!

تراجع رقم واحد بحركة مضطربة، فتابع (هتلر) في غضب:

– المفترض أن تمتلك نفس عقليتي، فكيف تفكّر بهذا الغباء؟!

غمغم رقم واحد في توتر:

– هذا حتمي أيها الزعيم، ولكن هناك سنوات الخبرة أيضاً.

قلب (هتلر) شفتيه في امتعاض، مما زاد ملامحه تغضّناً، وقال:

– وجوده سيمنحهم الأمل، وسيستحث فيهم روح المقاومة، وسيربطهم ببعضهم البعض كرجل واحد.

قال رقم واحد، في حذر أكثر:

– حتى لو اجتمعوا جميعاً، فماذا يمكنهم أن يفعلوا بجهلهم، أمام علومنا، وأسلحتنا، وتطورنا.

هتف به (هتلر) مرة أخرى:

– غبي.. الحوار نفسه سمعته من الأحمق (هملر)، منذ ما يزيد عن نصف القرن، عندما حدثته عن المقاومة الفرنسية.. لهذا تركته يموت كقط أجرب، ولم أمنحه أشعة الشباب، التي ابتكروها عام ألف وتسعمائة وستين.. كلهم كانوا أغبياء، ولا يستحقون البقاء إلى جواري، على عرش العالم، الذي ربحته بعبقريتي وفكري المتطور.

غمغم رقم واحد، محاولاً إصلاح ما أفسده:

– بالطبع أيها الزعيم.. بالطبع.

رماه (هتلر) بنظرة نارية، قبل أن يكمل:

– الوسيلة الوحيدة إذن، لقتل المقاومة في مهدها، هي تحطيم الرمز، وسحق المنقذ المنتظر، وأمام عيونهم جميعاً، ولهذا..

بتر عبارته، ومال فوق عرشه الذهبي بشدة، قبل أن يضيف، بمنتهى الصرامة والحزم والغضب:

– أريد هذا الرجل.

في نفس اللحظة التي نطقها فيها، كان (عزت) يقف شديد التوتر، مع (أوجار) و(كوناد)، أمام كوخ هذا الأخير، وكل أهل القرية المغلقة يرفعون أياديهم نحوه، ويرددون في صوت واحد:

– (سافور).. (سافور).

وكان هذا يعني أن الخطر الحقيقي قد بدأ..

ولا أحد يعلم كيف أو متى ينتهي..

لا أحد على الإطلاق.

• • •

الفصل العاشر

على الرغم من محاولاته المضنية، لم ينجح (عزت) قط في كتمان انفعاله الشديد، وإغلاق عينيه لحظة واحدة، وهو يرقد على ذلك الفراش الفاخر، بالمقاييس البدائية، والذي قدّمه له سكان القرية المغلقة، الذين منحوه أفضل أكواخهم، باعتباره منقذهم المنتظر..

وهذا مصدر قلقه الأساسي..

إنهم ينتظرون منه ما لا يمكن أن يمنحه..

أن يقاوم..

ويقاوم من؟!.. نظام نازي، احتل العالم كله وسيّطر عليه، وأعدم ما يقرب من عشرين مليوناً في بضع سنوات، وما زال مستعداً لإراقة الدماء بلا رحمة، لمجرّد الشك، أو الحفاظ على الخوف والرهبة!!..

وهو رجل واحد..

رجل ظل طيلة عمره يتحاشى مجرّد الحديث في السياسة..

كان، ومنذ طفولته، يرتعد ذعراً، لمجرّد أن يسير إلى جواره شرطي مرور!..

وها هم أولاء يطالبونه بأن يصبح منقذهم..

وحاميهم..

وبطلهم..

إنه يرتعد ذعراً، من مجرّد التفكير في الأمر، وفي المسئوليات الجسام، الملقاة على عاتقه.. ولكنهم جميعاً يضعون أملهم فيه..

و(كوناد) يوليه ثقة مدهشة..

و(أوجار) يحميه..

و(مارا)..

يا إلهي!..

لماذا يختلج قلبه بكل هذا العنف، عندما يجوس اسمها في ذهنه؟!..

لماذا يذوب ذوباً، كلما وقع بصره عليها؟!..

أهو تعلقها به؟!..

أم ثقتها فيه؟!..

أم هي رقتها..

ونعومتها..

بل ربما هو احتماؤها به، في لحظة الخطر..

كانت أوّل مرة في حياته، على الرغم من أن عمره قد تجاوز الثلاثين، تحتمي به أنثى..

أوّل مرة يشعر أنه رجل، يحمي أنثاه..

وكم بث هذا في عروقه من نخوة ونشوة!..

كم فجّر في أعماقه من مشاعر..

ربما جعله هذا يحبها..

انتفض جسده، على الرغم منه، عندما جالت فكرة الحب في ذهنه..

أحقاً يحبها؟!..

أمن الممكن أن يحدث هذا مع النظرة الأولى، كما قرأ في الروايات الرومانسية، وشاهد في الأفلام القديمة؟!..

استرخى لأوّل مرة على فراشه، وذهنه يستعيد صورة (مارا)..

وحسنها..

ورقتها..

وابتسامتها..

وعينيها..

توقّف طويلاً أمام عينيها، وأغلق عينيه، ليملأ خياله بهما، وتسلّلت إلى شفتيه ابتسامة حانية، و...

فجأة، انتزعته من أفكاره دقات رقيقة، على باب كوخه، فاعتدل في سرعة، وهتف بصوت مبحوح، من فرط الانفعال:

- من؟!

أتاه ذلك الصوت الذي يعشقه، وهو يقول:

- (مارا).

خفق قلبه في عنف، وهو يثب من فراشه، ويندفع نحو الباب، ويفتحه بحركة سريعة، مردِّداً اسمها في هيام:

- (مارا).

كانت تبدو مختلفة تماماً، في ثوب وردي جميل، لم يتخيَّل رؤية مثله، في هذا العالم، وقد ثبتت زهرة بلون الثوب، في ثنايا شعرها، الذي أطلقته منسدلاً على كتفيها، وبدا وجهها مشرقاً، وهي تمنحه ابتسامتها الساحرة، وترفع أمامه صينية طعام، وعندما لمحت نظرة الانبهار في عينيه، تضرَّج وجهها بحمرة الخجل، ودلفت إلى الداخل بخطوات متعثرة، ووضعت صينية الطعام على المائدة، وتحاشت النظر إليه، من فرط خجلها، وهي تقول شيئاً لم يفهمه، فتمتم في حب، لم يحاول إخفاءه:

- كم تسعدني رؤيتك؟!

فاجأه صوت الشيخ، وهو يقول:

- ستراها كثيراً.

ارتبكت (مارا) لقدومه، وأسرعت تنصرف، وهي تهمهم بعبارة ما، ترجمها الشيخ بابتسامة هادئة، وهو يعقد كفيه خلف ظهره:

- تقول إنها في خدمتك دائماً.

ردَّد (عزت) مبهوراً:

- في خدمتي؟!

دلف الشيخ إلى المكان، وهو يقول:

- لقد عهدت إليها بخدمتك، طوال إقامتك هنا.

كاد (عزت) يصرخ في سعادة، ويتوسَّل للشيخ أن يزوجه إياها، ولكنه بذل جهداً خرافياً، للسيطرة على مشاعره، وإن لاحظ أن (كوناد) قد التقطها بفراسته، فاتسعت ابتسامته، وهو يسأله:

- هل وضعت خطتك؟!

سأله (عزت) في شرود، وعقله ما زال منشغلاً بالحسناء (مارا):

- أية خطة؟!

أجابه (كوناد) في هدوء:

- خطة اقتحام القلعة.

انتفض جسد (عزت)، عندما أتى الشيخ على ذكر القلعة، وقال في توتر:

- هذا مستحيل.. إنهم يحيطونها بأدق وسائل الأمن.. حتى سماء القلعة، تحميها تلك التنانين الرهيبة.

حافظ (كوناد) على ابتسامته، وهو يقول:

- إنك لن تضع خطة لاقتحامها بالقوة، فهذا لن يجدي على كل المستويات، ولكن عبقريتك ستقودك إلى التسلُّل إليها بخطة عملية.

تنهّد (عزت)، قائلاً:

– يبدو أنك توليني ثقة تفوق ما أستحقه.

هزّ (كوناد) رأسه نفياً في بطء، وقال:

– لم أخطئ الحكم على شخص ما في حياتي قط.

جلس (عزت)، قائلاً:

– وما الذي تتوقّع مني فعله، في أمر كهذا؟!

أجابه في هدوء:

– أن تضع خطة.

قلب (عزت) كفيه في يأس، وقال:

– كيف تتوقّع مني أن أضع خطة، لاقتحام مكان، أجهل كل شيء عنه؟!

أجابه (كوناد)، وكأنه يحاول أن ينقل إليه فكرة ما:

– أتوقّع أن تجد وسيلة لدخول القلعة، ومعرفة ماذا يوجد بها، وماذا يفعلون هناك.

تراجع (عزت) في مقعده، وحاول أن يطلق لتفكيره العنان، وهو يقول:

– وكيف يمكن دخول مكان، تحرسه عمالقة آلية، وتنانين رهيبة، ويمتلك أحدث وسائل الرصد والمراقبة الرقمية، ووسائل أخرى لا نعلم ماهيتها بالضبط، وتحوم حوله دوريات من فرسان آليين، يقاتلون في شراسة وعنف، و...

بتر عبارته فجأة، عندما وثبت تلك الفكرة في رأسه..

وثبت بغتة، وكأن أحداً قد ألقاها في ذهنه بكل قوته..

وعلى حين غرة..

وفي انفعال شديد، اعتدل على مقعده بحركة حادة، فالتفت إليه (كوناد) في اهتمام مترقب ملهوف، فاستدار إليه (عزت) في انفعال شديد، وتألّقت عيناه في قوة، وهو يهتف، مقلّداً العالم الإغريقي القديم (أرشميدس):

– وجدتها.

وخفق قلب (كوناد) في عنف..

وفي نفس لحظة خفقانه، وفي عالم آخر تماماً، كان كبير علماء المركز يسأل (فراس) في قلق:

– هل تعتقد أنهم سيتخذون القرار الصائب؟!

تردّد (فراس) لحظات في الجواب، وهو يلقي على نفسه السؤال ذاته...

هل سيتخذ القادة القرار الصائب بالفعل؟!..

إنهم عسكريون، وسيدرسون الأمر بمنتهى الدقة، وبكل التفاصيل، قبل اتخاذ أي قرار حاسم..

وسيدرسونه من الناحية العسكرية فقط.

للأسف..

فربما كانوا عباقرة، في فنون الاستراتيجيات القتالية، وحشد الجيوش، وإدارة أعقد المعارك، ولكنهم يواجهون الآن ما يفوق معلوماتهم وقدراتهم..

يواجهون خطراً علمياً صرفاً..

خطر غزو، قادم من عالم آخر..

عالم لا يمكن رؤيته..

أو حتى تخيُّل وجوده..

وفي مثل هذه الظروف، لا يمكنه أن يستنتج، ما إذا كانوا سيتخذون القرار المناسب أم لا..

لا يمكنه أبداً..

كرَّر كبير العلماء سؤاله، في قلق، فانتزعه من أفكاره، وجعله يلتفت إليه، قائلاً في توتر:

- أتعشَّم هذا.

تراجع كبير العلماء، وقد أقلقه الجواب أكثر، وقال:

- الأمور تتطوَّر في سرعة.. إننا نرصد موقع اختفاء المهندس (عزت)، وما زال النشاط الكهرومغناطيسي السلبي متزايداً هناك، ويتصاعد بشدة في بعض اللحظات، ثم يعود إلى الكمون مرة أخرى.

زفر (فراس) في توتر، وسأل:

- ما معنى هذا، بكلمات بسيطة؟!

أجابه كبير العلماء في خفوت:

- هناك محاولة مستميتة، لفتح الثغرة بين العالمين.

سأله في قلق شديد:

- وكيف أمكنكم معرفة هذا؟!

أجابه في اهتمام متوتر:

- الموجات الكهرومغناطيسية السلبية أصبحت أكثر انتظاماً عن ذي قبل، ومدتها تتزايد في كل مرة، والرمال من حول مركزها تدور على شكل لم نرصده من قبل، كما لو أن هناك ما يحاول العبور إلينا.

سأله (فراس) في اضطراب:

- ومتى سيمكنه العبور في رأيك؟!

هزَّ الرجل رأسه، مجيباً:

- لا يمكننا الاستنتاج قط. هذا قد يحدث في أية لحظة الآن.

اتسعت عينا (فراس)، وهو يغمغم مذعوراً:

- في أية لحظة؟!

ثم التقط هاتفه المحمول، في حركة عصبية سريعة، وراح يضرب أرقام في توتر، فغمغم كبير العلماء يسأله:

- هل ستتصل بهم؟!

أجابه (فراس) في عصبية:

- بل سأتخذ قراراً..

وصمت لحظة، ثم استطرد في حزم:

– وعلى مسئوليتي الخاصة.

"نريد اصطياد أحد الفرسان المعدنيين.."..

نطق (عزت) العبارة في حماس، في ذلك العالم الآخر، فاعتدل (كوناد)، يسأله في اهتمام:

– وكيف يمكننا هنا؟!.. إنهم متآزرون طوال الوقت، ولا يسيرون فرادى قط!.. ثم لماذا؟!.. ماذا يمكن أن نفيد منهم؟!. إنهم مجرَّد آلات على الأرجح.

أشار إليه (عزت)، قائلاً:

– هنا تكمن النقطة الأساسية.. ما ماهيتهم بالضبط؟!.. لو أنك تابعت حركة العمالقة الآليين، لوجدت أنها آلية مدروسة، تشف عن حالة متطوِّرة من الذكاء الصناعي.

غمغم الشيخ في ارتباك:

– ذكاء صناعي؟!

أجابه (عزت) في اهتمام:

– إنه مصطلح يطلقونه على نوع من الآلات، التي تمت برمجتها، بملايين من ردود الأفعال، إزاء مواقف محتملة، ولديها قدرة على التصنيف السريع، بحيث تستوعب الموقف الذي يواجهها، وتنتقي رد الفعل المناسب لمواجهته، والوجود ضمن برنامجها الأساسي، ولقد تم تطوير هذا بطراز أحدث، يمكنه التعلم من كل ما يواجهه، فلو وضعته في متاهة يجهلها مثلاً، فلا يمكنه أن يخطئ المسار

الواحد مرتين؛ لأنه في كل مرة يضيف، الخبرات المكتسبة إلى برنامجه، ويتفاعل معها، و..

لوَّح (كوناد) بيده مقاطعاً، وهو يقول:

– معذرة يا سيد (عزت).. قد أكتسب خبرة حياتية، مع مرور الزمن، ولكن من المستحيل أن أستوعب ما تقوله، بعد أكثر من نصف قرن من الابتعاد عن العلم.

رفع (عزت) سبَّابته، قائلاً:

– معذرة.. كان ينبغي أن أنتبه إلى هذا، ولكن ما أردت قوله هو أنني قد شاهدت أولئك الفرسان يقاتلون، وهذا جعلني أطرح على نفسي تساؤلاً هاماً وخطيراً، فإما أنهم الصورة المثالية، التي يحلم بإنتاجها كل عالم برمجيات في العالم، للذكاء الصناعي الفائق، وإما أنهم مجرَّد بشر، يرتدون دروعاً قتالية إليكترونية خاصة، والوسيلة الوحيدة لحسم هذا الأمر، هي أن نتصيَّد أحدهم، بمعزل عن الآخرين، ونفحصه جيداً.

صمت (كوناد) لحظات مفكراً، محاولاً استيعاب الموقف، قبل أن يهزّ رأسه، قائلاً في توتر:

– أياً كانت ماهيتهم.. بم يمكن أن يفيدنا هذا؟!

أجابه (عزت) في حزم، وهو يميل نحوه:

– سيفيدنا أكثر مما تتصوَّر.

وابتسم في ثقة لأوَّل مرة، منذ هبط في ذلك العالم الموازي، وهو يستطرد:

– سيفتح لنا الطريق إلى هناك.. إلى القلعة.

والتمعت عينا (كوناد) في شدة، وهو يحدّق فيه مبهوراً..

إنه لم يخطئ الحكم على البشر قط.

وهذا هو الدليل..

أكبر دليل..

وبينما يحدّق في (عزت)، كان رقم واحد يعبر مدخل قاعة الزعيم النازي، ويرفع يده بالتحية النازية التقليدية، هاتفاً أمام العرش الذهبي:

– هاي (هتلر).

ضاقت عينا (هتلر)، وتغضّن وجهه أكثر، وهو يسأله في صرامة:

– هل استعدوا؟!

أجابه رقم واحد في احترام:

– العلماء زادوا من طاقة البث، حتى أننا اضطررنا إلى تخفيف الإضاءة وتخفيض الطاقة، في القلعة كلها، باستثناء مقركم بالطبع، وسيبدءون في فتح الثغرة بالطاقة الجديدة، خلال دقائق، ولكنهم يتساءلون، ما الذي ينبغي إرساله هذه المرة.. عملاق آلي آخر.

ضاقت عيناه أكثر، وبدا وكأن عمره يتجاوز القرن، وهو يقول مفكراً، وكأنه يحدّث نفسه:

– كلا.. منذ توصّلنا إلى فتح الثغرة، لم نرسل عبرها إلا آليات، على أمل أن

ننجح في استعادتها، ونحصل على ما سجلته بالصوت والصورة، ولكننا لم ننجح حتى في استعادة أحدها، ولكن بعد أن وصل ذلك الرجل إلى عالمنا، عبر الثغرة نفسها، أصبح من المؤكّد أن البشري يستطيعون عبور الثغرة في أمان.

تردّد رقم واحد لحظة، قبل أن يقول في خفوت حذر:

– العلماء يقولون: إن نجاحه في العبور، من عالمه إلى عالمنا، لا يعني نجاح أحدنا، في العبور من عالمنا إلى عالمه.

التفت إليه الفوهلر بنظرة نارية غاضبة، فانكمش، وخفت صوته أكثر، وهو يكمل:

– يقولون: إنها مسألة تردّدات بين الأبعاد المختلفة، و..

زمجر (هتلر)، قائلاً:

– سنجري تجربة.

سأله رقم واحد في حذر:

– هل نرسل أحد المعتقلين؟!

أجابه في صرامة قاسية:

– لا يمكنك أن تضمن ولاءه.

ثم عاد حاجباه ينعقدان في شدة، وهو يسند مرفقه إلى مسند عرشه الذهبي، ويستند بذقنه على قبضته المضمومة:

– سنرسل شيئاً آخر.. شيئاً حياً.

وعلى الرغم من تطابق عقليهما، لم يفهم رقم واحد ما يمكن أن يعنيه هذا.

لم يفهم أبداً..

"ترى ماذا سيرسلون هذه المرة؟!.."..

ألقى كبير العلماء السؤال، في توتر شديد، وهو يراقب عن بعد، تلك الدوّامة الرملية، التي راحت تتكوّن من قلب صحراء الربع الخالي، فقال (فراس)، الذي يقف إلى جواره، في توتر أكثر، وهو يضع منظار الميدان على عينيه:

- أتعشّم ألا يكون عملاقاً آخر؟!

أدار كبير العلماء بصره، في قوات الجيش، التي تحيط بمنطقة الدوّامة، على مسافة ثلاثمائة متر من مركزها، وأسلحتها كلها متحفّزة، ومصوّبة إليها، وغمغم:

- أظننا نستعد لمواجهته، لو ظهر هنا.

غمغم (فراس)، وهو يلقي نظرة على ساعته:

- ليتنا كذلك.

ثم رفع عينيه إلى السماء، مستطرداً في عصبية:

- المفترض أن تصل الطائرات، في أية لحظة الآن.

التفت إليه كبير العلماء، قائلاً في دهشة:

- طائرات؟!

أجابه في صرامة، لم تخل من توتره وعصبيته:

- بالطبع.. لسنا ندري ماذا سيخرج هنا هذه المرة.. ولابد وأن نستعد لملاقاته بكل قوتنا.

لم يحاول كبير العلماء التعليق على عبارته، ربما لأنه يدرك أنه على حق تماماً، وأنه لابد من الاستعداد التام، في مواجهته أمر، يجهل الكل ماهيته..

فربما يخرج من الثغرة عملاق آخر..

أو جيش من العمالقة..

أو شيء آخر أكبر..

وأقوى..

وأخطر..

من يدري؟!..

كان يفكّر في هذا، عندما قال المهندس البديل، الذي يرصد الموجات الكهرومغناطيسية السلبية:

- الموجات تتزايد شدتها، في تصاعد منتظم.

غمغم كبير العلماء، وهو ينظر إلى الشاشة الحرارية أمامه:

- هذا يعني أن شيئاً ما سيحدث، خلال اللحظات التالية.

شعر (فراس) بتوتر عنيف، يسري في عروقه، فرفع جهاز الاتصال الخاص إلى شفتيه، وقال في حزم:

- استعد.

تأهبت القوات المحيطة بالثغرة، فور تلقيها أمره، وصوب المدفعيون مدافعهم نحو مركز الثغرة، وخفض أطقم الدبابات مدافع دباباتهم، نحو الهدف نفسه، وكذلك فعل حملة قاذفات الصواريخ المحمولة، وحبس الجميع أنفاسهم، وتلك الدوّامة الرملية تدور أسرع..

وأسرع..

وأسرع..

ومع اتساعها راحت القلوب تخفق في قوة، والعيون تراقب في توتر وقلق..

وبالنسبة لكبير العلماء، كان الهجوم سيحدث في أية لحظة..

وعلى الشاشة الحرارية أمامه، رأى الموجات الكهرومغناطيسية تتزايد..

وتشتد..

وتعظم..

و..

وفجأة، توقّف كل شيء..

انقطعت الموجات الكهرومغناطيسية السلبية بغتة، وساد هدوء تام، وتوقّفت تلك الدوّامة الرملية عن الدوران، وتناثرت الرمال منها لمسافة واسعة، وخيّم على المنطقة كلها صمت مهيب، وكل من حولها ما زال يحبس أنفاسه، متسائلاً عما سيحدث، قبل أن يقول (فراس) في عصبية:

- ما الذي يعنيه هذا؟!

غمغم كبير العلماء، بمنتهى الحذر:

- لست أدري.. ربما..

قبل أن يتم عبارته، أطلقت شاشته الحرارية صرخة مباغتة، تمثّلت في صفارة إنذار قوية، ثم تألّقت في شدة، جعلت المهندس البديل يصرخ:

- عاصفة سلبية أخرى، شديدة العنف.

ثم أشار بيده، إلى حيث تقف المدرّعات والدبابات، مستطرداً في عصبية:

- هناك.

مع صرخته، تكوّنت دوّامة أخرى عنيفة مباغتة، تحت منطقة المدرعات، وابتلعت مدرعة أو اثنتين، في لحظة واحدة، قبل أن يصرخ قائد القوات بالباقين:

- انسحاب.

حاول البعض الفرار بمدرعاتهم أو دباباتهم، ولكن دبّابة أخرى هوت في قلب الرمال فجأة، فقفز الرجال من باقي المدرعات والدبّابات، وراحوا يعدون مبتعدين، تاركين الثغرة، التي صنعتها الدوّامة الرملية العنيفة، تلتهم مدرعاتهم ودبّاباتهم، في شراهة رهيبة، والمهندس البديل يصرخ:

- هناك شيء قادم.

حاول (فراس) السيطرة على الموقف، وهو يصرخ:

- لا تتراجعوا.. انسحبوا في انتظام.

أما كبير العلماء، فقد ظلّ يحدّق في شاشته الحرارية، التي راحت تتألّق

أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وفي ذعر واضطراب واضحين، صرخ المهندس البديل:

- شيء كبير قادم..

صاح (فراس) في القوات:

- استعدوا للمواجهة.

وحاول قائد القوات السيطرة على قوته، وسط الاضطراب الشديد، الذي صنعته تلك الدوّامة الرملية العنيفة، التي تلتهم كل ما حولها بلا رحمة، و..

وفجأة، اندفع ذلك الشيء من قبل الثغرة..

واتسعت العيون كلها في ذهول..

وخفقت القلوب في ارتياع..

فذلك الذي انطلق عبر الثغرة إلى عالمنا، كان رهيباً ومخيفاً..

إلى حد مرعب.

• • •

الفصل الحادي عشر

انطلق سرب الطائرات المقاتلة، التابعة للسلاح الجوي السعودي، يشق طريقه في سماء المملكة؛ لتأمين البلاد من أي عدوان محتمل، ولتفقُّد الأحوال، والاطمئنان على الأمن والأمان..

وفي تلقائية روتينية، ضغط قائد السرب زر الاتصال اللاسلكي، وقال بلهجة عسكرية تقليدية:

- سرب النسور السادس في مساره المعتاد.. السماء صافية، وكل الأمور تسير على ما يرام.

كان ينتظر تلك الرسالة النمطية، التي تطلب منه إكمال دورته، والعودة إلى القاعدة، إلا أنه فوجئ برئيسه يقول في توتر ملحوظ، عبر اللاسلكي:

- من القاعدة إلى نسور ستة.. اتجه فوراً نحو المنطقة (د - 37)، من الربع الخالي، واستعد بكل أسلحتك للمشاركة.

انتقل التوتر إليه، وهو يسأل:

- ماذا يحدث في (د - 37)؟!

أجابه قائده:

- خطر غير محدود الهوية.

سأله قائد السرب، في توتر أكثر:

- ما الذي تعنيه بخطر غير محدود الهوية؟!

بدا قائده أكثر توتراً منه، وهو يجيب:

- هذا فقط ما يمكنني إبلاغك به.. أنه خطر غير محدود الهوية.

لم يكتف قائد السرب بهذا القول، فتساءل في قلق شديد:

- أتعني أنه..

قبل أن يكمل تساؤله، مرق جسم ضخم إلى جواره بسرعة مذهلة، وعبر بينه وبين واحدة من طائرات السرب، ثم انحرف بزاوية قائمة، يتصوّر حتى أمهر طياري العالم أنها مستحيلة، وارتفع إلى أعلى بسرعة خرافية..

ومع سرعته المذهلة، اضطربت مقاتلات السرب، وكادت ترتطم ببعضها البعض، لولا مهارة الطيارين، الذين سيطروا على مقاتلاتهم بالكاد، وهتف أحدهم، عبر جهاز الاتصال المحدود:

- ما هذا؟!

اتسعت عينا قائد السرب، وهو يهتف، جاذباً عصا القيادة، ليرتفع بمقاتلته، خلف ذلك الجسم الضخم:

- خطر، غير محدود الهوية.

سأله طيّار آخر، وهو يرتفع بطائرته مع الآخرين، خلف قائدهم:

- هل سنطارده؟!

هتف به قائد السرب، في حزم شديد التوتر:

- بالتأكيد.

انطلقت مقاتلات السرب كلها، تطارد ذلك الجسم الضخم، الذي واصل الارتفاع إلى مسافات بعيدة، وبسرعة خرافية، توحي إما بأنه يستخدم وقوداً مدهشاً، يتيح له الانطلاق والارتفاع بتلك السرعة، على الرغم من ضخامته، وإما أنه قد تغلّب على تأثير الجاذبية الأرضية بوسيلة ما..

ولما لم يكن هناك أدنى أثر لأي نوع من العادم، يخرج من أي مكان منه، فهذا يوحي بأن الاحتمال الثاني هو الأرجح، على الرغم من غرابته، وتجاوزه لكل القواعد العلمية المعروفة، في هذا العصر..

وعلى الرغم من أن كل شيء يوحي باستحالة اللحاق بجسم طائر مجهول، ينطلق ويرتفع بهذه السرعة، واصل سرب المقاتلات مطاردته في إصرار، وقائده يقول، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي:

- نطارد جسماً طائراً مجهولاً، في سماء المملكة، ونطلب الإذن بمواصلة المطاردة.

أتاه الجواب شديد التوتر:

- فقط لو أنها مجدية.

انعقد حاجبا قائد السرب في توتر شديد، وضم شفتيه في غضب، وحاول أن

يزيد من سرعة مقاتلته، وذلك الجسم الضخم يبتعد..

يبتعد..

ويبتعد..

ثم فجأة، وبلا مقدمات، أو سبب واضح أو منطقي، ودون حتى إبطاء متدرِّج، كما يفعل أي جسم، ينطلق بتلك السرعة، توقَّف ذلك الجسم الضخم بغتة..

توقَّف، كما لو أنه مشهد من فيلم متحرِّك، أوقف عرضه بضغطة زر سريعة..

ولأن المقاتلات التي تطارده، كانت تنطلق بضعف سرعة الصوت، فقد باغتها ذلك التوقُّف الفاجئ، وبدا وكأنها في اندفاعها، سترتطم به حتماً، لذا فقد انحرف قائد السرب بحركة حادة، وتشتَّت سربه على نحو غير منتظم، وكل طيار يحاول تفادي الارتطام، مما أدى إلى تداخل مسارات المقاتلات، إلا أنها أفلتت كلها، فيما عدا مقاتلتين، ارتطمت إحداهما بجناح الثانية، فتحطَّم ذيل الأولى، وانكسر جناح الثانية، وسقطت على نحو سريع ومخيف، في المنطقة الجبلية الشرقية، وانفجرتا مع ارتطامهما بالصخور، وإن نجا طيارا المقاتلتين، بقفزهما بمقعد الطيار ذي المظلة..

وفي غضب، وبعد أن تجاوز الجسم الضخم، دار قائد السرب بمقاتلته؛ ليعود إليه، وهو يهتف عبر اللاسلكي:

- فقدنا مقاتلتين، ونواصل المطاردة.

لم يدر قائده بم يجيب هنا!!..

لا يمكنه أن يأمره بالتوقُّف عن مطاردة جسم طائر مجهول الهوية، تسبَّب في سقوط مقاتلتين ثمينتين..

ولا يمكنه أيضاً أن يهمل ذلك النداء العاجل، الذي انطلق من الربع الخالي، مؤكداً الاحتياج إلى كل مقاتلة مجهزة، لمواجهة خطر داهم غير محدود الهوية..

فماذا لو أن ذلك الخطر في الربع الخالي، هو نفسه الذي يواجهه السرب السادس، في سماء المملكة؟!

وماذا لو لم يكن كذلك؟!..

ماذا؟!..

وماذا؟!..

وماذا؟!

عشرات الأسئلة عربدت في رأسه، فلم يجد أمامه أفضل من أن يلوذ بالصمت، آملاً أن يتخذ قائد السرب القرار الصحيح.

أما قائد السرب نفسه، فقد انطلق مع سربه نحو ذلك الجسم الضخم، الذي توقَّف في السماء، وهو يدور حول نفسه في بطء شديد، دون أن يفارق موضعه، وقال عبر اللاسلكي المحدود في صرامة:

- استعدوا بصواريخكم.

سأله أحدهم في قلق:

- هل سنهاجم؟!

تجاهل قائد السرب عبارته، وهو يقول بمنتهى الصرامة:

- استعد للإطلاق..

اتخذ مقاتلو السرب تشكيلاً قيادياً مدروساً، وهم ينقضون على الجسم الطائر الضخم مباشرة، حتى أصبحت تفصلهم عنه مسافة مناسبة، فصاح قائد السرب:

- اضرب.

ومع أوّل حرفين من صيحته، ضغط القاتلون أزرار الإطلاق..

وانطلقت الصواريخ..

عشر صواريخ، انطلقت كلها نحو هدف واحد..

ذلك الجسم الضخم الطائر، مجهول الهوية..

وفي نفس اللحظة، التي ارتفعت فيها القاتلات، عقب إطلاقها صواريخها، كانت تلك الصواريخ قد بلغت هدفها..

وكان المفترض أن يدوي في السماء انفجار هائل..

هذا ما انتظره الجميع..

وما لم يحصلوا عليه..

فالصواريخ كلها بلغت هدفها بالفعل..

ثم انحرفت عنه، على نحو عجيب..

لم ترتطم بحاجز دفاعي خفي، كما يحدث عادة، في أفلام الخيال العلمي، وإنما انحرفت في نعومة، وكأنما وجدت ما أبدل مسارها، ومالت بزاوية هادئة، على الرغم من سرعتها، وواصلت طريقها إلى أعلى، لتبتعد آلاف الأمتار عن الهدف، ثم تنفجر كلها في السماء، على نحو متسلسل سريع..

وفي دهشة بالغة، هتف قائد السرب:

- مستحيل!

ثم سيطر على انفعاله في سرعة، مع هتافه:

- انقضاض ثان.

دارت القاتلات كلها حول نفسها، وعاودت هجومها على ذلك الجسم الضخم، من الزاوية العكسية، و...

وفجأة، وبلا مقدمات، انطلق الجسم الضخم رأسياً إلى أعلى، وراح يرتفع بسرعة خرافية، تفوق ضعفي سرعته السابقة، حتى أنه قد اختفى في السماء، قبل حتى أن يتخذ رجال السرب رد فعل واحد، فشملهم ذهول عجيب، وراحوا يدورون حول نفسهم، في تشكيل تفقدي، قبل أن يهتف أحدهم:

- ما هذا بالضبط؟!

أجابه قائد السرب في صوت مشدوه:

- كابوس.

استغرق منه الأمر نصف الدقيقة، حتى تجاوز ذهوله، قبل أن يهز رأسه في قوة، ويقول في صرامة، حملت قدراً لا بأس به من العصبية:

- سننطلق إلى المنطقة (د - 37).. فوراً.

وبينما عدّل من مساره، واتخذ السرب كله طريقه، نحو المنطقة (د - 37)، كان عقله يحاول البحث عن الكلمات المناسبة، التي يمكن أن يصف بها ما حدث في تقريره الرسمي، المفترض أن يقدّمه لقيادته..

ولقد كان هذا يدير رأسه..

بمنتهى العنف..

في نفس اللحظة، التي دارت فيها هذه الفكرة في رأسه، كانت تلك القوات المتمركزة هناك، في الربع الخالي، تواجه خطراً آخر..

خطر حي..

وقاتل..

خطر لم يشاهد العلماء، أو رجال الجيش مثيلاً له، إلا في أفلام الخيال والرعب والأساطير..

كان الجميع يواجهون كائناً أسطورياً شهيراً..

تنين هائل، بجسده الضخم، ثعباني الهيئة، وذيله الضخم، الذي ينتهي بانتفاخ شبيه برأس السهم، وتلك النتوءات الضخمة على ظهره، وقوائمه الشبيهة بقوائم سحلية هائلة، ذات مخالب حادة طويلة، ورأسه المخيف، بعينيه

الواسعتين الحمراوين، ولسانه الطويل المشقوق، وأنيابه الحادة البارزة، وجناحيه الهائلين، الشبيهين بجناحي خفاش عملاق..

لقد اندفع من تلك الثغرة عصبياً ثائراً، وضرب بجناحيه الهائلين في الهواء، وهو يدير عينيه الحمراوين فيمن حوله، ممن شملهم الرعب والذهول، اللذان سيطرا على مشاعرهم جميعاً لحظات، لم يوقظهم منها إلا صوت ذلك التنين الهائل، وهو يطلق صرخة مخيفة، ثم ينقض عليهم في وحشية، وينشب مخالبه في أقربهم إليه، ويحمله عالياً، ليقضم رأسه بأنيابه الحادة، غير مبال بصراخه اليائس..

ومع ذلك المشهد الرهيب، انتفض قائد القوات، وصاح برجاله:

- أطلقوا النار..

وفي غزارة وتوتر، ما لهما من مثيل، راح العسكريون يطلقون كل أسلحتهم، نحو ذلك التنين الرهيب..

رصاصاتهم..

مدافعهم..

دبّاباتهم..

صواريخهم..

ولكن ذلك التنين الرهيب كان يتحرّك بسرعة مدهشة، ويدور حول الرجال، ويحاور، ويناور، وينقض..

ثم بدأ هجومه المضاد..

ومن بين فكيه المخيفين، انطلقت ألسنة لهب طويلة..

رهيبة..

وقاتلة..

واشتعلت النار في الرجال..

والمعدات..

والأجهزة..

وانفجرت الصواريخ وسط العسكريين..

وتوالت الانفجارات..

وفي رعب هائل، راح الكل يعدون على غير هدى، وألسنة اللهب تطاردهم في وحشية، وكبير العلماء يصرخ، محاولاً الاحتماء بأي شيء:

- ما الذي نواجهه بالضبط؟!.. إنه كائن أسطوري، كما وصفته روايات الأقدمين بالضبط!!

بدا (فراس) ذاهلاً، جامداً في مكانه، وهو يغمغم:

- مستحيل!.. مستحيل!

دار التنين الرهيب في السماء، يثير الهلع والذعر في النفوس، ثم اتجه بجناحيه الهائلين، وأنيابه الرهيبة، نحو (فراس) مباشرة..

وبكل رعبه، صرخ كبير العلماء:

- احترس يا رجل.. سيقتلك حتماً.

ولكن (فراس) لم يتحرك من مكانه..

كرامته العسكرية أبت عليه أن يفر، حتى ولو كان خصمه تنيناً رهيباً..

وفي حزم وصرامة، على الرغم من الارتجافة، التي تسري في كل عروقه، سحب مسدسه، وأمسكه بقبضتيه، وصوّبه نحو التنين، وهو يقول في غضب عصبي:

- لن يكون ثمني رخيصاً أيها الوغد.

فتح التنين فكيه، وهو ينطلق نحوه مباشرة، استعداداً لإطلاق لسان لهب آخر نحوه..

وضاقت عينا (فراس)، وانعقد حاجبيه في صرامة، وصوّب مسدسه في إحكام، وكبير العلماء يصرخ:

- أيها المجنون.

كان (فراس) واثقاً، من أن المواجهة لن تحسم لصالحه على الأرجح..

إلا أنه لم يتراجع..

وضغط الزناد..

وبكل قوته..

ومع دوي الرصاصة، أغلق كبير العلماء عينيه في قوة، و...

ودوى الانفجار..

انفجار يفوق حتماً دوي ألف ألف رصاصة..

وفتح كبير العلماء عينيه دفعة واحدة، فاتسعتا عن آخرهما في ذهول..

وفوق رأسه مباشرة، وعلى مسافة أقل من متر، اندفع ذلك التنين الهائل، بفعل قذيفة قوية أصابته، وارتطم برمال الصحراء في عنف..

وفي اللحظة نفسها، صك مسامعه هدير سرب الطائرات، الذي دار في سماء المعركة، وقائده يهتف، بكل عصبية الدنيا:

– ماذا يحدث اليوم بالضبط؟!.. هل انتقلنا إلى عالم أساطير، أم أننا نحيا أكبر كابوس، في حياتنا كلها؟!

كان يدور مع سربه، لينقضوا مرة أخرى على ذلك التنين، الذي استقر على مساحة هائلة من الصحراء، وجناحاه مفرودات حوله، على مساحة واسعة..

وباستثناء هدير سرب المقاتلات، ساد في صحراء الربع الخالي صمت رهيب..

الكل راحوا يحدِّقون في ذلك التنين الرهيب، غير مصدقين أنه قد سقط، بعد كل ما كبدهم إياه من خسائر..

ولكن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه..

فقط وقفوا يحدِّقون فيه، في صمت ذاهل..

أما قائد السرب، فقد دار بسربه دورة كاملة، حول ذلك التنين، قبل أن يقول، ولم تفارقه عصبيته بعد:

– يبدو أننا قد انتصرنا هذه المرة يا رفاق.

غمغم أحدهم مبهوتاً:

– يبدو هذا.

وتمتم كبير العلماء في أسف:

– أيها العقيد.. لقد جعلتني أؤمن بأن أحداً لا يمكنه معاندة إرادة الله عزَّ وجلَّ.

غمغم (فراس) في توتر:

– كان ترتيباً قدرياً لا أكثر.

قال كبير العلماء، وهو يربت على كتفه:

– بل كان أشجع عمل رأيته، في حياتي كلها.. لقد صوَّبت مسدسك نحو كائن رهيب، ترتجف فرائصي لمجرَّد هيئته، على الرغم من ثقتك في أنه يفوقك قوة بألف مرة، وبدون أن تدرك أن المقاتلات ستصل، في الوقت المناسب.

غمغم (فراس)، وتوتره لم يفارقه بعد:

– كانت مجرَّد مصادفة.

أجابه في خفوت:

– نحن العلماء لا نؤمن بالمصادفات، ولدينا مبدأ يقول: إن المصادفة لا تأتي إلا لمن يستحقها.

صمت (فراس) لحظات، ثم تمتم:

– ربما.

في نفس اللحظة، التي تمتم فيها بكلمته، كان قائد السرب يبلغ قيادته، قائلاً في توتر ملحوظ:

- من نسور ستة إلى القاعدة.. واجهنا ذلك الخطر، الذي نعجز عن تحديد هويته، وننتظر الأوامر بـ.

كان يقولها، وعيناه ترصدان ذلك التنين الرهيب، الراقد على رمال صحراء الربع الخالي، لذا فقد بترها على نحو مباغت، عندما انتفض التنين بغتة، ثم اعتدل واقفاً على أقدامه، في حركة أثارت ذهول ورعب الجميع، فاندفع بعضهم يعدون مبتعدين، من شدة الذعر والمفاجأة، واتسعت عينا (فراس) عن آخرهما، في حين صرخ كبير العلماء في ذهول:

- مستحيل!.. مستحيل!

ومع آخر حروف كلماته، ضرب التنين جناحيه في الهواء بقوة..

وانطلق..

انطلق محلقاً في السماء، ومندفعاً نحو سرب المقاتلات مباشرة..

وبسرعة خرافية..

ومنتزعاً نفسه من ذهوله، صاح قائد السرب بمقاتليه:

- تشكيل قتالي دائري:

قبل أن تتخذ المقاتلات تشكيلها، أطلق التنين لساناً من اللهب نحوها، وهو يواصل اندفاعه بأقصى سرعة..

وأمام عيني قائد السرب، اشتعلت إحدى مقاتلاته، والتقطت النيران ذيل مقاتلة ثانية، فصرخ في انفعال:

- اضرب.

وفي آن واحد تقريباً، أطلقت ست مقاتلات صواريخها، نحو ذلك التنين مباشرة، في حين دار قائد السرب بمقاتلته، وهو يغمغم عبر اللاسلكي، وكأنه يحدِّث نفسه:

- أظنه مثل التماسيح.. جسده كله مدرّع، فيما عدا بطنه.

قالها، ثم أطلق صاروخه، نحو بطن التنين مباشرة..

وفي سماء المعركة، دوت الانفجارات..

ستة انفجارات في آن واحد.

ثم أعقبها سابع..

وارتجت المنطقة كلها بصرخة هائلة..

صرخة أطلقها ذلك التنين الهائل، قبل أن تتفجَّر أحشاءه كلها، مع أطنان من الدم، قبل أن يهوى من حالق..

وفي ذعر، راح الرجال يعدون، محاولين تفادى سقوطه السريع، وقائدهم يصيح:

- ابتعدوا.. ابتعدوا بأقصى سرعة.

ولكن سرعة سقوط التنين، كانت تفوق سرعة فرارهم..

لنا، فقد سقط جسده الهائل، ليسحق ثلاثة منهم أسفله..

وفي بطء، انتشرت حوله بركة كبيرة من الدماء، أعلنت مصرعه الفعلي هذه المرة إلى الأبد..

ومع تشرُّب الصحراء للدم، وقف الجميع ذاهلين للمرة الثانية، يحدِّقون في جثة التنين، في حين دار سرب القاتلات، يرصد جثة التنين، وطائرته المحترقة، والأخرى التي هبطت اضطرارياً في الصحراء، قبل أن يقول قائده في توتر:

– تُرى أهذه هي النهاية؟!

كان هذا هو السؤال، الذي يدور في أذهان الجميع، والذي حوّله (فراس) إلى سؤال ثان، نطقه في عصبية:

– ما الذي نواجهه بالضبط؟!

أجابه كبير العلماء في خفوت:

– كابوس.

ثم استعاد طبيعته العلمية، ليهتف بمن تبقى من فريقه:

– أريد عينات من هذا الشيء.. لابد وأن نفحص خلاياه؛ لتحديد هويته.

غمغم (فراس) في عصبية:

– أية هوية؟!.. إنه تنين.. أليس هذا واضحاً؟!

صمت كبير العلماء لحظة، ثم أجاب في حزم:

– بلى.. ولكن ما زال هناك سؤال خطير.

ثم التفت إليه، مستطرداً:

– أهو مخلوق طبيعي، أنجبته تطورات خلقية إلهية، أم أنه نتاج تدخُّل بشري.

هتف (فراس) في دهشة:

– أهذا ممكن؟!..

أجابه، وهو يراقب فريقه، الذي يجمع العينات، ويدرس الموقف:

– مع تطور علم الجينات وهندسة الوراثة، هذا حلم.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

– ولكنه ليس مستحيلاً.

انعقد حاجبا (فراس)، وهو يقول في عصبية:

– أتعني أننا لم نتوصَّل إليه بعد؟!

هزَّ كبير العلماء رأسه نفياً، فازداد انعقاد حاجبي (فراس)، وهو يقول:

– حديثك يعني أننا نواجه، إما عالماً يختلف عن عالمنا تماماً، أو أنه يفوقنا تكنولوجياً بعدة سنوات.

غمغم كبير العلماء:

– كنت أظن هذا واضحاً.

قال (فراس) في عصبية:

– إنها كارثة، في كل الأحوال.

مط كبير العلماء شفتيه، دون أن يجيب، وراقب في إشفاق قائد الفريق العسكري، وهو يحصي خسائر قواته الفادحة، بعد مواجهة مع كائن واحد، من كائنات ذلك العالم، الذي يحاول النفاذ إلى عالمنا، وتساءل في أعماقه عما يمكن أن يحدث، إذا ما نجح ذلك العالم في إرسال جيش من العمالقة، مدعوماً بآخر من تلك التنانين الرهيبة؟!..

عندئذ ستكون المواجهة شديدة العنف..

ولا يمكن التنبؤ بنتائجها..

لا يمكن أبداً..

وبينما تدور تلك الفكرة في رأسه، اقترب منه أحد أفراد فريقه، قائلاً في توتر ملحوظ:

- سيدي.. هناك شيء ينبغي أن تراه.

لهجته أثارت قلق كبير العلماء و(فراس) أيضاً، فقال هذا الأخير في حزم:

- أي شيء هذا؟!

عاد الرجل إلى حيث جثة التنين، وهو يقول:

- ستريانه بنفسيكما.

تبعاه في مزيج من القلق والفضول، حتى بلغا جثة التنين، فمال الرجل نحو عنقه، وأشار إلى شيء ما، قائلاً في توتر:

- هنا.

ومال (فراس) وكبير العلماء، ينظران إلى ما أشار إليه، قبل أن تتسع عيونهما، بمنتهى الدهشة والتوتر..

فما رأياه لم يكن في الحسبان..

أبداً.

* * *

الفصل الثاني عشر

ساد صمت تام، وسط تلك الأطلال القديمة، على الرغم من شروق الشمس، وسطوعها الشديد، في ذلك اليوم، الذي انقشعت فيه السحب على غير العادة، في ذلك العالم العجيب..

وكإجراء يومي، راح فريق ثلاثي، من أولئك الفرسان الدرّعين، يجوب تلك الأطلال القديمة، وسيوفه مشهورة؛ لاقتناص كل من يبدى، ولو لمحة واحدة، يمكن أن تثير الشك في نفوسهم..

كان إجراءً إرهابياً قمعياً بأكثر منه تأمينياً أو وقائياً، لثقة الفوهلر في أن قواته هي الأقوى، وفي أن العالم، الذي سعى لعزله عن التطور والتكنولوجيا، منذ استقرت له السيطرة على العالم أجمع..

لذا، فقد كان الفرسان يتجولون وسط الأطلال في آلية، مع أسلحتهم شديدة التطور، مطمئنين إلى أن الأمور ستسير على النسق المطلوب..

ولكن فجأة، رصدت أجهزة أحدهم وجود حركة قريبة، فأرسل إشارة مباشرة إلى رفيقيه، ليتوقف الثلاثة، ظهورهم إلى بعضها البعض، وسيوفهم الإليكترونية مشهورة، وأجهزة الفحص الحراري، لدى كل منهم، ترسل إشارات

قوية فيما حولهم، لرصد أية أجسام حية قريبة..

ولكن ما رصدته أجهزتهم كان يتعارض تماماً مع ما خبروه طويلاً..

هناك حركة قريبة..

ما في هذا من شك..

ولكن لا توجد انبعاثات حرارية كافية..

أجسام مختلفة تقترب، من كل الاتجاهات، كما تشير أجهزة رصد الحركة، ولكنها لا تبعث حرارة كافية، يمكن أن يبعثها حتى فأر صغير.

وهذا يعني أن تلك الأجسام ليست حية!!..

وهو أمر محيِّر..

محيِّر للغاية..

ولأنه موقف لم يختبروه من قبل، راح الفرسان الثلاثة يدورون حول أنفسهم، ويحركون سيوفهم حركة منتظمة، وكأنما يتوقعون هجوماً غامضاً، من أي اتجاه..

من اليمين..

أو اليسار..

أو الأمام..

أو الخلف..

ولكن الهجوم حدث بغتة..

من أعلى..

شبكة معدنية، ألقيت عليهم من فوق الأطلال، تحوي أطرافها كرات معدنية ثقيلة، لم تكد تسقط أرضاً؛ لتثبيت الشبكة المعدنية، التي أحاطت بثلاثتهم، حتى أتمت الاتصال مع شبكة صلبة، مدفونة تحت الرمال، ويصلها سكان سميكات بمولِّد كهربي قديم، عتيق الطراز، يتحكَّم فيه (عزت)، الذي صرخ، فور حدوث التماس:

– الآن.

ثم جذب حبل المولِّد القديم، الذي تم اختباره مسبقاً..

وانطلق المولِّد يعمل في قوة..

وأطلق شحنة كهربية قوية، سرت في الشبكة الأرضية، المغطاة بالرمال، ثم انتقلت، عبر الكرات المعدنية الثقيلة، إلى الشبكة المعدنية..

ومنها إلى دروع الفرسان الثلاثة..

وأياً كانت ماهيتهم، كان ذلك التيار المباغت العنيف، كفيلاً بإتلاف كل أجهزتهم الإليكترونية، وإصابتهم بصدمة كهربية، توقف عملهم، لو أنهم مجرَّد آلات، وتفقدهم الوعي، لو أنهم بشر..

وفي كل الأحوال، فقد سقط الفرسان الثلاثة، وتوقَّفت أجهزتهم عن العمل، وانقطع اتصالهم بغتة بالمركز الرئيسي..

وفي ذهول، وقف الفرسان، وعلى رأسهم (أوجار)، يحدِّقون في الفرسان،

غير مصدقين أن ما دعاهم (عزت) لفعله، قد أتى ثماره على هذا النحو المدهش..

(كوناد) وحده بدا مبهوراً، وهو يغمغم في انفعال:

– لقد فعلتها.

قال (عزت)، وهو يوقف عمل المولِّد:

– كلنا فعلناها.. لولا معرفتك مكان هذا المولِّد القديم، واحتفاظك بكمية كافية من الوقود السائل، لما أمكننا القيام بهذا.

مال (كوناد) عليه، وأشار إلى رأسه، قائلاً:

– المولِّد والوقود هنا، منذ زمن طويل للغاية، ولكن عقلك ما جعل لهما هذه الفائدة.

ثم اعتدل، ورفع يده إلى أعلى، وكأنه يهنئ الرجال بالنصر، فغمغمت (مارا) مبهورة:

– (سافور).

ردَّد الكل خلفها، في انبهار واضح:

– (سافور).. (سافور).

انعقد حاجبا (عزت)، وهو يقول:

– فكرة المنقذ هذه لا تروق لي.

أجابه (كوناد)، وهو يشير إلى الرجال برفع الشبكة المعدنية:

– بعد كل هذا، ألا تعتبر نفسك منقذاً بالفعل.

ازداد انعقاد حاجبي (عزت)، دون أن يجيب، واتجه إلى أحد الفرسان المدرَّعين، وانحنى يفحصه في اهتمام..

لم تكن هناك وسيلة واحدة، للتيقُّن مما إذا كان بشرياً يرتدي درعاً، أم مجرَّد آلة..

الدرع كان محكماً، على نحو مدهش..

ولا توجد وسيلة واضحة لنزعه..

وتوقُّف أجهزة الفرسان عن العمل، كان يفسد الأمر أكثر..

وبعد قليل من الفحص، غمغم (عزت) في توتر:

– نحتاج إلى إعادة تشغيل هذا الشيء.

ردَّد (كوناد) في قلق:

– إعادة تشغيله؟!

أجابه (عزت) في حزم:

– بالتأكيد.. هذا الدرع لا يمكن التعامل معه، دون إعادة تشغيل الأجهزة، فهو يعمل إليكترونياً.

قال (كوناد):

– ولكننا لا نأمن ما يمكن أن يفعله بنا الفارس، لو أعدنا تشغيله.

تنهَّد (عزت)، مغمغماً:

– مخاطرة لابد منها.

ثم التفت إلى (أوجار)، وأشار إليه بالقوم، فانعقد حاجبا (أوجار)، وهو يثب من أعلى إليه، ويقف أمامه بجسده المشوق، وقوامه المتين، فقال (عزت)، وهو يعلم أنه لا يعرف لغته:

– سأعيد تشغيل هذا الشيء، ولست أدري عم سيسفر هنا، لذا أحتاج إلى حماية.

ظلَّ (أوجار) يحدِّق في عينيه لحظة، ثم استلَّ سيفه بحركة حازمة، وأشار إلى رفاقه، فأقدموا نحوه، وبإشارة من يده، التفوا حول (عزت) و(كوناد) والفرسان الملقين أرضاً، فتساءل (عزت) مبهوراً:

– هل يمكنه أن يفهمني؟!

أجابه (كوناد) في رصانة:

– إنه لا يعرف لغتك، ولكنه ذكي، ويمكنه استيعاب أمور عديدة.

التقط (عزت) نفساً عميقاً، قبل أن يغمغم:

– هذا ما شعرت به، عندما تحدَّثت إليه.

ابتسم (كوناد)، متمتماً:

– لقد أدركت هذا.

رمقه (عزت) بنظرة خاوية، ثم اتجه مرة أخرى نحو المولِّد، الذي يختفي خلف جدار كبير، وفصله عن الكابلين، ثم أعاد تشغيله، وأوصله هذه المرة بسلكين أقل سمكاً، وخفف من شدته، ثم جذب السلكين نحو أحد الفرسان الثلاثة،

وأوصلهما بجزء خاص في صدره، فصدر عن درعه أزيزاً، جعله يتراجع بحركة قلقة..

ولكن الفارس ظلّ راقداً في صمت، على الرغم من إعادة تشغيل آلاته، مما شجّع (عزت) على الاقتراب منه مرة ثانية في حذر، وانحنى يفحص درعه مرة ثانية.. هناك حتماً وسيلة ما للتسلُّل إليه..

وسيلة خارجية..

استنفر كل معلوماته عن علم الإليكترونيات، وعما قرأه عن التوقعات المستقبلية، ووسائل الاتصال والتحكُّم المتطوِّرة، وهو يفحص الدرع..

وبكل اهتمام ودقة الدنيا..

وهناك، في (فوربادا)، قال أحد الرجال المتشابهين لرقم واحد:

– أحد الفرسان عاد إلى العمل.

كانت الشاشات العملاقة، في مركز المتابعة، ترصد إعادة البث، بعد أن عاد درع الفارس للعمل، فقال رقم واحد في حزم:

– قم بتشغيل كاميرا الرصد عن بعد.

كان (عزت) منهمكاً في فحص ذلك الدرع، عندما أضيئت تلك الدائرة فجأة، في موضع الجبهة من الدرع..

وبحكم دراسته وخبرته، أدرك (عزت) ماهية ذلك المصباح على الفور..

وتراجع بأقصى سرعة..

ولكن، وعلى الرغم من سرعته، رصدته آلة التصوير الرقمية الدقيقة، وثبت صورته في جزء من الثانية، إلى شاشات تلك القاعة الواسعة في (فوربادا)..

واتسعت عينا رقم واحد لحظة، قبل أن تختفي صورة (عزت)، فهتف بالمسئول عن تشغيل الشاشات:

– أعد هذه اللقطة، وقم بتثبيتها.

أعاد الرجل اللقطة، وثبتت صورة (عزت) على الشاشة، فانعقد حاجبا رقم واحد في غضب، وهو يغمغم:

– هو مرة أخرى.

استغرق منه الأمر ثوان عشر، قبل أن يهضم الموقف كله، ويقول في صرامة:

– لابد وأن يعلم الزعيم بهذا فوراً.

اتجه على الفور إلى قاعة الزعيم، ولكن أحد حارسي القاعة استوقفه، وهو يقول بصوت معدني صارم:

– ليس الآن.

انتظر رقم واحد في توتر، وهو يدرك أن الزعيم غير مستعد لاستقبال أحد، في هذه اللحظة..

لا أحد يدرى لماذا يصر أحياناً على عدم استقبال أي مخلوق، في ساعات بعينها، في بعض الأيام..

ولا أحد يملك الحق حتى في السؤال..

فقط عليهم السمع..

والطاعة..

والخضوع..

هذا ما تعلموه..

وما تربوا عليه..

وما اعتادوه أيضاً..

لذا فقد انتظر رقم واحد في صبر، حتى يتم السماح له بمقابلة الزعيم، على الرغم من إدراكه لحساسية وخطورة الموقف كله..

وداخل القاعة، كان الزعيم يجلس مسترخياً، داخل اسطوانة تجديد حيوية خلايا جسده، ومخه يستعيد ذكرى قديمة..

ذكرى انتصار النازية..

طموحاته تحققت، بعد صراع طويل، مع العالم أجمع..

وبعد أن كاد الروس يحطمون أحلامه كلها، على جليدهم الدامي..

كان قد أوقف القتال، في الجبهة الروسية، بناءً على معلومات مدسوسة، دفعتها الخابرات البريطانية في طريق عملائه، فجعلته ينقل قوى القتال كلها إلى الجبهة البريطانية، على مشارف الشتاء..

وجاء الشتاء الروسي شديد القسوة ذلك العام..

انخفضت درجات الحرارة، إلى الخمسين تحت الصفر..

وانخفضت الروح المعنوية لجنوده، إلى ما هو أقل من هذا..

وفي (نورماندي)، هبطت قوات الحلفاء..

وبدأت الهزائم تتوالى..

وبدأ زحف الروس وحلفاؤهم..

نحو (برلين) مباشرة..

وبدراسة سريعة، أدرك أن القتال المباشر سيعني خسارة حتمية..

وأن الأمل الوحيد يكمن في السلاح السري، الذي طالما هدَّد به العالم..

والذي لم يكن قد اكتمل بعد..

في القنبلة الذرية.

عندئذ، ترك الحلفاء يزحفون نحو (برلين)، وجنَّد كل ما تبقى من عقول وأيادي وإمكانيات (ألمانيا)، لإنتاج القنبلة..

وعندما أصبح الحلفاء على مسافة مائة كيلومتر فحسب من (برلين)، كانت القنابل الذرية معدَّة للإطلاق..

وبدون إضاعة لحظة واحدة، أمر باستخدامها..

وكان ما كان..

وارتجف العالم كله لما حدث..

وضاعت قيادات الجيوش، وعواصمها في ساعات..

ومع انهيار القيادة، وذلك الرعب الهائل، الذي سيطر على النفوس، توقفت قوات الحلفاء عن الزحف نحو (برلين)..

وبدأ هو هجومه المضاد..

وبمنتهى الشراسة والعنف..

وكلما حاولت قوات الحلفاء المتخبطة التقدُّم، كان يوجه لدولها ضربة نووية جديدة..

ولم يكن هناك مفر من الاستسلام..

وخلال عام واحد، كان الحلم النازي الكبير قد تحقق، وصار العالم كله نازياً خاضعاً، ينحني أمام رجل واحد..

هو..

(أدولف هتلر)..

الفوهلر العظيم..

وعندما بدأ في تحقيق حلم التفوّق الشامل، كانت أمام عقبة رهيبة..

السن..

كان الزمن يمضي به، وعمره يتقدّم، والحلم لم يكتمل بعد..

وهكذا بدأ معركته الجديدة..

معركته مع خصم لا يرحم، ولم ينهزم قط، منذ بدء الخليقة..

مع الزمن..

وخلال خمس سنوات كاملة، جند أذكى عباقرة العالم أجمع، وأبرع عقولهم، لإيجاد وسيلة لإطالة العمر، حتى يرى حلمه مكتملاً..

ومع موارد العالم كله، التي حرم منها الشعوب في قسوة، راح العلماء يبتكرون الوسيلة تلو الأخرى، وكلها لا تحقق ما يصبوا إليه، والعمر يمضي..

ويمضي..

ويمضي..

وأخيراً، وبعد أن أعدم ما يقرب من خمسين، من أفضل علماء العالم، توصّل الباقون إلى ابتكار تلك الوسيلة، التي يستخدمها الآن..

لم تكن كافية، لتجديد الخلايا تماماً، ولكنها كانت تعيد إليها ستين في المائة من شبابها وحيويتها..

وهذا أفضل ما توصلوا إليه..

وصحيح أن هذا كان يمنحه القدرة على المواصلة، وعلى أن يبدو قوياً متماسكاً طوال الوقت، إلا أن عمره كان يواصل التقدُّم..

ولكن في بطء..

في بطء شديد..

وهذا يعني أنه، ومهما طال الزمن، فالموت آت في النهاية ولا ريب..

فتح عينيه بحركة حادة، عندما بلغ هذه المرحلة من تفكيره، والتي يرفض مجرد وضعها في حساباته، وشعر بالحيوية تسري في خلاياه، وهو ينهض من

مقعده، ويغادر تلك الاسطوانة، التي غاصت في منتصف القاعة، وهو يتجه إلى عرشه الكبير، الذي لم يكد يجلس عليه، حتى قال صوت آلي هادئ:

– رقم واحد ينتظر الإذن بالدخول.

انعقد حاجباه في صرامة، وهو يقول:

– فليدخل.

دلف رقم واحد إلى القاعة، في خطوات عسكرية صارمة، وتوقَّف أمام العرش، ليرفع يده، هاتفاً:

– هايل (هتلر).

أشار إليه الزعيم بالاسترخاء، وهو يسأله في خشونة:

– ما الأمر هذه المرة؟!

أشار رقم واحد إلى الشاشة في مسند عرش الزعيم، وهو يقول:

– لقد عاد مرة أخرى.

ضغط الزعيم زراً، فشاهد ما حدث على شاشته، وكما فعل رقم واحد، فقد أعاد المشهد، وثبت صورة (عزت)، وضاقت عيناه وهو يتأمَّله لحظات، قبل أن يزمجر في غضب شديد، قائلاً:

– قلت: إنني أريد هذا الرجل.

أجابه رقم واحد في سرعة:

– لقد حددنا موضع أحد الفرسان، الذي عاد يبث إشاراته، وسنجده هناك

حتماً.

سأله (هتلر) في خشونة:

– كم فرقة أرسلت؟!

أجابه رقم واحد في حذر:

– فرقتين مسلحتين، وعملاقين.

كشَّر (هتلر) عن أنيابه، وقال في شراسة:

– هذا لا يكفي.

شعر رقم واحد بدهشة بالغة، فتلك القوة التي أرسلها، تكفي لإبادة قرية كاملة!..

ولكن الزعيم يعرف أكثر حتماً..

لذا فقد سأله:

– ماذا نرسل أيضاً أيها الزعيم؟!

صمت الزعيم لحظات مفكراً، ثم قال في صرامة:

– (وارما).

اتسعت عينا رقم واحد لحظة، قبل أن يستعيد صرامته العسكرية، قائلاً في حزم:

– فوراً أيها الزعيم.

أشار إليه الزعيم بالانصراف، فتراجع لينصرف، ولكن الزعيم استوقفه

مرة أخرى، متسائلاً في صرامة:

- هل وصل البث الآخر؟!

أجابه في سرعة:

الإرسال لم يكن جيداً بما يكفي، ولكن طاقم من العلماء يسعى لتحسينه الآن.

زمجر (هتلر)، قائلاً:

- أريد أن أراه فوراً.

قال رقم واحد في حذر:

- ولكنه ليس..

زمجر مرة أخرى، في شراسة أكبر، وقال يقاطعه، في صرامة شديدة:

- فوراً.

انحنى رقم واحد، وقال:

- فوراً أيها الزعيم.

وانصرف على الفور لتنفيذ الأمر، في حين عاد الزعيم يتطلّع إلى صورة (عزت) على الشاشة، وهو يغمغم:

- رجل واحد.. عجباً.

في نفس اللحظة، التي نطقها فيها، كان (كوناد) يسأل (عزت) في قلق:

- ماذا حدث؟!

أشار (عزت) إلى تلك البقعة الخبيئة، في جبهة درع الفارس، وأجاب في توتر:

- إنها كاميرا فورية، تبث الصور مباشرة، إلى نقطة بعينها.

تساءل (كوناد) في خفوت، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- (فوربادا)؟!

أجابه بنفس الخفوت:

- على الأرجح.

انعقد حاجبا (كوناد)، وهو يتطلّع إلى تلك البقعة الخبيئة، قبل أن يخلع قلنسوته، قائلاً:

- الرؤية يسهل التعامل معها.

ثم ألقى قلنسوته على جبهة الدرع، ثم استطرد:

- هكذا.

سأله (عزت) في حذر:

- وماذا عن الصوت؟!

أشار (كوناد) إلى الجميع إشارة خاصة، وهو يقول:

- سنلزم الصمت التام.

اعتدل الجميع فور إشارته، ووقفوا وقفة ثابتة حازمة، وقد لاذوا بالصمت التام، على نحو أثار إعجاب وتقدير (عزت)، الذي اتجه نحو الدرع في صمت

مثلهم، وانحنى يفحصه بمنتهى الاهتمام..

ومع المصابيح الصغيرة، التي تعمل طوال الوقت، على طول الدرع، بدأ يدرس الوقف كله، كخبير إليكتروني، ومتخصص لا يشق له غبار، في التكنولوجيا الرقمية شديدة التطور..

لقد كان درعاً متيناً صلباً للغاية، يمكنه تلقي الرصاصات، دون أن تنجح في اختراقه، وهو مزوّد بعدد مدهش من الأجهزة والمعدات..

أجهزة لرصد الصوت..

والحركة..

والوزن..

ودرجات الحرارة..

والرطوبة..

وخرائط رقمية..

ومناظير رؤية ليلية..

وأنابيب ليزر..

ونظام اتصال بالغ الدقة والقوة..

و..

توقّف طويلاً عند ذلك الرتاج الصغير، الذي بدا للوهلة الأولى مجرّد حلية، في منطقة الصدر..

كان نوعاً من الأقفال الإليكترونية القوية، ذات الشفرة الخاصة، ويتحكمُ في شيء ما، لا يمكن تحديده بالضبط.

وبكل خبرته، فحص (عزت) ذلك الرتاج..

وجذبت انتباهه بشدة دائرة زجاجية داكنة في طرفه..

ولثوان، درس هذا التركيب، وربطه بمعلوماته الرقمية، قبل أن يدرك ماهيته..

وفي اهتمام بالغ، هبط إلى قفاز الدرع المعدني، وأمسكه من طرفيه، ثم جذبه على نحو خاص، وهو يضغط الطرفين طوال الوقت..

وانعقد حاجبا (كوناد) في شدة، عندما شاهد ما ظهر تحت القفاز..

وتوتّر (أوجار) على نحو ملحوظ.

فالقفاز كشف ماهية الفرسان الدرعين..

فتحته، ظهرت يد رجل أبيض..

ليسوا آلات إذن..

إنهم بشر..

بشر يرتدون دروعاً خاصة..

قوية..

متينة..

وشديدة التطور..

ومنيعة أيضاً..

(عزت) أيضاً كان يشعر بانفعال شديد، عندما توصّل إلى تلك الحقيقة..

ما داموا بشراً، فهناك حتماً وسيلة لنزع ذلك الدرع..

وهو يعتقد أنه قد توصّل إلى تلك الوسيلة..

ففي حسم وثقة، التقط يد الفارس، ورفعها إلى تلك الدائرة الزجاجية الداكنة، في طرف الرتاج، وألصق إبهامها بها..

ومضت ثانية صامتة، قبل أن يصدر صوتاً دقيقاً، ثم انفتح الرتاج دفعة واحدة، بصوت مسموع..

إنها وسيلة رقمية معروفة إذن..

مسح بصمة الإبهام، ومطابقتها بنظام الأمن الإليكتروني، يفتح رتاج ذلك الدرع المتين..

وسرت ارتجافة انفعالية في جسد (عزت)، وهو يمد يديه في حذر، إلى خوذة الدرع، وتعلّقت عيون الجميع بيديه، وهو يمسك الخوذة، وينتزعها في رفق وحذر شديدين..

وانكشف وجه الفارس..

واتسعت عينا (عزت)، في دهشة عارمة..

بل اتسعت عيون الجميع..

(كوناد)..

(آجور)..

و(مارا)..

والآخرين..

فوجه الفارس، الذي انكشف بعد نزع الخوذة، لم يكن وجهاً مجهولاً..

بل كان وجهاً مألوفاً..

للجميع..

وجه، يرونه يومياً، على الجدران المحيطة بقريتهم السرية الداخلية..

وجه الفوهلر..

(أدولف هتلر)..

شخصياً.

• • •

الفصل الثالث عشر

"هذا أمر يصعب تصديقه!!..".

بدا المصري شديد الانزعاج، وهو يلقي هذه العبارة، ويلتفت إلى زميليه، السعودي والكويتي، في مركز القيادة، فبذل (فراس) جهداً حقيقياً؛ ليبدو متماسكاً، وهو يجيب:

– ربما.. ولكنه واقع عشناه جميعاً، وسجلته آلات التصوير والمتابعة، وورد في تقرير قائد القوات المصاحبة، وتقرير سرب النسور السادس أيضاً.

قال السعودي في حزم متوتر:

– تقرير سرب النسور السادس حمل الكثير من المعلومات، أخطرها تلك الخاصة بالجسم الطائر المجهول، الذي فشل السرب، بكل مقاتلاته، في مطاردته.

غمغم (فراس)، محاولاً تصديق ما ينطقه:

– هذا أمر آخر.

أجابه الكويتي في صرامة:

– الأمور لا تستقيم على هذا النحو أيها العقيد.. علماؤك يصرون على أن ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، والتي شهدت غزارة غير مسبوقة،

وتواجداً لأوّل مرة، في سماء المملكة، ولكن كل قادة القوات يصرون على العكس تماماً.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وهو يقول:

– أنا شخصياً، أميل إلى تصديق العلماء.

سأله المصري:

– حتى لو تعارض هذا مع رأى القادة؟!

التقط نفساً عميقاً، قبل أن يجيب:

– العلماء لديهم منطق علمي وعملي، استطاع أن يجد سبيلاً إلى منطقي وعقلي.

اعتدل السعودي، متسائلاً في اهتمام:

– أيمكنك شرحه لنا؟!

أجابه (فراس) في حزم:

– بالتأكيد.

ثم اعتدل في وقفة عسكرية ثابتة، مستطرداً:

– العلماء يقولون: إن ما يحدث في الربع الخالي، هو محاولة من عالم آخر، لفتح ثغرة بين عالمه وعالمنا؛ كوسيلة لاحتلال عالمنا، أو السيطرة عليه، وكل ما خرج من تلك الثغرة، يشير إلى سلسلة من التجارب، لتحديد مصير أية قوات يتم نقلها إلى هنا؛ ففي البداية أرسلوا عملاقاً آلياً، فشل في تحمل صدمة الانتقال

بين العالمين، وتعطلت آلاته في صحراء الربع الخالي، وراحت الشمس تلتهم غلافه الخارجي، حتى بقي منه ذلك الهيكل الصناعي، الذي عثرنا عليه في البداية، وعندما طوّروا أسلوبهم، فاجأونا بالعملاق الآخر، الذي وصل سالماً، وواجه قواتنا هناك، وتمت السيطرة عليه في صعوبة شديدة، بعد أن كبّد القوات خسائر فادحة، ثم مرّت مرحلة هادئة، كانوا يدرسون فيها الموقف، ويعملون على تحليل النتائج.

قاطعه المصري، قائلاً:

– وكيف علموا النتائج، والمعركة دارت في عالمنا، الذي يحاولون ولوجه؟!

أجابه (فراس) على الفور:

– رأس العملاق كان يحوى جهاز بث خاص، غير معروف في عالمنا، ولقد درسه طاقم من العلماء جيداً، ثم قرّروا أنه ينقل إشارة ما، عبر الثغرة بين العالمين، إلى العالم الآخر.

تبادل الرجال الثلاثة نظرة متوترة، ثم تساءل الكويتي:

– ثم ماذا؟!.. أكمل تحليلك.

قال (فراس):

– من الواضح أن النتائج قادتهم إلى تطوير أسلوبهم، مما دفعهم إلى إجراء اختبار جديد، وخاصة بعد أن ابتلعت ثغرتهم أحد علمائنا، الذي وصل إلى عالمهم حياً على الأرجح.

سأله السعودي، في اهتمام ملهوف:

– أتعنى أن كل من اختفى، في تلك البقعة، وصل إلى هناك سالماً؟!

هزّ (فراس) رأسه نفياً، قبل أن يجيب:

– لو أنهم وصلوا سالمين، لما أرسل ذلك العالم الآخر آلياً، في المرة التالية، وهذا تحليل العلماء، وليس رأياً شخصياً.

سأله المصري في أسف:

– إذن فهم يرون أن الآخرون قد لقوا حتفهم، أما زميلهم مهندس الإليكترونيات، فقد وصل سالماً.

أشار (فراس) بيده، قائلاً:

– هذا أيضاً تحليل علمي منطقي، فهم يرون أن وصوله سالماً قد شجّع غزاة ذلك العالم الآخر على إرسال عينة حية هذه المرة.

ارتجف صوت السعودي، على الرغم منه، وهو يسأله:

– أتقصد ذلك التنين؟!

أومأ (فراس) برأسه إيجاباً مرة أخرى، قبل أن يقول:

– وأياً كانت ماهيته، فقد وصل إلى عالمنا سالماً، وقوياً أيضاً، وسبب خسائر هائلة، تفوق ما سببه ذلك العملاق، مما يوحي بأنهم لو أرسلوا سرباً منه، فستكون النتائج وخيمة للغاية.

مال المصري نحوه، متسائلاً في قلق:

– وكيف سيعرفون النتائج هذه المرة؟!

بدا صوت (فراس) عصبياً هذه المرة، وهو يجيب:

– لقد ثبتوا في جسده آلة تصوير، تستخدم نفس أسلوب البث غير المعروف.

اتسعت عيون ثلاثتهم في توتر شديد، وتبادلوا نظرة أخرى شديدة العصبية، قبل أن يغمغم الكويتي:

– إذن فهم يعرفون.

أجابه (فراس) متوتراً:

– بل يحاولون أن يعرفوا، وهذا ما أثار انتباه العلماء، إذ أنهم ليسوا مرتبطين بتلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، فتلك تزور عالمنا منذ سنوات طوال، والمفترض، وفقاً لمشاهداتها المختلفة، أنها تدرسنا منذ زمن، يتيح لها معرفتنا جيداً، وبدقة كبيرة، مما يتعارض مع ما يحاوله القادمون من تلك الثغرة.

صمت القادة الثلاثة لحظات، ثم تمتم أحدهم:

– تفسير منطقي.

أضاف الآخر، في قلق عصبي:

– ولكنه يعني أننا نواجه نوعين مختلفين من الغرباء، في آن واحد.

أجابه (فراس) في سرعة:

– هذا ما يؤكده العلماء.

قال الكويتي في توتر:

– وكلاهما يفوقنا قوة.

أجاب المصري:

– ليس قوة فحسب، بل معرفة أيضاً.

تمت (فراس) بصوت عصبي:

– للأسف.

تراجع السعودي في مقعده، وداعب ذقنه في عصبية، وهو يقول:

– هذا يعني أنهم يتفوقون علينا بكثير، فلديهم المعلومات، التي نفتقر إليها عنهم.

قال (فراس)، وعصبيته تتزايد:

– وما سيحصلون عليه، أو حصلوا عليه من معلومات، سيجعلهم يدركون كم كبدنا تنينهم المتفرد من خسائر، وسيشجعهم هذا على تطوير الأمر، مع الانتقاله التالية.

بدا الجنرالات الثلاثة شديدي التوتر، وهم يتهامسون بكلمات، لم ينجح (فراس) في التقاطها، قبل أن يقول السعودي في حزم:

– ولماذا لا نحاول الحصول على معلومات عنهم، مثلما فعلوا؟!

سأله (فراس)، في حذر مندهش:

– وكيف هذا؟!

أجابه الكويتي في سرعة:

– آلة التصوير التي أرسلوها لدينا، ويمكننا انتظار العاصفة التالية، لإرسال متطوّع بها إلى عالمهم، و..

قاطعه (فراس) مع انفعاله، دون أن ينتبه إلى قواعد التسلسل القيادي العسكري، من شدة توتره:

– هذا لا يصلح.

تراجع الكويتي غاضباً، في حين تساءل المصري في صرامة:

– أهذا رأى شخصي؟!

أجابه (فراس) في توتر:

– بل رأى علمي، فقبل أن نرسل متطوّعاً مع آلة التصوير، لابد وأن تكون لدينا وسيلة لاستقبال بثها، من عالم آخر أوّلاً.

تبادل الرجال نظرة عصبية، توحي بتوترهم؛ لأنهم لم ينتبهوا إلى هذا، فتابع (فراس):

– ولكن العلماء يواصلون دراسة الأمر، ويراجعون كل النتائج، كما يقوم فريق منهم بفحص جينات ذلك التنين، محاولين تحديد تركيبته الجينية.

تساءل السعودي، في شيء من الحذر:

– وبم يمكن أن يفيد هذا؟!

أجابه (فراس):

– إنهم يحاولون معرفة ما إذا كان ذلك التنين كائناً طبيعياً، في العالم الذي

أتى منه، أم أنه نتاج تخليق ودمج صناعيين.

غمغم السعودي في توتر:

– ما زال سؤالي قائماً.

قال (فراس) في اهتمام:

– هذا سيمنحهم قوة عن مدى تطور ذلك العالم، ومعرفته بعالمنا، وتاريخه وأساطيره، فالتنين كائن أسطوري، في معظم حضارات الأرض القديمة، والشرقية منها بالتحديد، ولو أن ذلك التنين مخلّق صناعياً، فهذا يعني أن سكان ذلك العالم الآخر على دراية تامة بتاريخنا ومخاوفنا، كما أنهم على درجة عالية من التقدُّم، بحيث تجاوزوا المعضلة الرئيسية في هندسة الجينات، وهي عدم القدرة على دمج جينات فصائل مختلفة ببعضها البعض، وهذا يعني بالتالي أننا نواجه عدواً يسيطر على أخطر أسلحة المستقبل... الجينات.

مرة أخرى، تبادل القادة الثلاثة نظرة صامتة، ثم تساءل أحدهم بصوت مبحوح، من فرط الانفعال:

– ومتى يمكن للعلماء حسم هذا الأمر؟!

شدّ (فراس) قامته مرة أخرى، مجيباً بلهجة عسكرية حاسمة:

– خلال ساعة واحدة على الأكثر.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها جوابه، كان كبير العلماء يشارك في الفحص الجيني لذلك التنين، وهو يغمغم:

– لم أتصوّر يوماً أن أرى شيئاً كهذا رأى العين؟!

غمغم أحد العلماء:

– لم يتصوّر أحدنا هذا قط.

أضاف عالم آخر:

– على الأقل ليس من عالم آخر؛ فطيلة عمري، وربما منذ طفولتي، كنت أعتقد أن التنين كان حقيقة ذات يوم، ثم انقرض لسبب ما، كما انقرضت الديناصورات.

زمجر ثالث، قائلاً:

– التنين كائن أسطوري، لم يثبت وجوده علمياً قط، على عكس الديناصورات.

سأله الثاني في حزم:

– كيف تفسر انتشار فكرة وجوده، في حضارات مختلفة إذن، على الرغم من المسافات والأزمنة، التي تفصل بينها، وعلى الرغم من انعدام وسائل الاتصالات القوية، في أزمنتها؟!

قال كبير العلماء في قلق:

– ربما كانت هناك محاولات عبور سابقة، نقلت بعض تلك التنانين إلى هنا؟!

تطلّع إليه الثلاثة في صمت، يحمل نظرة قلقة متوترة، ثم عادوا يواصلون عملهم، والثالث يقول في عصبية:

– إنه مجرّد أسطورة.

لم يحاول أحدهم مناقشته هذه المرة، في حين دخل عالم آخر؛ ليقول لكبير العلماء في اهتمام:

– لقد توصلنا إلى شيء ما، بخصوص آلة البث.

أجابه كبير العلماء في اهتمام شديد:

– سألحق بك.

انصرف الرجل على الفور، والتفت كبير العلماء إلى الفريق الجيني، قائلاً في اهتمام شديد:

– أريد النتائج، في أسرع وقت ممكن.. أمور كثيرة ستتوقّف عليها.

أجابه العالم الأوّل في حسم:

– إننا نبذل قصارى جهدنا.

تمتم كبير العلماء، وهو ينصرف:

– ربما يكفي هذا.

تركهم، وانتقل على الفور إلى قسم الإليكترونيات، وسأل طاقم علمائه فور دخوله إلى المكان:

– هل عرفتم كيف تعمل؟!

أجابه رئيس الطاقم:

– هذا بعيد للغاية، ولكننا كشفنا أمراً هاماً.

سأله في اهتمام:

- وما هو؟!

أجابه على الفور:

- بعض مكونات الآلة، مجرّد تطوير لمنتجات معروفة في عالمنا، وبعضها، مثل الأسلاك الدقيقة مثلاً، يحمل كلمات تشير إلى بلد المنشأ.

سأله كبير العلماء، في شيء من الحذر:

- كلمات بلغة ذلك العالم؟!

هزّ رئيس الطاقم رأسه نفياً، وأجاب في بطء، يوحي بخطورة ما ينطق به:

- بل بلغة أرضية تماماً.

بدا كبير العلماء مشدوهاً، وهو يهتف:

- لغة أرضية؟!

أومأ رئيس الطاقم برأسه إيجاباً، وقال:

- نعم.. ولغة ألمانية بالتحديد، ولكنها تصف (ألمانيا) على نحو لم يعرفه تاريخنا كله قط

سأله في حذر شديد:

- تصفها بماذا؟!

أشار بيده، مجيباً:

- تصفها بدولة (ألمانيا) العظمى.

انعقد حاجبا كبير العلماء في شدة، محاولاً استيعاب العبارة، ولكن رئيس

الطاقم لم يمنحه فرصة للتفكير، وهو يضيف:

- المشكلة الأخرى تكمن في تاريخ الصنع، الذي تم حفره بأشعة ليزر بالغة الدقة، على امتداد السلك الدقيق.

واعتدل، مكملاً:

- تاريخ عام ثلاثة وستين.

سأله كبير العلماء، وقد بلغ حذره منتهاه:

- ألف وتسعمائة؟!

هزّ الرجل رأسه نفياً، وأجاب:

- بل.. ثلاثة وستين من السنة النازية.

وهنا، اتسعت عينا كبير العلماء، وهو يرتد كالمصدوم..

فهذا يزيد الأمر تعقيداً..

إلى أقصى حد..

"نتيجة مدهشة!!.."..

غمغم الفوهلر بالعبارة، وهو يجلس على عرشه الذهبي الكبير، في ذلك العالم الموازي، بعد أن تابع ما بثته آلة التصوير، التي تم زرعها في جسد التنين، قبل إرساله إلى عالمنا الأرضي، ثم أعاد العرض للمرة الثالثة، وراقبه بمنتهى الاهتمام، وكأنما يراه لأوّل مرة، ثم تراجع في عرشه، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه المتغضن، وهو يحسب الأمر في اهتمام وشبق كبيرين..

منذ أكثر من نصف القرن، وهو يسيطر على العالم كله دون منافس..

الكل يخضع له..

ويخافه..

ويهابه..

ويخشاه..

ولقد سئم هذا..

سئم أن يكون منتصراً مسيطراً طوال الوقت، دون تحد واحد..

إنه يعشق القتال..

والنزال..

والحروب..

لذا، فقد ظل يبحث عن تحد جديد..

وعدو جديد..

في البداية اعتقل كل من عارضوه، وتحدوه، وأعدم كل من رفض احتلاله لبلاده، بلا شفقة أو رحمة..

ودون مبرر، خاض عدة حروب صغيرة..

وفي عالم غاب منه العلم، كان من السهل أن ينتصر..

وينتصر..

وينتصر..

وباستثناء بؤر مقاومة محدودة، لم يعد هناك من يجرؤ على معارضته، أو يفكر حتى في التصدي له..

ولم يرق له هذا قط.

وشعر أنه حياته قد انتهت..

حتى كشف علماء مدينته الخاصة، ذلك العالم الموازي، عبر مصادفة علمية بحتة..

هنا، استيقظت روح الصراع في أعماقه مرة أخرى..

وقرر خوض حرب جديدة..

لقد سيطر على عالمه تماماً، فلما لا يسعى للسيطرة على العالم الآخر أيضاً..

أعادت إليه الفكرة كل نشاطه، وبثت الحياة والحيوية مرة أخرى في عروقه..

وبدأ التخطيط للغزو..

سنوات خمس، جند خلالها أفضل عقول العالم؛ للبحث عن وسيلة العبور، إلى ذلك العالم الآخر..

وها هي ذي النتائج توحي باقتراب لحظة الصفر..

لقد نجحت الاختبارات الأخيرة، التي أكدت إمكانية نقل الأحياء، عبر تلك الثغرة بين العالمين..

وخاصة بعد سقوط أحد أفراد العالم الآخر في عالمه..

حياً..

عشرات سقطوا قبلها مع معداتهم، ولكن قوة السحب كانت هائلة، حتى أن أجسادهم، وحتى معداتهم لم تحتمل الأمر..

كلها تهشّمت بعنف..

المعدات..

والناس..

ولكن، ولسبب ما، يدرسه العلماء منذ فترة، نجح واحد في العبور..

واكتسب قوة رهيبة..

قوة تفوق أي شخص عادي، في عالم النازية..

وفور كشفهم قوته، عبر المشاهدات والملاحظات، بدأ العلماء في طرح سؤال بالغ الأهمية..

أهذه سمة اكتسبها، مع الانتقال بين العالمين، أم أن كل سكان عالمه بهذه القوة؟!..

وعلى الرغم من المشاهدات غير الواضحة، التي نقلتها تلك الأجهزة الخاصة جداً، عبر إشارات فائقة بين العالمين، والتي تشير إلى أن ذلك القادم هو حالة خاصة، إلا أن العلماء ما زالوا يحتاجون إلى فحصه مباشرة، قبل الجزم بهذا..

وقبل اتخاذ القرار الحازم..

قرار العبور..

والغزو..

انعقد حاجباه في شدة، عندما بلغ هذه المرحلة من تفكيره، ولمس فرصاً في مسند عرشه، فظهرت على الشاشة الصغيرة صورة رقم واحد، ليسأله في صرامة:

- متى سيحضرون ذلك الرجل؟!

اعتدل رقم واحد، في وقفة عسكرية قوية، وهو يجيب:

- إنهم في طريقهم إليه، وسيصلون بين لحظة وأخرى أيها الزعيم.

التقى حاجبا (هتلر) في صرامة، وهو يزمجر، قائلاً:

- قول غير دقيق.

ألقى رقم واحد نظرة سريعة، على ساعة رقمية كبيرة أمامه، وأجاب في توتر:

- سيصلون بعد دقيقتين، وسبع عشرة ثانية.

مطّ (هتلر) شفتيه، مغمغماً:

- هذا أفضل.

نطقها، وضاقت عيناه بشدة، وهو يتطلّع إلى وجه رقم واحد على الشاشة الرقمية الصغيرة..

فبعد عمر طويل، ينبغي أن يخلفه رقم واحد..

وسيعتبر هذا امتداداً طبيعياً لحكمه..

هذا لأن رقم واحد هو – فعلياً – جزء منه..

جزء طبق الأصل..

"إنه نسخة مطابقة.."..

نطقها (عزت) في دهشة متوترة وهو يحدّق في وجه الفارس، بعد أن نزع عنه خوذته الإليكترونية، فتمتم (كوناد) ذاهلاً، في خفوت:

– إنه هو.. الفوهلر نفسه، ولكنه أصغر سناً بكثير، وكأنما جاء عبر الزمن، من بدايات الحرب.

قال (أوجار)، وهو يلوّح بسيفه، في عصبية متحفزة:

– (فوهار).. (فوهار).

ردّد الجميع الكلمة خلفه، في غضب واضح، وندت منهم حركة، توحي بأنهم سينقضون على الفارس، فرفع (عزت) عينيه، هاتفاً:

– كلا.. إنه مجرّد نسخة منه.

عقد (كوناد) حاجبيه في توتر، قائلاً:

– البشر ليسوا أوراقاً، يمكن استنساخها.

أجابه (عزت) في صرامة:

– ربما في آخر عهدك بالعلم والتكنولوجيا، ولكن في عالمي، صار هذا أمراً ممكناً، يطلقون عليه اسم: (الاستنساخ).. إنها تكنولوجيا شديدة التعقيد، ولكنها تنتج أجنة جديدة، مماثلة تماماً للأب الأصلي.

كان (أوجار) يتحدّث في حماس إلى الجمع الغاضب المتوتر، و(مارا) تبدو خائفة قلقة، في حين انشغل (كوناد) تماماً بحديث (عزت)، وهو يسأله:

– هل يستنسخون البشر في عالمك؟!

تردّد (عزت) لحظة، قبل أن يجيب:

– لقد صار هذا ممكناً، علمياً وطبياً وعملياً، ولكن معظم دول العالم تمنع تنفيذه بالنسبة للبشر، وبقوانين صارمة للغاية، والدول التي لم تصدر فيها مثل هذه القوانين، لم تبلغ علومها أو إمكانياتها القدر الكافي؛ لتنفيذ عملية استنساخ ناجحة..

أشار (كوناد) إلى الفارس الفاقد الوعي في توتر، مغمغماً:

– وماذا عن هذا؟!

التفت (عزت)، يلقي نظرة أخرى على الفارس، قبل أن يجيب، في لهجة لا تقل عنه توتراً:

– النموذج الأمثل لسوء استغلال العلم.. لقد سيطرت النرجسية على ذلك النازي، فاستنسخ نفسه، لعل هذا يصبح امتداداً وهمياً لعمره.. أو ليضمن ولاء من يتبعه.

سأله (كوناد) في توتر شديد:

– أتعني أن هناك المزيد منه؟!

أومأ برأسه، مجيباً:

- هذا مؤكَّد.. بل ربما كان لديه جيش كامل من النسخ المماثلة له.. جيش يدين له بالولاء التام؛ لأنه نسخة طبق الأصل منه.

انعقد حاجبا (كوناد) الكثين، وهو يغمغم في عصبية:

- إنها كارثة!.. تصوَّر جيشاً يحمل نفس أفكاره العنصرية القاتمة، ومنطقه المختل، وعقليته الوحشية.

هزَّ (عزت) رأسه نفياً، وقال:

- ليس بالضرورة.

هتف (كوناد) معترضاً:

- ولكنك قلت: إنهم سيكونون نسخة طبق الأصل منه.

أشار (عزت) بسبَّابته، قائلاً:

- في الشكل الخارجي فحسب، ولكن هذا لا يتضمن الأفكار والعقائد والمبادئ والانفعالات، فكلها ليست وليدة الجينات الوراثية، بقدر ما هي وليدة البيئة المحيطة، والخبرات المكتسبة، وطاقة كل فرد على التفاعل مع البيئة، على نحو مختلف.. بمعنى أدق، لو أن توأمين متماثلين، عاشا في بيئة واحدة، وتحت ظروف واحدة، لا يمكنك أن تضمن أن ينمو كل منهما كنسخة طبق الأصل من الآخر، إذ تتدخل حتى أبسط الخبرات، لتغيير مسار كل منهما عن الآخر، عبر سلسلة من التفاعلات البسيطة المختلفة، و...

قبل أن يتم عبارته، فوجئ بجسد (أوجار) الضخم، يحول بينه وبين

جسد (كوناد) العجوز الضئيل، وهو يشهر سيفه في وجهه، ويتحدَّث في غضب، مشيراً إلى الفارس فاقد الوعي..

ومع كلماته الغاضبة، استوعب عقل (عزت) كلمة واحدة..

(فوهلر)..

إنه كالآخرين، يظن أن ذلك الفاقد الوعي هو الفوهلر شخصياً، الذي سامهم، وسام آباءهم وذويهم العذاب، منذ ما يزيد عن نصف القرن..

وها هو ذا يرقد أمامهم فاقد الوعي..

ولابد من الانتقام..

فوراً..

والعجيب أن (كوناد)، على الرغم من النظرة المتوترة في عينيه، لم يحاول التدخُّل، و(عزت) يقول في توتر شديد:

- لا.. إنه ليس هو.. إنه مجرَّد نسخة منه.

كان يتوقَّع من الجميع طاعته، ما داموا يعتبرونه منقذهم، وقد توقفوا جميعاً متوترين بالفعل، فما عدا (أوجار)، الذي أزاحه بيسراه في قوة، ثم رفع سيفه في غضب، ولكن (عزت) اندفع مرة أخرى، يحول بينه وبين الفارس، وهاتفاً:

- صدقوني.. ليس هو.

استدار إليه (أوجار) في ثورة، ورفع سيفه؛ ليهوى به عليه..

ومع رعبه الهائل، تجمَّد (عزت) في مكانه، ونسى حتى أنه يمتلك في هذا العالم قوة كافية، لمنع (أوجار) من إصابته، و..

وفجأة، صرخت (مارا)، وهي تندفع وحده:

– نَاين..

الكلمة كانت تعنى (كلا) بالألمانية، ولقد صرخت بها، قبل أن تلقي نفسها بين ذراعي (عزت)، وتلتفت إلى أخيها، صارخة بكلمات عصبية مرتجفة..

وعلى الرغم من الغضب الشديد، المطلّ من وجه (أوجار) وعينيه، فقد تجمَّد سيفه في الهواء، وبدا شديد العصبية والتوتر، في حين واصلت (مارا) صراخها، الذي بدا أقرب إلى البكاء، واقترب الشيخ، مغمغماً:

– يا إلهي!.. كم تحبك هذه الفتاة.

التفت إليه (عزت) مبهوتاً، فأضاف بابتسامة مشفقة:

– إنها تصرخ في أخيها، أن عليه أن يقتلها أولاً، قبل أن يمس شعرة واحدة منك.

خفق قلب (عزت) بشدة، على الرغم من دقة الموقف، ورفع يده في بطء، يضم جسد (مارا) الضئيل إليه في حنان، فالتصقت به، وصراخها يتحوَّل إلى بكاء حار، جعل دموعها الملتهبة تتساقط على صدره، فضمها إليه أكثر، وكأنه يحميها، في موقف يحتاج هو فيه كل الحماية الممكنة..

وأمام هذا المشهد، الذي لم يألفوه قط، وقف الكل جامدين..

حتى الشيخ نفسه..

أما (أوجار)، فظلت يده مرفوعة بسيفه، وكأنه لم يحسم أمر نفسه بعد..

هل يهوى بسيفه..

أم يتراجع..

وفي عصبية وتوتر، نقل بصره بين وجهي الفارس و(عزت)، فالتفت هذا الأخير إلى الشيخ، قائلاً:

– أخبره أن هذا ليس النشود.. ببساطة، لأنه أصغر سناً بكثير.

تردَّد (كوناد) لحظة، فاستطرد صارخاً:

– أخبره.

استخدم (كوناد) لغتهم، ليشرح الموقف لـ(أوجار)، الذي لم يبد مقتنعاً بما يسمعه، وهو يتطلَّع إلى الفارس في شك، فقال (عزت)، وهو يضم (مارا) في قوة:

– أخبره أننا لو نزعنا قناعي الآخرين، فستجدهما نسخة طبق الأصل من هذا.

ترجم (كوناد) العبارة، فازداد توتر (أوجار)، ولكنه بدأ يخفض سيفه في بطء، يوحي ببدء اقتناعه، و...

وفجأة، اندفع أحد الرجال إليهم، صارخاً:

– (نازو).. (نازو).

ولم يكن (عزت) بحاجة إلى فهم لغتهم هذه المرة..

فالصرخة كانت واضحة..

هناك هجوم ينقض عليهم..

هجوم نازي..

حديث.

* * *

الفصل الرابع عشر

على الرغم من أنهم يجتمعون مرة يومياً على الأقل، منذ بدأت هذه الأحداث، بدا فريق العلماء، شديد التوتر، وأفراده يلتفون حول مائدة الاجتماعات الكبيرة، وراح الكل يتحدَّث، في ثوت واحد تقريباً، حتى أن الضجيج عمَّ القاعة، حتى صاح مدير المركز في صرامة:

- صمتاً أيها السادة.

توقَّف الكل عن الحديث دفعة واحدة، فهبط صمت مفاجئ على القاعة، والكل يلتفت إلى مدير المركز، الذي قال، وهو يراجع تقريراً أمامه:

- النتائج التي توصَّلتم إليها حتى الآن، تثير مزيداً من الحيرة والارتباك، دون أن تنجح في كشف لغز ما نواجهه.

غمغم كبير العلماء:

- هذا صحيح.

تابع مدير المركز، دون أن يستوقفه هذا التعليق:

- كنا في البداية نتصوَّر أننا نواجه غزواً من عالم آخر، ولكن كلما توغَّلنا في

البحث، بدا لنا أننا نواجه شيئاً ينبع من عالمنا، وليس من عالم آخر، فالمواد المستخدمة، في صنع ذلك العملاق الآلي، الذي هاجم قواتنا، والآخر الذي عثرنا على هيكله، في صحراء الربع الخالي، هي مواد أرضية تماماً، بل وقد أثبت الفحص المجهري لبعض خاماتها، أنها تحمل علامات تجارية ألمانية قديمة، وعبارات بلغة ألمانية واضحة، مع تواريخ تثير ألف سؤال وسؤال.

تبادل فريق العلماء نظرة متوترة صامتة، فتابع الرجل في توتر:

– ولكن ما نواجهه متطوِّر للغاية في الوقت ذاته، وأسلوب دخوله إلى عالمنا يجعل قدومه من عالم آخر، أم أكثر منطقية.

رفع أحد العلماء سبّابته، قائلاً:

– إلا إذا..

التفت إليه الجميع في اهتمام، وسأله مدير المركز في لهفة:

– إلا إذا ماذا؟!

ارتبك العالم، وعجز عن الجواب لحظات، فانبرى كبير العلماء يقول:

– زميلنا لديه نظرية أخرى، تتفق مع قدوم ما يواجهنا من جهة أرضية، وليس من عالم آخر.

قال مدير المركز، في شغف شديد:

– دعنا نسمع نظريتك هذه إذن.

تنحنح العالم في توتر، قبل أن يقول:

– في رأيي أن ما نواجهه ليس ثغرة بين الأبعاد، وإنما ثغرة بين الزمان والمكان فحسب.

اعتدل الكل، يستمعون إليه في انتباه، مما زاده ارتباكاً، وهو يستطرد:

– منذ أكثر من نصف القرن، يحلم العلماء، في كل أنحاء الأرض، بابتكار ما يسمى بوسائل الانتقال الآني.. أي ينتقل الإنسان، من مكان إلى آخر، في لحظة واحدة، بغض النظر عن فارق المسافة أو الزمن، بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، ولقد أجريت عشرات التجارب في هذا الشأن، طوال أكثر من ربع القرن، ولكنها باءت كلها بالفشل، مع نتائج محدودة للغاية.. ولقد راجعت التواريخ، التي تمت طباعتها بحروف مجهرية، على بعض الأسلاك والقطع الرقمية، في ذلك العملاق، وفي آلة البث، التي عثرنا عليها مغروسة في التنين الأسطوري، الذي تفحصه الآن، فتوصّلت إلى نتيجة مخيفة.

تمتم مدير المركز:

– أكثر من هذا؟!

أومأ العالم برأسه في عصبية، وأكمل:

– التواريخ كلها تتفق مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

اندفع عالم آخر، يقول في صرامة:

– مستحيل!.. (ألمانيا) تحطمت تماماً تقريباً، في تلك الفترة، ولم يكن من الممكن، بل وربما من المستحيل، أن تنتج شيئاً بنصف هذه الدقة.

أشار العالم بسبّابته، قائلاً:

– وهذا ما بنيت عليه نظريتي بالضبط. لقد تصوّرت أن فريقاً من المؤمنين بالنازية، نجح في الفرار من (ألمانيا)، قبيل احتلالها مباشرة، وأقام مجتمعاً سرياً خاصاً، تطوّر دون أن يشعر به أحد، حتى توصّل إلى كشف سر الانتقال الآني، وها هو ذا الآن يحاول أن..

قاطعه عالم كهل، في استنكار غاضب:

– نظرية سخيفة للغاية.

ارتبك العالم الأوّل في شدة، والتفت الكل إلى الكهل، الذي تابع في صرامة:

– الفريق الذي تتحدّث عنه، قد يصبح بؤرة مقاومة، أو حتى جماعة إرهابية، ولكن التقنية والتطوّر أمر آخر.. إنهما يحتاجان إلى علماء، وخبراء، وأياد عاملة، وأموال بلا حصر، وحتى لو افترضنا أنهم امتلكوا كل هذا، فكيف سيطبعون هويتهم على منتجاتهم، ويقف العالم كله منهم موقف الجاهل، أو المتجاهل لنموهم وخطورتهم.

ثم هزّ رأسه مع يده في شدة، مستطرداً:

– لا.. لا.. هذه النظرية أسخف ما سمعت في حياتي.

احتقن وجه العالم صاحب النظرية، وقال في عصبية:

– ما نظريتك أنت إذن؟!

أشار العالم بيده، قائلاً في صرامة:

– نفس النظرية الأولى.. نظرية وجود ثغرة بين عالمين موازيين، يحتلان

المساحة نفسها من المكان والزمان، ولكن بترددين مختلفين، بحيث لم يشعر أحدهما بوجود الآخر إلا مؤخراً.

قال أحد العلماء:

– ولكن ماذا عن اللغة الألمانية، والتاريخ النازي، و...

قاطعه العالم الكهل في صرامة مستنكرة:

– ألم تستوعبوا كل هذا بعد؟!

ثم أدار عينيه في وجوههم، مستطرداً:

– إننا نواجه عالماً موازياً، اختل توازن التاريخ فيه، مع تطور الأحداث التاريخية لدينا.. عالم هو ظل لعالمنا، أو أننا ظل له..

تمتم أحدهم مبهوتاً:

– أتعني أننا نواجه...

قبل أن يتم سؤاله، قال العالم الكهل، في صرامة شديدة:

– نعم.. نواجه ظلاً.. ظل الأرض.

لم يتصوّر وهو ينطقها، كم كانت عبارته صادقة صحيحة..

وكم كانت نظريته دقيقة..

بل لم يتصوّر أنه في نفس اللحظة، التي نطقها فيها، كان زميلهم (عزت) هناك، في ذلك العالم الموازي، يواجه مع (كوناد) ورجاله هجوماً رهيباً..

هجوم لا يمكن أن تشهد أرضنا مثيلاً له..

أبداً..

كانت هناك فرقتان مسلحتان، من أقوى الفرق النازية، والمستنسخة من أفضل الجينات الوراثية الألمانية، تحاصران تلك المنطقة، التي اجتمع فيها (عزت) و(كوناد) و(أوجار) و(مارا) والباقون..

ومن الجانبين، تقدّم عملاقان آليان مسلحان، بنية القضاء على الجميع..

فيما عدا واحد..

فالأوامر التي تلقاها الكل، والتي تمت برمجة الآليين عليها، كانت تحتم إحضار ذلك القادم من العالم الآخر، إلى مقر الزعامة... حياً..

وفي انزعاج شديد، قال (كوناد):

– لقد حاصرونا تماماً.

انعقد حاجبا (أوجار)، ورفع سيفه في تحفُّز، وأشار إلى الرجال، فتحفزُّوا بسيوفهم بدورهم، وبدت (مارا) شديدة الذعر، وهي تلتصق بجسد (عزت)، وكأنما تنشد لديه الحماية، فضمّها إليه في رفق، وتطلّع في توتر إلى الفرسان الدرعين، فاقدي الوعي، ثم هتف بالحكيم (كوناد):

– السيوف لن تستوقفهم لحظة واحدة.. سيقتلون الجميع، قبل أن يبلغهم مقاتل واحد.

انتفض (كوناد) في انفعال، وهو يقول:

– لن تكون دماؤنا رخيصة.

أجابه (عزت) في صرامة:

– ليس من الضروري أن تراق الدماء، بثمن أو بلا ثمن.

قال (كوناد) في حدة:

– أنت قلتها.. السيوف لن توقفهم لحظة واحدة.

أجاب (عزت):

– بالتأكيد.. لو اعتمدنا على القوة، فسيربحون حتماً.

سأله (كوناد) في توتر:

– علام سنعتمد إذن؟!

أشار (عزت) إلى رأسه، مجيباً:

– على هذا.

تراجع (كوناد) في دهشة متوترة، فاستطرد (عزت)، وهو لا يقل عنه توتراً:

– لدي خطة.

"إننا نرصدهم في وضوح.."..

قالها قائد الحصار النازي، وهو يراجع صورة حرارية، على شاشة جهاز خاص، قبل أن يستطرد في حرارة:

– من الواضح أنهم أحاطوا أجسادهم بعباءات مبللة بالماء البارد، فلم ترصدهم أجهزة الفرسان في وضوح، كما بينت الإشارات، التي تلقيناها في القيادة

أوّلاً، ولكن العباءات جفت الآن، وأصبح من السهل رصد حرارة أجسادهم.

سأله أحد الرجال في حزم:

– هل نبدأ الهجوم؟!

أجابه بمنتهى الصرامة:

– فلنترك العملاقين يؤديان مهمتهما أوّلاً.

سأله الرجل:

– وهل نهاجم بعدهما؟!

هزّ القائد رأسه نفياً:

– كلا.. سنكتفي بالحصار، حتى يصبح تدخلنا حتمياً.

تردّد الرجل، وهو يقول:

– وماذا لو..

أجابه القائد في صرامة، قبل حتى أن يكمل تساؤله:

– العملاقان سيتوليان القسم الأكبر من الأمور، وبعدها..

انتبه الرجل في شدة، فتألّقت عينا القائد، وهو يكمل في شبق:

– سنطلق (وارما).

وسرت قشعريرة باردة، في جسد الرجل..

قشعريرة توحي بأن (وارما) هذه سلاح مرعب.

للغاية..

وهناك، حيث ما زال الفرسان المدرعون الثلاثة راقدون، وقد فقدوا وعيهم، ظهر العملاقان الآليان، من الأمام والخلف، يتحركان في بطء كعادتهما، وهما يحملان سلاحيهما، وتوقفا لحظة، وكلاهما يرصد الأطلال من حوله، مستخدماً عدة أنواع متداخلة من الرصد، في آن واحد..

الرصد الضوئي الرقمي، القادر على التقاط أدق الصور..

والرصد الحراري الفائق..

والرصد بالأشعة السينية..

وفي حركة سريعة، مال العملاق الأمامي، وأطلق أشعة سلاحه نحو جدار شبه متهدّم، فنسفه نسفاً، ليكشف اثنين من رجال (أوجار)، يختفيان خلفه..

ولقد جمد الرجلان في مكانيهما، واتسعت عيونهما في رعب، وهما يتطلّعان إلى سلاح العملاق، القادر على تبخيرهما بلا رحمة، في لحظة واحدة، وصوّب العملاق سلاحه نحوهما بالفعل، و...

وفجأة، وثب (عزت) من مبنى قريب محترق، فوق ظهر الآلي مباشرة، وهو يصرخ بكل قوته:

– الآن.

مع صرخته، تحرّك (أوجار) في سرعة، وجذب سير المولّد الكهربي بكل قوته، في حين ألقى رجاله تلك الشبكة المعدنية، التي تم إيصالها بالمولّد مباشرة،

فوق رأس العملاق الخلفي..

وفى نفس اللحظة، التي تلقّى فيها العملاق الخلفي صدمة كهربائية مباغتة، كان العملاق الأمامي يدير يده في سرعة، ليقبض على (عزت)، المتعلّق بعنقه..

ولكن (عزت) لم يكن قد انتقى تلك البقعة عبثاً..

لقد تذكّر مشاهداته الأولى، وقفز فوق منطقة مدخل المعلومات، في مؤخرة عنق العملاق مباشرة..

وبوساطة خنجر قوى، استعاره من (أوجار)، حطّم غطاء مدخل المعلومات، في نفس اللحظة التي بلغته فيها يد العملاق بالفعل..

وبينما كان العملاق الخلفي يترنّح بشدة، بعد أن أتلفت الصدمة الكهربية بعض دوائره الرقمية، ويهوى أرضاً في عنف، رفع (عزت) يده بحركة آلية؛ ليمنع يد العملاق الضخمة من بلوغه، محاولاً تدمير مدخل المعلومات، في مؤخرة عنق العملاق.

ولكن يد العملاق كانت تتحرّك في سرعة.

ويد (عزت) تتحرّك على نحو غريزي..

ولدهشته، وأمام عيون الجميع الذاهلة، صدّت يده الصغيرة، يد العملاق الآلية الهائلة، ومنعتها من بلوغه..

وبدلاً من أن يصرخ الرجال مهللين؛ لسقوط عملاق آلي ضخم أمامهم، للمرة

الأولى في تاريخهم كله، وقفوا صامتين ذاهلين مبهورين، يحدّقون في ذلك المشهد الرهيب..

مشهد عزت، الذي يبلغ حجمه نصف حجم قبضة العملاق، وهو يوقف يد هذا الأخير في قوة، ثم يحاول بلوغ مدخل المعلومات بيده الأخرى، التي تحمل خنجر (أوجار)..

ولكن العملاق كان يمتلك برنامجاً قتالياً ودفاعياً رفيع المستوى بحق..

لذا، فعلى الرغم من أنه لم يواجه موقفاً كهذا، في تاريخ صنعه كله، إلا أنه اتخذ رد الفعل المناسب له، وهزّ رأسه وكتفيه في قوة وعنف، ليلقى (عزت) أرضاً، قبل أن ينجح في إتلاف ذاكرته، وإيقافه عن العمل..

ولقد جاءت هذه الهزة القوية مفاجئة بحق، حتى أن عزت قد فقد توازنه..

وهوى..

وفى ارتياع، صرخت (مارا):

- (أزت).

وانعقد حاجبا (أوجار) في توتر، وهو يشهر سيفه بلا هدف، في حين شهق (كوناد)، وهو يتراجع بحركة حادة..

ولكن ما حدث بعدها كان مذهلاً..

وبكل المقاييس..

لقد هوى جسد (عزت) لمتر أو يزيد..

ثم اعتدل فجأة في الهواء..

ووثب إلى أعلى..

وثب، كما لو أنه قد استند إلى شيء ما في الفراغ، واكتسب منه قوة دفع مدهشة.. وثبته نفسها كانت مذهلة..

لقد دفعته مترين إلى أعلى، حتى تجاوز رأس العملاق، الذي لم يجد في برامجه كلها موقفاً شبيهاً، أو حتى ممكناً، فتوقّف لحظة، لتدرس برامجه هذا الأمر الجديد..

وفي تلك اللحظة، هبط (عزت) على عنقه مرة ثانية، ثم دفع يده نحو مدخل المعلومات، في مؤخرة عنقه، و...

اخترقها..

كان غلافها الخارجي مصنوعاً من التيتانيوم القوي، وعلى الرغم من هذا، فقد اخترقته قبضته، كما لو أنه مصنوع من الزبد..

وبحركة سريعة، وربما أسرع من قدرة برامج العملاق الآلي على استيعاب الأمر، انتزعت يد (عزت) مجموعة من مكونات العملاق الآلي، وألقاها بكل قوته بعيداً..

وحتى بعيداً هذه، كانت مصطلحاً مدهشاً..

فلقد طارت المكونات لأكثر من كيلومتر كامل، حتى سقطت على مسافة

مترين فحسب، من فرق الحصار النازية..

وبكل ذهول الدنيا، حدّق القائد النازي في تلك المكونات، ثم نقل بصره إلى شاشة الرصد، التي تنقل كل ما تقع عليه عينا العملاق الآلي، ورآها مظلمة، بعد أن تلفت آليات العملاق، ثم صرخ في رجاله:

- هجوم.

كان المشهد نفسه على شاشة الزعيم الكبير، الذي انعقد حاجباه في شدة، أمام ما حدث، ولم تكد آلات البث، في مكينة الفرقة النازية، تنقل إليه صيحة قائدها، وأمره بالهجوم، حتى ضغط زر الاتصال، في مقبض عرشه، وصاح بمنتهى الصرامة والغضب والشدة:

- توقّفوا.

توقفت قوات الحصار النازية في توتر، وبدا قائدها شديد العصبية، وهو يقول:

- ولكن أيها الزعيم..

قاطعه الزعيم، في صرامة قاسية:

- ليس أنتم.

ثم تراجع في عرشه، مضيفاً في قسوة أكثر:

- (وارما).

وسرت ارتجافة في جسد قائد القوات، وهو يغمغم:

- كما تأمر أيها الزعيم العظيم.

انقطع الاتصال على الفور، فالتفت هو إلى رجاله، وقال بلهجة آمرة عصبية:

- أطلقوا (وارما).

نطقها، في نفس اللحظة التي هوى فيها العملاق الثاني كالحجر، بعد توقُّف آلاته، ليرتطم بالأرض في قوة، وثير من حوله عاصفة من التراب..

وقبل ارتطامه بالأرض بثوان قليلة، وثب عنه (عزت)، واستقر على قمة مبنى تهدم نصفه..

مبنى من طابق واحد..

ومع انبهارهم الشديد، لم يحرِّك أحداً إصبعاً، وهم يحدِّقون جميعاً في عاصفة التراب، التي أخفت المبنى لحظة، ثم راحت تنقشع..

وتنقشع..

وتنقشع..

ومن خلفها ظهر (عزت)، وهو يقف على قمة ذلك المبنى..

وتضاعف الانبهار ألف مرة..

فمنذ وصل إلى ذلك العالم، لم يبد أشبه بالمنقذ المنتظر، مثلما بدا في هذه اللحظة.. لقد بدا، على الرغم من جسده الضئيل قوياً..

شامخاً..

عظيماً..

ودون وعي منهم، سقط الجميع على ركبهم أمامه..

حتى (أوجار) نفسه..

فمنذ التقى به لأوَّل مرة، كان (أوجار) يشعر بالتحفُّز وعدم الارتياح تجاهه..

ربما لأنه يختلف..

أو لأنه يبدو هزيلاً، نحيلاً، ضعيفاً..

ولسبب ما، لم ينجح قط في الاقتناع بأنه المنقذ المنتظر..

الصورة التي رسمها خياله، منذ طفولته، لذلك المنقذ المنتظر، كانت تختلف..

تختلف تمام الاختلاف..

كانت صورة رجل قوي..

شديد..

مفتول العضلات..

ممشوق القوام..

نفس الصورة، التي قضى عمره كله، محاولاً التشبه بها..

ثم أتى شخص، هو صورة عكسية تماماً لكل ما تصوَّره..

وكان من الطبيعي أن يشعر تجاهه بالتوتر..

والرفض..

ولكن ما شاهده، في اللحظات الماضية، كان مذهلاً بحق..

وبكل المقاييس، التي صنعها ذهنه منذ طفولته..

ثم مشهد (عزت)، فوق المبنى بعدها..

وركوع الكل أمامه..

حتى (كوناد) نفسه..

كل هذا، نسف في لحظة واحدة، كل ما اختزنه عقل (أوجار) لسنوات وسنوات..

واقتنع..

اقتنع فجأة، بأن هذا هو المنقذ..

ومع الجميع، هتف من أعمق أعماقه:

– (سافور)... (سافور).

بدا (عزت) شديد التوتر، وهو يثب من فوق المبنى، قائلاً:

– لا تركعوا أمامي.

ثم لوّح بذراعيه، مضيفاً:

– ولا لأي أحد آخر.

غمغم (كوناد)، الانبهار لم يفارقه بعد:

– ولكنك منقذهم.

أجابه (عزت)، في حزم عصبي:

– الله سبحانه وتعالى وحده، هو منقذ الجميع، ولا ركوع إلا له سبحانه، عزّ وجلّ.

تطلّع إليه (كوناد) في دهشة بالغة، وهو يبحث في مفردات اللغة العربية، التي كان يتصوّر أنه يجيدها، عن معنى لهذه الكلمات، التي يسمعها لأوّل مرة، والتي لم يفهم منها سوى كلمة واحدة..

الله..

وبكل حيرته، غمغم:

– ما تقوله عسير عن الفهم.

أجابه (عزت)، وقد أنساه خشوعه توتر الموقف:

– بل هو يسير على الفطرة.. وربما كان سر التوتر الدائم، الذي تعيشون فيه، هو ابتعادكم عن هذا الجانب الروحاني، الذي تهدأ معه النفس، وتزداد ثقة وقوة، وقدرة على احتمال نوائب الزمن ومواجهتها.

تمتم (كوناد)، وقد بدا شديد الانبهار، وربما لأوّل مرة في عمره كله:

– يبدو أنك ستعلمنا الكثير.

اعتدل (عزت)، مغمغماً:

– أتعشّم هذا.

لم يكد ينتهي من غمغمته، حتى شعر الكل بارتجاجة مفاجئة تحت

أقدامهم.. ارتجاجة كادت تفقدهم توازنهم، فسحب (أوجار) سيفه، وهتف بالرجال، فشهروا سيوفهم في تحفز، وصنعوا من أجسادهم دائرة كاملة، لدرء خطر، يأتي من أي اتجاه..

وفي توتر، تطلّع إليهم (عزت)، وهو يغمغم:

- يا لشجاعتهم!..

كان يشعر بالإشفاق على تلك الشجاعة الفائقة، التي تفتقر إلى العقل والمنطق، والنظرة الواقعية للأمور..

فشجاعتهم هذه كانت تصلح للقتال، وربما للنصر، قبل ثلاثة قرون من الزمن..

ولكنها اليوم، تبدو أشبه بمشهد هزلي..

كومة من الفرسان القدامى، يواجهون بسيوفهم مقاتلين مسلحين، بأحدث أسلحة العصر وأقواها..

نتيجة محسومة ولا شك..

سيلقون حتفهم حتماً، قبل أن يضرب بسيفه ضربة واحدة..

وهو لن يسمح بهذا..

لن يسمح به أبداً..

وبكل حزمه، هتف بهم:

- انتشروا بين الأطلال.

لم يفهم أحدهم عبارته، ولكنه لوّح بيديه مرة أخرى، صائحاً:

- انتشروا.

استوعب (أوجار) المعنى، فنقله إلى الرجال، الذين أسرعوا ينفذون الأمر دون مناقشة؛ لثقتهم في أن المنقذ يعرف كل شيء..

وفي توتر، غمغم (كوناد):

- النصر لن يأتي بالاختباء.

أجابه (عزت) في صرامة:

- وكذلك القتال.

قال في عصبية:

- وماذا علينا أن نفعل إذن؟!.. نستسلم؟!

أجاب في حزم:

- بل نفكر.. تلك الآلات العملاقة تحوي ما ينقل الصورة إلى سادتها حتماً، وهذا يعني أنهم سيدركون ويرون ما حدث، وسيرسلون المزيد من وسائلهم القتالية.

قال (كوناد):

- ليس أمامنا إذن سوى القتال.

أجاب (عزت) في سرعة:

- بالضبط.

ثم أشار بسبابته، مستطرداً:

- السؤال هو: كيف؟!.. كيف نقاتل؟!

قال (كوناد) في حذر:

- هناك سبيل واحد للقتال.

قال (عزت) في قوة:

- خطأ..

ثم مال نحو الشيخ، مضيفاً:

- هذا أوّل ما ينبغي أن تتعلموه.. القتال كلمة، لها معان وصور لا حصر لها، والمهم دوماً هو أن تختار الوسيلة المناسبة.. وفي الوقت المناسب تماماً، و...

قبل أن يتم عبارته، ارتجت الأرض مرة أخرى..

وبمنتهى العنف..

وفي هذه المرة، لم يستطع مخلوق واحد منهم حفظ توازنه..

وسقطوا جميعاً أرضاً..

وبكل توتر وهلع الدنيا، صرخت (مارا)، وهتف بها شقيقها (أوجار)، ولكنها زحفت في سرعة نحو (عزت)، الذي تحرّك نحوها بدوره، هاتفاً:

- لا تخشي شيئاً.. أنا هنا لحمايتك..

مدّت يدها إليه..

ومد يده إليها..

ولكن جاءت تلك الارتجاجة الثالثة..

جاءت أكثر قوة وعنفاً من سابقتها..

وبين (عزت) و(مارا)، انشقت الأرض..

ثم ارتفعت..

ومن تحت الأرض، برزت (وارما)..

وشهقت (مارا) بكل رعب الدنيا..

واتسعت عيون الجميع عن آخرها..

وخفقت قلوبهم في عنف..

وفي رعب.

• • •

الفصل الخامس عشر

"هندسة وراثية.."..

نطقها رئيس طاقم علماء الجينات الحيوية في انبهار متوتر، وهو يراجع تقرير الكمبيوتر، الخاص بنتائج فحص ذلك التنين، فسأله كبير العلماء، في اهتمام شديد للغاية:

- هل تعني أن هذا الشيء، نتاج دمج جيني وراثي؟!

أومأ رئيس الطاقم برأسه إيجاباً، وقال:

- وعلى نحو متقن للغاية، ومتجاوزاً كل ما نأمل التوصُّل إليه، خلال السنوات العشر القادمة، فلقد نجحوا في دمج سمات عدد من الكائنات المختلفة؛ لينتجوا هذا التنين في النهاية، وهذا ما زال مجرَّد فرضية نظرية في عصرنا هذا.

بدا كبير الأطباء مبهوراً، وهو يقول:

- إذن فهو كائن مخلَّق.

تمتم رئيس الطاقم:

- إن جاز القول.

صمت كبير العلماء لحظات مبهوراً، قبل أن يقول:

- ولكن ماذا عن النيران، التي يبثها من بين فكيه؟!.. عبر التاريخ كله، لم يوجد حيوان أو كائن حي، يمكنه أن ينفث النار... باستثناء ما ورد في الأساطير فقط.

أشار رئيس الطاقم بيده، مجيباً:

- لديه غدة خاصة، في سقف حلقه، تفرز مادة سريعة الاشتعال، ولسانه يحوي حراشيف خاصة، تطلق شرارة الإشعال، عندما تحتك بالخلفية الخشنة لأنيابه.

هتف كبير العلماء مبهوراً:

- إذن فهي إضافة جينية.

تردَّد رئيس الطاقم لحظة، قبل أن يهز كتفيه، مجيباً:

- ربما.. وربما لا.. ذلك التنين يحوي مجموعة جينية، لم ينجح الكمبيوتر في تحديد هويتها أو مصدرها، وربما كشفوا وجود حيوان، أو زاحف، أو أي كائن، يمتلك هذه السمة، ونجحوا في إضافتها إلى ذلك التنين، الذي صنعوه من جينات مندمجة.

انعقد حاجبا كبير العلماء، وهو يقول:

- هل تعلم ما يعنيه هذا؟!

أجابه رئيس الطاقم في اهتمام:

- أنهم متفوقون، في علم هندسة الجينات.

قال كبير العلماء في توتر:

– بل إنهم متقدمون عنا بكثير، على الرغم من أن أستاذنا يصرّ على أن عالمهم يوازي عالمنا زمنياً.

هزّ رئيس الطاقم رأسه، قائلاً:

– لا تعارض بين هذا وذاك.. لقد قرأت تقرير الأستاذ، وهو يفترض في نظريته أن العالمين انفصلا تاريخياً، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فهنا انهزمت النازية، وهناك ربحت الحرب، مما جعل كل عالم يتخذ مساراً مختلفاً، قد يكون اهتمامهم بهندسة الجينات قد بدأ مبكراً، ورصدت له ميزانيات وإمكانيات أكبر وأضخم، مما جعلهم يقطعون شوطاً كبيراً فيه، وهذا لا يعني بالضرورة أنهم قد طوّروا أموراً أخرى.

غمغم كبير العلماء، وهو يفكّر فيما سمعه:

– نظرية معقولة.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في حزم:

– ولكن من المستحيل الاعتماد عليها.

سأله رئيس الطاقم في دهشة:

– ولماذا؟!

أجابه على الفور:

– لأنهم يسعون لغزونا؛ ومن المستحيل أن يسعوا لهذا، دون أن يتيقنوا من

أنهم أكثر قوة منا.

قال رئيس الطاقم في سرعة:

– أو أنهم يحاولون معرفة هذا.

التفت إليه كبير العلماء بنظرة قلقة، فتابع:

– لقد أرسلوا قطعاً منفردة في كل مرة، وكانت هناك وسيلة للبث عبر الأبعاد، وهذا يعني أنهم ما زالوا في مرحلة الاستكشاف.

ثم مال نحوه، مكملاً في لهجة توحي بالثقة والاهتمام معاً:

– وما زالوا يختبرون قوتنا في الوقت نفسه، ويحاولون دراسة ردود أفعالنا، وطرق مواجهتنا لما يرسلونه، وبناءً على ما سيجمعونه من معلومات، سيحددون وسيلة الغزو القاسية.

ارتسم قلق شديد، على وجه كبير العلماء، وهو يغمغم:

– هذه أيضاً نظرية معقولة.

وصمت لحظة، قبل أن يستدرك في توتر:

– ومقلقة.

هزّ رئيس الطاقم كتفيه، قائلاً:

– ليس بالضرورة.. ربما كنا أقوى تسليحاً منهم، ولا تنسى أنهم قد انشغلوا في تطوير هندسة الجينات، وربما لم يطوّروا أسلحتهم بالقدر نفسه.

التفت إليه كبير العلماء، قائلاً في ضيق:

– وماذا تسمى ما واجهناه، وما سبّب لقواتنا كل هذه الخسائر، في البشر والمعدات.. أليس أسلحة؟!.. ربما كانت أسلحة لم نألفها في عالمنا، ولكنها شديدة التدمير والخطورة، وينبغي أن تدفعنا إلى الانتباه إلى أننا لم نحاول التعامل مع هندسة الجينات، باعتبارها وسيلة لإنتاج أسلحة حيوية مدمرة.. ثم كيف انتصر النازيون، في ذلك العالم المواز في رأيك؟!.. أليس لأنهم طوّروا حتماً أسلحة دمار شاملة؟!.. أليس هذا هو المبرّر الوحيد، لاستمرار سيطرتهم ونجاحهم، حتى زمن مواز لزمننا.

بُهِتَ رئيس الطاقم لما سمعه وغمغم:

– أنت على حق.

لوّح كبير العلماء بيده، قائلاً:

– سيؤسفني بشدة أن أكون كذلك.

مع آخر حروف عبارته، اندفع أحد علماء الاتصالات إلى المكان، هاتفاً:

– إننا نتلقى إشارات مجهولة.

التفت إليه الاثنان في دهشة، وتساءل كبير العلماء:

– ماذا تعني بمجهولة؟!

أجابه، وهو يندفع خارجاً، بنفس سرعة دخوله:

– سترى بنفسك.

اندفع الكل خلفه إلى حجرة الاتصالات، ورأوا ذلك المهندس، البديل

المهندس (عزت)، وهو يبدو شديد التوتر، أثناء رصده لتلك الإشارات، ولم يكد يلمح كبير العلماء، حتى قال في توتر:

– إنهم يحاولون الاتصال بنا.

سأله كبير العلماء في انفعال:

– من هم؟!

هزّ رأسه في قوة، هاتفاً:

– لست أدري.. إنهم يبثون إشارة منتظمة، منذ عشر دقائق... لقد تصوّرت في البداية أنها إشارة عشوائية، أو مجرّد انعكاس لتبادل إشارات، بين القوات العسكرية، ولكن البث تكرّر مرة، وثانية، وثالثة، وعلى النحو نفسه، في إلحاح شديد.

غمغم أحد العلماء:

– كل هذا لا يثبت شيئاً.

أشار إلى الشاشة في انفعال، قائلاً:

– ربما في البداية.. ولكنهم تحوّلوا دفعة واحدة إلى البث الفائق، وهو أسلوب غير معروف إلا لخاصة الخاصة.

تبادل العلماء نظرة شديدة التوتر، قبل أن يتساءل كبير العلماء في قلق واهتمام شديدين:

– وماذا يقولون؟!

اندفع (فراس) داخل الحجرة، في هذه اللحظة، وهو يتساءل لاهثاً:

– نعم.. ماذا يقولون؟!

كان الجميع ينتظر جواب المهندس في لهفة، ولكنه عاد يهزّ رأسه، قائلاً في توتر:

– لست أدرى.. إننى أتلقى عدة رموز عجيبة، ترتسم على شاشة كمبيوتر الاتصالات، في شكل أقرب إلى الرموز الصينية، متراصة في صفوف، من أعلى إلى أسفل، وهناك مجموعتان من الأرقام، أشبه بإحداثيات جغرافية.

جذبت العبارة الأخيرة انتباه (فراس) في شدة، فسأله، وهو ما زال يلهث، من فرط الانفعال:

– ما تلك الإحداثيات؟!

ضغط المهندس أزرار الجهاز، فظهرت مجموعتي الأرقام على الشاشة..

وكانت بالفعل إحداثيات جغرافية واضحة، حتى أن كبير العلماء قال بكل انفعاله:

– ابحث عن المواقع الجغرافية على الكمبيوتر.

بضغطات سريعة أخرى على الأزرار، تحدّدت إحداثيات مجموعة الأرقام الأولى، فقال المهندس في اهتمام منفعل:

– الإحداثيات الأولى لمنطقة جبلية شديدة الوعورة، في المنطقة الشرقية، أما الإحداثيات الثانية فـ..

قاطعه كبير العلماء، وهو يقول في توتر شديد:

– في الربع الخالي.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وكبير العلماء يضيف، في صوت متوتر مرتجف:

– في موقع الثغرة بالضبط.

ولم يعلّق أحد الموجودين بحرف واحد..

فقد شملهم جميعاً انفعال قوى..

انفعال هو مزيج من الدهشة..

والانبهار..

والحيرة..

والوجوم..

والرعب..

والحديث عن الرعب لابد وأن يقفز بنا إلى ذلك العالم الموازى..

العالم الذي هو ظل الأرض..

أو أن الأرض ظل له..

فهناك، كان (عزت) ومن معه يواجهون (وارما)..

دودة عملاقة بشعة، تشبه في تكوينها الجسدي دودة الحرير البسيطة، ولكن أقدامها العديدة أشبه بأقدام نمر، ذات مخالب حادة طويلة..

وفي قمتها لم يكن هناك رأس دودة..

بل رأسان..

وكل منهما كان صورة مجسَّمة للبشاعة، في أقوى صورها..

فالرأس الأوَّل كان أشبه برأس قرد مشوَّه، حاد الأنياب، بشع الخلقة..

أما الرأس الثاني، فهو رأس عنكبوت عملاق..

ومستندة على قوائمها الخلفية، رفعت (وارما) نصفها العلوي، بارتفاع ثلاثة طوابق، وأدارت عيونها في الجمع المحيط بها، والذي جمَّده الرعب، قبل أن تطلق من أحد رأسيها صوتاً حاداً رفيعاً، ومن الرأس الآخر زمجرة خشنة، فامتزج الصوتان، على نحو مخيف، جعل الجميع ينتفضون في قوة، ويخرجون من جمودهم المذعور، لتسود بينهم فوضى مباغتة..

كان معظمهم يعدو محاولاً الفرار، دون أن يدري أين يذهب بالضبط؛ للفرار من شيء بشع كهذا..

وفي ذهول، تراجع (كوناد)، محترقاً في (وارما)، على نحو يوحي بأنه لم ير مثلها من قبل، في حين تعلَّقت (مارا) بعنق (عزت)، وهي ترتجف بمنتهى الشدة..

أما (أوجار) وفريقه، فقد شهروا سيوفهم في بسالة وتحفز، على الرغم من التوتر الشديد الذي يسري في كينوناتهم، وكأنهم سيحمون الجميع، من ذلك الشيء شديد البشاعة..

وفي سرعة مدهشة، لم يعتدها حتى في عالمه الأرضي، درس (عزت) الموقف كله..

كان هناك جهاز صغير، مزروع في منطقة التقاء رأس (وارما)..

وهذا يعني أنها ليست مجرَّد كائن أرضي، طوَّرت الإشعاعات الغريبة جيناته..

إنه كائن تحت سيطرة خاصة..

هناك من يحكم حركته..

ويراقب ما يفعله، في الوقت ذاته..

وربَّما يوجهها.. بوسيلة ما - إلى هدف بعينه..

درس عقله الموقف في سرعة، في نفس الوقت الذي اندفع فيه أحد فرسان (أوجار) نحو (وارما)، ملوِّحاً بسيفه في بسالة، ومطلقاً صيحة قتالية قوية..

وفي هدوء، استدار رأسا (وارما) نحوه، ثم انطلقت خيوط لزجة، من الرأس العنكبوتية، التصقت بالرجل، وشلت حركته في لحظة واحدة، ثم سحبته في قوة إلى أعلى، وألقته نحو رأس القرد، فاستقبلته الأنياب الحادة، التي انغرست في جسده في قوة وقسوة، أطلق الرجل معهما صرخة عالية، وتفجَّرت منه دماء غزيرة، قبل أن يلتهمه الفكان في حركة سريعة، ويلتفت الرأسان إلى الآخرين..

وفي رعب هائل، انتفض جسد (مارا)، وراحت تشهق شهقات عنيفة، وتنكمش غائصة في صدر (عزت)، الذي سيطر عقله على مخاوفه، تجذبها مع

(كوناد) بعيداً، وهو يهتف:

- أسرعا.

كان (أوجار) و(فرسانه) يهاجمون (وارما) في بأس، على الرغم مما فعلته برفيقهم، ولكنها، فعلى الرغم من قدرتها على مهاجمتهم وتدميرهم، تجاهلتهم تماماً، وهي تتابع بعيونها (عزت)، وهو يعدو مع (كوناد) و(مارا)، نحو أطلال قريبة، في محاولة للاختباء..

وعبر الجهاز المزروع، في منطقة التقاء رأسيها البشعين، تابع الزعيم الكبير ما يحدث، على تلك الشاشة المثبتة في مسند مقعده..

ومن خلال جهاز اتصال خاص، قال بكل صراحة الدنيا:

- أريد هذا الرجل.

ولمس صورة (عزت)، على الشاشة..

وفي عقل (وارما)، المدرَّبة، والمزوَّدة بجهاز تحكُّم خاص، ارتسمت دائرة حمراء حول (عزت)..

واتجهت هي نحوه مباشرة..

ولأنه يمتلك عقلاً ألمعياً، فهم (أوجار) الموقف، واندفع نحو (وارما)، صارخاً:

- ناين.. (سافور) ناين.

كان يستخدم مزيجاً من الألمانية، التي لقنوه إياها قهراً في طفولته، ولغة

أجداده، وتلك اللغة الجديدة، التي انتشرت خلال نصف قرن، من الاحتلال النازي العالمي..

مزيج يعني:

- لا.. ليس المنقذ.. لا.

غرس سيفه بكل قوته، في جسم الدودة العملاقة، وشعر وكأنه يغرس سيفه في وسادة لينة، ولكن الدودة العملاقة لم تتوقَّف..

ولم تتأثر..

بل ولقد بدا أنها حتى لم تشعر..

كانت تتجه نحو (عزت) مباشرة، والرأس العنكبوتية تستعد، لبث خيوطها اللزجة على جسده..

وانطلقت الخيوط بالفعل..

انطلقت في نفس اللحظة، التي بلغ فيها (عزت) و(كوناد) و(مارا) جداراً قديماً، واندفعوا للاختباء خلفه..

وأصابت الخيوط اللزجة الجدار، وليس هم.

ولهثت (مارا) في رعب هائل، وهي تتحدث إلى (عزت)، بلغتها التي لا يفهمها، فسأل (كوناد) في توتر:

- ماذا تقول؟!

أجابه مرتجفاً:

– تقول.. إن هذا الشيء بشع، وأننا لن ننجو منه أبداً.

انعقد حاجبا (عزت)، وهو يمسكها من كتفيها، قائلاً للشيخ:

– اطلب منها ألا تفكِّر بهذا الأسلوب اليائس، وألا تخشى شيئاً، ما دامت إلى جواري.. سأحميها بحياتي، لو اقتضى الأمر.

ترجم الشيخ الكلمات في سرعة، إلى اللغة الجديدة، فرفعت (مارا) عينيها إلى (عزت)، تتأمَّله في انبهار، وخفتت ارتجافة جسدها كثيراً، وهي تقول كلمات متهدجة، مغرقة في التأثُّر والانفعال..

وعلى الرغم من أن (عزت) لم يفهم حرفاً واحداً منها، فقد ضمها إلى صدره في حنان، وهو يغمغم:

– لا شيء في الوجود يمكن أن ينتزعك مني.

وبينما ينطقها، جذبت الرأس العنكبوتية خيوطها في قوة، فانتزعت الجدار القديم من مكانه في عنف..

وانتفض جسد (مارا) مرة أخرى، بمنتهى القوة، وتراجع (كوناد) بعينين متسعتين، في حين انعقد حاجبا (عزت) في شدة..

ومرة أخرى، استعدت الرأس العنكبوتية لاصطياده بخيوطها اللزجة القوية.. وفي استماتة باسلة، ومن أجل الدفاع عن المنقذ، والأمل الذي انتظرته الشعوب المحتلة طويلاً، اندفع الرجال يهاجمون (وارما)، ويغرسون سيوفهم في جسدها اللين القوى..

وانغرست السيوف..

وانغرست..

وانغرست..

ولكنها لم توقف (وارما)..

كل ما حدث هو أن رأس القرد قد التفتت إليهم، وأطلقت صرختها المخيفة المركَّبة، ثم ارتفع جزء من نصفها السفلى، وهبط فوق رجلين منهم، ليسحقهما سحقاً..

أما الرأس العنكبوتية، فقد أطلقت خيوطها اللزجة..

نحو (عزت) مباشرة..

وعلى الرغم من رعبها الهائل، وارتجافة جسدها، التي لم تتوقَّف لحظة واحدة، وثبت (مارا) تحمي (عزت) بجسدها الرقيق الصغير، وهي تصرخ:

– (أزت).

واتسعت عينا (عزت) في هلع، عندما رأى الخيوط اللزجة، تلتف حول جسدها الرقيق، وسمع (كوناد) يصرخ:

– (مارا).. لا!.

ثم جذبتها تلك الخيوط اللزجة..

وبكل قوتها..

وصرخت (مارا)..

وصرخت..

وصرخت..

صرخت في رعب..

وألم..

وانهيار..

وانتفض جسد (عزت) في قوة، وهو يصرخ:

- لا.. ليس (مارا).

وبوثبة قوية، ارتفع جسده ثلاثة أمتار في الهواء، ليمسك بها، قبل أن تلقيها الرأس العنكبوتية إلى أنياب رأس القرد، وتشبث بها في قوة، ثم دفع جسده معها إلى أسفل..

لم يكن هناك محور واحد، يمكنه الارتكاز عليه، إلا أنه فعلها..

تراجع جسده بالفعل، وهبط معها إلى أسفل، جاذباً الخيوط القوية معه..

وصرخت (مارا) في ألم، وتلك الخيوط القوية تلتف حولها أكثر، وتكاد تعتصر جسدها اعتصاراً..

وبكل قوتها، جذبت الرأس العنكبوتية ضحيتها..

وبكل قوته، جذبها (عزت) من الجانب الآخر..

ومع الشد والجذب، صرخت (مارا) في ألم أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

لم يكن من الممكن أن تفلت (وارما) ضحيتها، وهي لم تفعل هذا من قبل قط.

وكان من المستحيل، في الوقت ذاته، أن يفلت (عزت) (مارا)..

ولكن (مارا) لم تحتمل هذا الصراع..

جسدها الضئيل، ورعبها الهائل اشتركا، لينهار كيانها كله..

وتفقد الوعي..

ومع غضبه الشديد، وثب (أوجار)، يتعلّق بجسد (وارما)، ثم تسلّقه على نحو مدهش، كما لو أنه امتص بعض طاقات (عزت) الجبارة، في ذلك العالم، حتى بلغ منطقة التقاء رأسي الدودة العملاقة، فرفع سيفه، وأمسك مقبضه بكلتا يديه، وأطلق صرخة قتالية هائلة..

ثم غرس سيفه بكل قوته..

وفي هذه المرة، صرخت (وارما)..

أطلقت صرخة هائلة، بذلك الصوت المزدوج الرهيب..

صرخة ارتجت لها الأطلال..

وبلغت مسامع قوات الحصار النازية..

ونقلتها أجهزة البث إلى الزعيم الكبير، الذي انعقد حاجباه في شدة، وهو يغمغم:

- مستحيل!.. (وارما) لم تنهزم من قبل قط.

انعقد حاجباه أكثر، وهو يتابع المشهد، متسائلاً عما يمكن أن تسفر عنه هذه المواجهة..

ولقد أصيبت (وارما) بالجنون، مع طعنة (أوجار)، والتفت رأس القرد إليه في غضب هائل، وهو يكشّر عن أنيابه الحادة، و..

وبكل قوته، انتزع (أوجار) سيفه، من منطقة التقاء الرأسين، وضرب به في قوة وعنف، ذلك الجزء، الذي بدا له كعنق رأس القرد..

ولقد مزّقت الضربة الجزء المواجه له مباشرة..

وتفجّر منه الدم..

وصرخت (وارما) مرة أخرى..

وانتفض جسدها في عنف..

ولكنها لم تفلت (مارا)..

لقد راح رأس القرد يدور في انهيار، والدماء تتدفّق منه في غزارة، جعلت (أوجار) ينزلق عن جسد الدودة العملاقة، ويسقط أرضاً، ثم يتدحرج في سرعة، ليتفادى نصفها السفلي، الذي حاولت أن تسحقه به..

ولكن الرأس العنكبوتية، ظلت تجذب (مارا) بخيوطها اللزجة، وكأنها منفصلة تماماً عن الرأس الأخرى..

ولكن (أوجار) هبّ واقفاً على قدميه، وهو مغطى بدماء (وارما)، وصاح في

رفاقه، وهو يندفع بسيفه نحو (مارا)، وراح الكل يضربون تلك الخيوط اللزجة بسيوفهم، محاولين قطعها..

ولكن الخيوط، على الرغم من قوتها، كانت مرنة للغاية..

مرنة، حتى أنها لم تنقطع أبداً..

وفي توتر شديد، وبينما يواصل جذب (مارا) بقوة هائلة، لم يتوافر له عشرها، عندما كان في عالمه، صاح (عزت):

- إلى هنا.. تعالوا إلى هنا.

فهم (أوجار) إشارته، فاندفع إليه مع الباقين، فهتف فيهم:

- واصلوا الجذب.. لدي خطة أخرى.

اشترك الكل في جذب تلك الخيوط اللزجة، وأدهشهم أن رأس القرد قد انهار تماماً، كما لو أنه قد فارق الحياة، في حين ظل الرأس العنكبوتي يجذب..

ويجذب..

ويجذب..

بمنتهى القوة..

وأدهشهم أكثر أن جميعهم كانوا يبذلون جهداً هائلاً، على الرغم من قوتهم؛ لجذب تلك الخيوط، التي كان يجذبها (عزت) وحده..

أما (عزت)، فقد اندفع، نحو العملاق الآلي، الذي سقط في البداية، ودفع يده إلى أعلى، وجذب سلاحه الإشعاعي الضخم، وحمله مندفعاً نحو (وارما)،

وصوّبه إلى الرأس العنكبوتية، وهو يصرخ:

- كفاك ضحايا أيتها الحقيرة.

وضغط سلاح العملاق..

وأطلق الأشعة..

وعلى عرشه، انتفض الزعيم الكبير، وهو يصرخ:

- لا..

ثم انقطع إرسال شاشته، فور أن أصابت الأشعة تلك الرأس العنكبوتية..

وبمنتهى الغضب، انعقد حاجباه..

لقد انتصر هؤلاء الرعاع على (وارما)..

(وارما) التي اعتبرها دوماً أفضل ما أنتجه، من الأسلحة الحيوية..

وأقواها..

لقد حطّم قطيع منها المتمردين في (روسيا)..

وسحق المقاومة في (أفريقيا)..

وأباد قرى كاملة في (الصين)..

وأخضع (أوروبا) كلها..

ولكن ها هي ذى تسقط، أمام مجموعة من الرعاع..

مجموعة يقودها متمرِّد من عالم آخر..

متمرِّد، قد يصبح المفتاح المنشود؛ لغزو ذلك العالم الآخر..

لذا فمن الضروري أن يظفر به..

وبأي ثمن..

ومهما كان الثمن..

أو كانت التضحيات..

لذا، فقد جمع كل حزمه، وعزمه، وغضبه، وصرامته، في صوت واحد، وهو يقول، عبر أجهزة الاتصال الخاصة:

- هجوم شامل..

عندما نطقها، كان الجميع يحدّقون في فرحة، لم يفارقها الذهول بعد، في الدودة العملاقة، التي احتلت مساحة هائلة من الأطلال، وخيوط رأسها العنكبوتية، ما زالت تلتف حول جسد (مارا)، لزجة قوية..

(أوجار) و(كوناد) و(عزت) فقط، انتزعوا أنفسهم من ذهولهم، وراحوا يتعاونون؛ لتخليص (مارا) فاقدة الوعي، من تلك الخيوط القاتلة..

ولقد حاولوا قطعها بكل وسيلة ممكنة..

حاولوا..

وحاولوا..

وحاولوا..

ولكنها لم تنقطع..

وفي عصبية، راح (أوجار) يقول شيئاً، لم يفهمه (عزت)، الذي غمغم:

- ربما ليس بالوسائل التقليدية..

حمل سلاح العملاق مرة أخرى، وقال بلهجة آمرة، وهو يشير بيده الحرة:

- اجذبوا الخيط من الطرفين.

أطاعه الرجال، استجابة لإشارات يده، وجذبوا الخيط من الطرفين، وصوّب هو السلاح إليه، وضغط الزناد..

وانطلقت الأشعة..

واحترق الخيط.

وفي انبهار، ربما لقدرته على استخدام سلاح كهذا، لم يروه قط إلا في أيدي عمالقة قاتلة..

أو ربما لقدرته على حمله، بكل ثقله وحجمه..

أما هو، فلم يكد يحرّر (مارا)، حتى أسرع إليها في لهفة، يحاول نزع البقايا الملتصقة بجسدها، وهو يعمل على إفاقتها في الوقت ذاته..

كان ملهوفاً..

حانياً..

رقيقاً..

ومحباً..

حتى أن الجميع لاذوا بصمت مهيب، وهم يراقبون ما يفعله، ومال

(أوجار) عليه، يحاول معاونته، في رفق لم يعتده منه أحد..

وأخيراً، شهقت (مارا)، وهي تفتح عينيها، وتحدّق فيهم في ذهول مذعور، قبل أن تنقل بصرها إلى الدودة العملاقة، الساقطة على مسافة أمتار قليلة، ثم تنظر إلى (أوجار)، ثم إلى (عزت)، قبل أن تلقي نفسها بين ذراعي (عزت)، باكية في حرارة..

وبكل رفق وحنان الدنيا، احتواها (عزت)، وهو ينقل بصره بين (أوجار)، الذي انعقد حاجباه في صمت، و(كوناد)، الذي تطلّع إليهما في اهتمام شديد، جعل (عزت) يتنحنح في حرج، وهو يقول:

- أظن أن هناك وسيلة واحدة، لجعل هذا لائقاً.

ابتسم (كوناد) ابتسامة غامضة، وكأنما كان ينتظر هذا، في حين اعتدل (أوجار) فجأة، واستل سيفه بحركة عدوانية متحفزة، فقال (عزت) في توتر، وهو يلوّح بيده:

- إنني لم أقصد سوءاً، فالواقع أنني..

قاطعه (أجوار)، وهو يشير إلى نقطة خلفه، قائلاً في صرامة متوترة:

- (ننيت).

التفت الجميع إلى حيث يشير، وانعقد حاجبا (عزت) في شدة..

لقد استعاد الفرسان المدرعون الثلاثة وعيهم..

واستعدوا للقتال..

وفي اللحظة نفسها، بدا هجوم القوات النازية..

وانطبق الفخ من الناحيتين..

في إحكام شديد.

• • •

الفصل السادس عشر

"هذا يثبت أننا كنا على حق.."..

نطق المصري بالعبارة، في قاعة القيادة، وهو يواجه (فراس)، الذي بدا شديد التوتر والعصبية، وهو يغمغم:

- ليس لدى تعليق هذه المرة.

قال الكويتي في صرامة:

- بالتأكيد.. لقد صدّقت علماءك، وكذّبت خبراءنا، وها هو ذا الموقف يثبت العكس.

تردّد (فراس) لحظة، قبل أن يجيب في شيء من الحدة، لم يستطع كبحه:

- هذا لا يثبت شيئاً.. حتى الآن على الأقل.

هتف السعودي في غضب:

- لا يثبت شيئاً؟!.. أي قول هذا؟!.. لقد أصبح الأمر أشد وضوحاً من ذي قبل.. أجهزة علمائك أثبتت أن تلك الإشارات كانت تبث من مصدر علوي، وليس عبر تلك الثغرة، مما يؤكّد أن مصدرها هو تلك الأجسام الطائرة، مجهولة الهوية، وهذا يشير بالتالي إلى الترابط الواضح، بينها وبين الثغرة.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وهو يقول:

– ليس بالضرورة.

صمت الرجال الثلاثة، وتبادلوا نظرة تحوى الكثير من المعاني، قبل أن يقول المصري، في بطء واهتمام:

– أهذا رأى علمائك؟!

قال (فراس)، وقد حملت لهجته رنة صارمة غاضبة هذا المرة:

– إنهم ليسوا علمائي، بل علماء انتقيتموهم أنتم، من خيرة العقول العلمية العربية، وأوليتموهم ثقتكم؛ ليدرسوا الظاهرة الغامضة، التي واجهتنا في الربع الخالي، وليتوصلوا إلى حل وتفسير لها، وهم لا يدخرون وسعاً في سبيل هذا، ويعملون ليل نهار بلا انقطاع، وبلا نوم أحياناً، وكل ما ينشدونه هو أن تستمر ثقتكم، حتى يمكنهم مواصلة عملهم، وإنقاذ الموقف، وربما إنقاذ العالم كله أيضاً.. والجواب، بعد هذه المقدّمة الطويلة، هو نعم.. هذا رأيهم، وهو ليس رأياً عاطفياً أو انفعالياً، بل هو رأى علمي، أطلقوه بعد مناقشات ودراسات طويلة، فكل ما لدينا هو إحداثيات منطقتين، مع عبارات وإشارات ورموز، ما زال العلماء يعكفون على دراستها وتحليلها، في محاولة لفهمها، ولما كانت الإحداثية الأولى تتفق مع موقع تلك الثغرة بين العالمين، فهذا قد يعني أن من بثوا إلينا الرسالة هم المسئولون عنها، أو...

وصمت لحظات، سيطر خلالها على مشاعره وانفعاله، قبل أن يكمل:

– أو أنهم من يملك مواجهتها.

بدا الجزء الأخير أشبه بالصدمة، حتى أن الرجال الثلاثة لاذوا بالصمت التام، مع عيون مبهورة، جعلته يستطرد:

– ولن تحسم هذا سوى مواجهة.

بدا اهتمام شديد على وجوههم، وأطلّ من عيونهم، وهوي ضيف في حزم:

– هناك.. عند الإحداثيات الثانية، في جبال المنطقة الشرقية.

صمت الرجال بضع لحظات، ثم تساءل السعودى، في صوت خافت، من شدة انفعاله:

– وما الذي يتوقّع علماؤك أن نواجهه هناك.

أجاب في سرعة، وربما قبل اكتمال السؤال:

– لقاء.

اعتدلوا في دهشة، فأكمل في حزم:

– أوّل لقاء بين عالمين.. على أرض عربية على الأقل.

ولم ينبس أحدهم بحرف واحد..

فعبارته كانت صادمة..

إلى حد مخيف..

ولكن صدمتهم، أياً كانت قوتها، لم تكن لتقارن بصدمة (عزت) والرجال، في العالم الموازى، عندما بدأ الهجوم الشامل من الجانبين..

الفرسان المدرعون من ناحية..

والقوات النازية من كل ناحية..

وفي توتر شديد، تحرك الرجال، محاولين صنع دائرة كاملة، تحميهم من هذا الهجوم المزدوج.. المشكلة أن الفرسان كانوا في الداخل، والنازيون في الخارج..

وبأي مقياس معروف، كان هذا يعني هزيمة..

وساحقة..

ولكن (عزت) شعر بغضب شديد..

كان يتصوّر أنه قاب قوسين أو أدنى من النصر، عندما بدأ الهجوم فجأة؛ ليفسد كل تصوراته وخططه..

ومع غضبه، تفجّر شيء ما في أعماقه..

فوران هائل، انبعث من مكان ما، من أعمق أعماقه، وسرى في عروقه كحمم من نار، مع ذلك البركان، الذي انبثق من قلبه وعقله..

ودون حتى أن يفكّر، وثب إلى سلاح العملاق، وأطلق صرخة عالية غاضبة، وهو يطلقه نحو الفرسان المدرعين..

وأصابت الأشعة الفرسان الثلاثة، الذين باغتهم الهجوم، فلم يستعدوا له جيداً..

وفي لحظة واحدة، وأمام عيون القوات النازية، سقط فارسان في عنف، واستل الثالث سيفه الإليكتروني في عصبية، محاولاً الدفاع عن نفسه، في نفس اللحظة، التي صرخ فيها قائد النازيين:

- هجوم.

ومع صرخته، أطلق (عزت) أشعة السلاح، نحو الفارس الثالث، وأطلق النازيون أسلحتهم نحو الرجال..

ومع سقوط الفارس الثالث، سادت فوضى هائلة بين صفوف الرجال، الذين راح أوجار يصرخ فيهم في غضب، محاولاً حثهم على القتال، ولكن أسلحة النازيين كانت تحصدهم حصداً بلا رحمة، والقائد النازي يصرخ:

- قائدهم.. لا تقتلوا قائدهم.. الزعيم يريده حياً.

نطقها بالألمانية، التي لا يجيدها (عزت)، فصاح به (كوناد)، الذي يعدو محاولاً الاختباء، أو الاحتماء بأي شيء:

- يريدونك حياً.

انعقد حاجبا (عزت) في شدة، وتضاعف غضبه ألف مرة، مع ذلك الرعب الهائل، الذي ملأ كيان (مارا)، وبرز على ملامحها، في حين شهر (أوجار) سيفه في بسالة، وهو يقف مفرود القامة، متماسكاً، في مواجهة الآليات النازية، التي وجّهت مدافعها نحه، فصرخت (مارا) في ارتياع:

- (أوجار).. (أوجار).

ولوّح قائد النازيين بيده، صارخاً في غضب:

- اسحقوا هذا المغرور.

ولكن (عزت) اندفع بكل قوته..

اندفع بوثبة واحدة، نقلته ستة أمتار كاملة، ليهبط بين (أوجار)، ومدافع الآليات النازية..

وتحرك (أوجار)؛ محاولاً منعه أو حمايته..

ولكن المدافع الآلية انطلقت..

وأصابت القذائف كلها صدر (عزت)..

وانتزعته من مكانه..

وبمنتهى العنف، طار جسده، متجاوزاً (أوجار)، و(مارا)، و(كوناد)، والرجال..

وصرخت (مارا)..

صرخت بكل رعب وهلع ولوعة وارتياع الدنيا..

وشهق (كوناد)، وقد تصوّر أنها نهاية (عزت) لا محالة..

وصاح (أوجار) مستنكراً..

ولكن فجأة، حدث أمر خارق للمألوف..

لقد اعتدل جسد (عزت)، وتوقّف في الهواء فجأة، كما لو أنه قد ارتطم بحاجز خفي..

وسقطت القذائف كلها أرضاً..

وساد ذهول تام..

ذهول ألجم الجميع وجمّدهم تماماً..

جمُد (مارا)..

و(أوجار)..

و(كوناد)..

والرجال..

وحتى النازيين..

ولثوان، وعلى الرغم من مخالفة هذا لكل القوانين الطبيعية والفيزيائية، توقّف جسد (عزت) في الهواء، وانعقد حاجباه في غضب، وهو يتطلّع إلى النازيين وآلياتهم..

ثم اندفع فجأة نحوهم..

أو أنه طار نحوهم، بكل ما تحمله الكلمة من معان..

لقد شق جسده الهواء، في رشاقة مدهشة؛ لينقض عليهم، قبل أن يفارقهم ذهولهم العارم..

وبدلاً من أن يخرجوا من ذهولهم، تضاعف في أعماقهم ألف مرة..

بل ألف ألف مرة..

فبلا مقدمات، حمل (عزت) أضخم وأثقل آلياتهم، ودفعها إلى أعلى، لتنقلب رأساً على عقب..

وبمنتهى العنف..

وعلى الفور، انقلب الموقف كله رأساً على عقب..

وانتقل الرعب من الرجال إلى النازيين..

وعلى عرشه الذهبي الضخم، شاهد الزعيم، بكل غضب الدنيا، قواته تفر، وعزت يحطِّم آلياتها، واحدة بعد الأخرى..

ولقد حاول قائد النازيين التماسك، وحثَّ قواته على هذا، ولكن ما أن رفع (عزت) مقدِّمة الآلية التي يركبها، حتى وثب عنها في رعب، وانطلق يعدو خلف رجاله، وهو ينشد النجاة، من ذلك الخصم الجبار..

وبقوة هائلة، وفي مشهد خرافي، رفع (عزت) إحدى المعدات الثقيلة، وألقاها بكل قوته خلف الهاربين، فطارت لخمسة أمتار كاملة، قبل أن تسقط فوق بعض الأطلال القديمة، وتسحقها سحقاً..

وفي قوة، توقَّف (عزت) يلهث، كما لو أنه قد بذل مجهوداً هائلاً..

ثم ارتسمت دهشة عارمة على ملامحه..

كان كمن يفيق من حلم عجيب، أو كمن أدهشه ما فعله حتى النخاع..

وفي بطء، التفت إلى الرجال، ورأى الذهول والانبهار على ملامحهم جميعاً، فغمغم وسط لهاثه الشديد:

- لست أدري كيف حدث هذا.

لم يبد أن أحدهم قد سمعه، وهم يسقطون على ركبهم أمامه، وفي مقدمتهم (كوناد) و(أجور) و(مارا)، والكل يردِّد، في خشوع عجيب:

- (سافور).. (سافور).

صاح لاهثاً:

- قلت: لا تسجدوا.

نهض (كوناد) في بطء، وأشار إليهم بالنهوض، فنهضوا في بطء مماثل، دون أن يرفعوا عيونهم المبهورة عن (عزت)، الذي بدأ يستوعب ما فعله، فتضاعفت دهشته ألف مرة، وغمغم، في صوت لم يسمعه سواه:

- ولكن كيف؟!.. كيف؟!..

التف الكل حوله في صمت، والعيون كلها تنشر كلماته، وغمغم (كوناد) في احترام:

- لقد أنقذتهم.

غمغم (عزت) في عصبية، وهو يدير عينيه فيما حوله:

- لقد خسرنا أكثر من عشرين رجلاً.

قال (كوناد):

- للحرية ثمنها.

ثم مال نحوه، مستطرداً:

- المهم أنهم انهزموا أمامنا، وهي أوَّل مرة يحدث فيها هذا.

أدرك (عزت) في هذه اللحظة أن النازيون والفرسان قد انهزموا بالفعل، وخلت الأطلال إلا منه والرجال و(مارا) فغمغم غير مصدق:

- انهزموا!!

أومأ (كوناد) برأسه إيجاباً، وقال:

– وسيعودون بقوات أكبر حتماً.

ردّد (عزت):

– يعودون؟!

ثم أدار عينيه إلى الفرسان المدرعين، قبل أن يضيف في حماس:

– في هذه الحالة...

وصمت لحظة، مال خلالها نحو (كوناد)، هامساً:

– لدي خطة.

لم يكن بحاجة فعلية إلى خفض صوته؛ فتحطيم آليات النازيين ومعداتهم، قطع كل اتصال، بينهم وبين مقر الزعيم الكبير في (فوريانا)، مما أورثه غضباً شديداً، جعله يهتف، وهو وحده في قاعة حكمه:

– مستحيل!.. هذا مستحيل تماماً!.. لا يمكن أن يمتلك كل هذه القوة!

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في سخط:

– إنه ليس ألمانياً.

كان انقطاع البث يورثه توتراً شديداً، جعله يترك عرشه الذهبي الضخم، ويهبط ليدور في قاعة الحكم كالأسد الجريح الحبيس، وهو يفكر في وسيلة؛ لمقاومة ذلك الخارق، القادم من العالم الموازي..

ما أرسلته آلات التصوير بين البعدية، تؤكد أن أقرانه لا يملكون هذه

القوة!..

لقد اكتسبها في عالمه إذن..

عالمه هو..

ولابد وأن يدرس علماؤه هنا..

لابد وأن يجيبوا سؤالاً، يكاد يلتهم مخه..

كيف اكتسب القادم من العالم الموازي هذه القوة؟!..

أهو الانتقال بين بعدين؟!..

أم الطاقة الكهرومغناطيسية السلبية؟!

أم ماذا؟!..

والسؤال الأخطر هو: هل يحدث التأثير نفسه مع العكس؟!..

هل لو أرسل جيشه النازي إلى العالم الآخر، سيكتسب قوة خارقة هناك؟!..

هل؟!..

لو كان الجواب إيجابياً، فهذا يعني انتصاراً ساحقاً..

وسيطرة كاملة..

ليس على عالم واحد.. بل على عالمين متوازيين..

ومن يدري ماذا يمكن أن يظهر بعدها؟!..

ربما عالم ثالث..

ورابع..

وخامس..

وما دام قد عرف كيف ينفذ إليها، فيمكنه أن يحكمها ويسيطر عليها، عالماً بعد الآخر..

وسيصبح بهذا أكبر غاز عرفه التاريخ..

لم يغز عالمه وحده..

بل كل العوالم..

وسيُطر على الأرض، وظلالها..

كل الظلال..

بلا استثناء..

ولكن ماذا لو حدث العكس؟!..

توقّف دفعة واحدة، وسرى في كيانه توتر لا محدد، مع مجرّد الفكرة..

نعم.. ماذا لو غزا رجاله ذلك العالم، فأصبحوا أضعف هناك مما هم عليه هنا؟!

عندئذ سيخسر معركته..

وربما يدفع ذلك العالم الموازى لغزو عالمه..

ربما..

أفزعته الفكرة لحظات، انعقد خلالها حاجبيه الكثين بمنتهى الشدة، قبل

أن يضغط زراً في طرف كم حلته الرسمية، ويقول في صرامة:

- رقم واحد.. احضر حالاً..

لم تمض دقائق قليلة، حتى وصل رقم واحد، ورفع يده أمامه، هاتفاً:

- هايل هتلر.

عقد (هتلر) كفيه خلف ظهره، وقال في صرامة:

- قواتنا انهزمت.

قال رقم واحد في توتر:

- إنها أوّل مرة يحدث فيها هذا أيها الزعيم، ولكننا نعد هجوماً مضاداً شديد العنف والقوة، و...

قاطعه في صرامة أشد:

- هذا لن يجدى.

صمت رقم واحد، وهو لا يدرى ما يقول، فقال الفوهلر في صرامة بالغة:

- لن يجلسوا في انتظار قدوم الهجوم المضاد.

أجابه في سرعة:

- ولكنهم لم يغادروا مكانهم بعد، أيها الزعيم الكبير.

انعقد حاجبا (هتلر) في شدة، وهو يقول:

- وكيف عرفت هذا؟!

أجابه في سرعة وانفعال:

– آلات الرصد الحرارى ما زالت تلتقط حرارة أجسادهم، في المنطقة نفسها.

انعقد حاجبا (هتلر) في شدة أكبر، وقال:

– كيف؟!

غرق في التفكير العميق بضع لحظات، محاولاً تفسير هذا!!.

لماذا بقوا؟!..

المفترض، وفقاً لأى منطق عسكرى، أن ينصرفوا، فور صدهم للهجوم، حتى لا يواجهون هجوماً انتقامياً..

ولكنهم بقوا..

هناك حتماً تفسير لهذا..

تفسير منطقي..

أو حتى غير منطقي..

ففي لحظات الانتظار غير المتوقّع، كثيراً ما تتغلّب العاطفة على المنطق والواقع، وكل القواعد العملية والعسكرية..

ولكن من الخطأ – عسكرياً – أن يفترض هذا..

لابد وأن يفترض الأسوأ دوماً..

هذا أكثر أمناً..

وأماناً..

إنهم هناك لسبب ما..

سبب يجهله..

ويخشاه..

"أرسلوا جيشاً صغيراً.."..

نطقها بمنتهى الصرامة والغضب، فشدّ رقم واحد قامته، وهو يتساءل في حذر:

– جيش؟!

بدا صوت الفوهلر أقرب إلى الزمجرة، وهو يقول:

– نعم.. جيش.. قوات مشاه، وطائرات، ومدرعات، وتنانين.. وأرسلوا (وارما) ثانية..

ثم عاد حاجباه الكثان يلتقيان بمنتهى الشدة، وهو يضيف:

– أريدكم أن تسحقوهم سحقاً.

وأشار بيده، مستدركاً بكل صرامته:

– فيما عدا ذلك القادم.. أريده حياً..

في نفس اللحظة، التي نطقها فيها في عالمه، كان (فراس) يقف شديد التوتر في عالمنا، وهو يشرف على القوات العديدة، التي راحت تحاصر في إحكام تلك المنطقة، المحيطة بنقطة الإحداثيات المرسلة، عند جبال المنطقة الشرقية..

كانت هناك قوات أخرى، تواصل العمل، منذ أكثر من ساعة كاملة، لإخلاء البشر كلهم من المنطقة، بحجة وجود خطر مجهول، أو وباء شديد

الخطورة، تسعى الدولة للسيطرة عليه.. ولقد تم منع كل الصحفيين، والمصورين، ومراسلي وكالات الأنباء، من بلوغ منطقة الحصار، حتى لا يصابوا بالعدوى المزعومة..

وفي رأي كبير العلماء، كانت المنطقة قد تحوّلت إلى ترسانة سلاح كاملة، على صورة تتعارض مع المنطق العلمي تماماً، مما أورثه توتراً شديداً، وهو يغمغم:

- ألا ترى أنكم تبالغون كثيراً؟!

أجابه (فراس) في صرامة، لا تخلو من العصبية:

- لسنا ندري ما الذي يمكن أن نواجهه هنا.

قال كبير العلماء في ضيق:

- وهل تشير تجاربك السابقة، إلى أن كل هذا سيجدي.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وأشاح بوجهه ليخفي توتره الشديد، وهو يقول في عصبية:

- إنها إجراءات لابد منها.

اندفع كبير العلماء، قائلاً:

- أخشى أن..

ثم بتر عبارته دفعة واحدة، فسأله (فراس) متوتراً:

- تخشى ماذا؟!

صمت كبير العلماء لحظات، مع هدير المقاتلات الحربية، التي مرقت فوق

رؤوسهم، ثم تطلّع إليها في ضيق، قائلاً:

- هذا يمكن أن يعوق ما سيحدث.

سأله (فراس) في سرعة:

- وماذا تتوقّع أن يحدث؟!

تردّد كبير العلماء لحظة، ثم قال في حذر:

- أي شيء.

سأله (فراس)، في صرامة ملحة:

- مثل ماذا؟

انعقد حاجبا كبير العلماء في شدة، قبل أن يشير إلى السماء، مجيباً:

- مثل هذا.

تتبّع (فراس) إشارة سبّابته إلى السماء، و..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

فهناك، على ارتفاع شاهق، يعلو مقاتلات سرب النسور السادس بمئات الأمتار، كان هناك تشكيل من ثلاث مركبات هائلة مستديرة، يدور حول بعضه البعض، على نحو هادئ منتظم، وكل مركبة منه تشع بضوء، له لون مختلف..

وفي حركة متعاقبة، راحت المركبات الثلاث تتبادل ألوان أضوائها، وسرعة التعاقب تتزايد وتتناقص، مما جعل كبير العلماء يغمغم في اهتمام:

- إنهم يحاولون إرسال رسالة ما.

هاله أن يرى مقاتلات السرب السادس، وهى تنطلق نحو المركبات الثلاث،

فأمسك ذراع (فراس) في شدة مؤلمة، هاتفاً:

- رباه!.. ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟!

أزاح (فراس) يده في حدة، هاتفاً:

- دعهم يؤدون عملهم.

صرخ كبير العلماء:

- سيفسدون كل شيء.

انعقد حاجبا (فراس) بمنتهى الشدة، وحاول كتمان توتره الشديد، وهو يتجاهل الرد، ويتابع مقاتلات السرب السادس، وهى ترتفع..

وترتفع..

وترتفع..

كانت مزوّدة هذه المرة بصواريخ خاصة، لها القدرة على التوجه الذاتى الذكى، مع قدرة تدميرية، تبلغ خمسة أضعاف قوة أي صاروخ معروف..

وكان هذا يبث في طياريها الكثير من الثقة..

ومن الإقدام..

ولقد واصلت المركبات الثلاث دورانها الهادى، وتبادل أضوائها، وكأنها لا ترى المقاتلات المندفعة نحوها..

أو أنها لا تبالى بها مطلقاً..

وفى عصبية شديدة، كرّر كبير العلماء مغمغماً:

- سيفسدون كل شيء.

في اللحظة نفسها، كان قائد السرب يهتف برجاله، عبر أجهزة الاتصال المحدودة:

- استعد.

استعد الطيارون كلهم لإطلاق صواريخهم، ووضع كل واحد منهم إبهامه على زر الإطلاق في تحفز، و..

وفجأة، توقّفت كل أجهزة المقاتلات دفعة واحدة..

وفى آن واحد..

ومع توقُّف الأجهزة، لم تعد المقاتلات قادرة على الارتفاع..

فهوت..

هوت من ارتفاع كبير، وبسرعة مخيفة، جعلت (فراس) يصرخ:

- يا إلهى!!.. سيسقطون!

وانعقد حاجبا كبير العلماء، دون أن يعلّق بحرف واحد، وهو يراقب المقاتلات تسقط كالحجر، وشعر بالحنق والمرارة؛ لأن أحداً لا يستمع إلى صوت العلم، في موقف كهذا..

وبدا للجميع أنها نهاية السرب السادس لا محال..

ولكن فجأة، توقّفت المقاتلات..

واستعادت توازنها..

ولكنها لم تنطلق..

بل توقّفت في السماء..

كانت وكأنها قد سقطت على وسادة ناعمة خفية..

وسادة استقبلتها في رفق، وتعاملت معها في خفة مدروسة، بحيث لم تصدمها بتوقُّف مباغت، ولم تنخفض مع ثقلها..

وفي ذهول، شاركه فيه الجميع، غمغم (فراس):

- ما هذا بالضبط؟!

بدا كبير العلماء مبهوراً، وهو يتمتم بصوت مختنق:

- بل قل ما هذا؟!

ومرة أخرى تبع (فراس) سبّابته..

ومرة أخرى، اتسعت عيناه عن آخرهما..

فما رآه هذه المرة، كان يفوق حتى أبشع كوابيسه..

ألف مرة.

* * *

الفصل السابع عشر

بكل عنف وشراسة وغضب الدنيا، انقض النازيون على ذلك الموقع، الذي يلتقطون منه تلك الانبعاثات الحرارية، من كل صوب..

قوات هائلة..

عمالقة آليون..

تنانين..

و(وارما)..

كان أعنف وأقوى هجوم، تشنه القوات النازية، على هدف ما، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها..

وكانت تشن الهجوم بأوامر محدودة..

سحق كل ما تجده في طريقها..

فيما عدا رجل واحد..

(عزت)..

ولقد كان كل مقاتل نازي شغوف لتنفيذ الأوامر..

ولسحق بؤرة المقاومة..

بلا هوادة..

أو ذرة من الرحمة..

وبكل وحشية الدنيا، هتف قائد قوات الهجوم:

- أريده بحراً من الدم، وموسيقى من صراخهم وآلامهم وعذابهم.. لا تبقوا على كائن واحد منهم.. فقط ذلك القادم.. وحده نريده حياً.

وانقضّ الجميع..

وانقضوا..

وانقضوا..

وانقضوا..

ثم توقّفوا ذاهلين غاضبين ساخطين..

فعلى الرغم مما تلتقطه أجهزتهم، من انبعاثات حرارية واضحة، كان الموقع خالياً..

خالياً تماماً..

وبكل توتر الدنيا، راح قائد قوات الهجوم يدير عينيه الغاضبتين فيما حوله..

هناك عشرات الأماكن، التي تبعث الحرارة..

وكلها عبارة عن أكوام من الصخور، متراصة بأشكال شبه بشرية، وبينها أغصان جافة مشتعلة، تبعث تلك الحرارة..

فقط صخور..

والفرسان الدرعون الثلاثة..

وبكل غضبه وتوتره، قال قائد القوات النازية، عبر جهاز الاتصال الخاص:

- لقد خدعونا.

استقبل رقم واحد الإشارة في توتر شديد، وتساءل في قلق بالغ، كيف يستقبلها الزعيم الكبير..

ولقد استقبلها الفوهلر الشيخ بغضب هادر، وضرب مقبض عرشه بقبضته في قوة، وهو يصرخ:

- مستحيل!

كان يشعر بالدماء تفور في عروقه، وهو يشاهد الموقع، عبر أجهزة البث، التي تحملها قوات الهجوم..

لقد خدعه بعض البدائيين..

خدعه من ظل يسيطر عليهم ويخضعهم، طوال ما يزيد عن نصف قرن..

وكل هذا بسبب رجل..

أو عقل رجل..

رجل واحد، جاء من عالم آخر، ليفسد عالمه كله..

رجل، كسر الفجوة الضخمة، التي حرص على توسيعها، بين النازيين

وسواهم، وملأ فراغ العقل والعلم، الذي صنعه خلال عقود طويلة..

ولكنه خطأه هو..

لقد وثق فيما صنعه بالعالم، حتى لم يعد يضع في حسبانه مقاومة أو مواجهة من يملك العلم، والعقل المفكر..

استراتيجية كلها اعتمدت على مواجهة بدائيين..

فقد بدائيون..

كان الغضب يشمل كيانه كله، وهو يتابع المشهد، الذي يبعث كل الغيظ في أعماقه، حتى توقّف عند نقطة واحدة، جعلت حاجباه الكثّان ينعقدان في شدة، وهو يقول في غلظة وصرامة، عبر أجهزة الاتصال:

- إنهم فرساننا المدرعون.

أجابه قائد قوات الهجوم النازية في توتر:

- إنهم صرعى أيها الزعيم الكبير.

صاح به في شراسة:

- خطأ أيها الغبي.. إشارات دروعهم ضعيفة، ولكنها لم تتوقّف بعد، وأحدهم ما زال يبث إشارات قوية.. إنهم أحياء.. احضروهم إلى القلعة فوراً..

أشار قائد النازيين إلى ضباطه وجنوده لتنفيذ الأمر، وهو يتساءل في حذر:

- وماذا عن البدائيين أيها الزعيم الكبير؟!..

عربد الغضب بكيان الفوهلر وملامحه وصوته، وهو يقول:

- لن تعثروا عليهم.

وتراجع في عرشه، مغمغماً في سخط شديد:

- هذه شيمتهم.. يضربون ضربتهم، ثم يختفون في جحورهم كالفئران.

تردّد قائد القوات لحظات، قبل أن يتساءل في خفوت:

- هل نعود فحسب؟!

كاد حاجبا الفوهلر ينعقدان من فرط انعقادهما، وهو يقول في صرامة:

- وفوراً.

وبينما استعدت القوات للعودة، تراجع هو في عرشه الذهبي الضخم، وراح يفكر في الوسيلة المناسبة، لإخراج الفئران من جحورها..

إنهم يختبئون في مكان ما حتماً..

مكان هناك..

بين الأطلال..

أو تحتها..

إنها الأطلال، في كل مرة..

الأطلال، التي تتيح لهم ألف مكان ومكان للاختباء..

وللكر والفر..

و...

فجأة، قفز حل ما إلى ذهنه..

حل بدائي..

وفعّال..

"رقم واحد.. احضر إلى هنا فوراً.."..

نطقها في صرامة، إلا أنه شعر بعدها بإرهاق شديد، يسري في كيانه كله، على نحو جعله يضيف في عصبية:

- بعد عشر دقائق.

جاءه صوت رقم واحد، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول:

- أوامرك أيها الزعيم الـ..

قطع حديثه بضغطة زر عصبية، وهو يبدأ إجراءات إخراج تلك الاسطوانة، من منتصف قاعته، ثم يهبط إليها، وهو يشعر بتخاذل شديد في ساقيه..

الأمر لم يعد كما كان من قبل..

خلاياه لم تعد تستجيب لأشعة التنشيط وكيميائيته، كما كانت تفعل من قبل..

في كل مرة، أصبحت استجابتها أقل..

وأقصر..

منذ عامين فقط، كان يستخدم هذا الأسلوب كل شهر كامل..

ومنذ عام، أصبح يحتاج إليه أسبوعياً..

ومنذ شهرين فحسب، أصبح احتياجه يومياً..

والآن، ومنذ وصل ذلك القادم إلى عالم، لم يعد جسده يكتفي بمرة واحدة يومياً..

وهذا يعني أن خلاياه لم تعد تحتمل..

وأنها قد بدأت تنهار..

وهذا ما أخبره به طاقم العلماء، منذ نصف قرن، وما أغضبه منهم، ودفعه إلى إعدام معظمهم..

أخبروه -يومئذ- أن هذا الأسلوب لن يمنحه خلوداً..

فقط سيجدّد خلاياه لفترة ما..

فترة محدودة، مهما بلغ طولها..

فترة قد تدم نصف قرن أو أكثر..

ولكنها حتماً ستنتهي..

وحتماً ستنهار الخلايا يوماً ما..

ويبدو أن هذا اليوم يقترب..

وبسرعة..

حاول أن يسترخي في ذلك المقعد، في منتصف الاسطوانة، ويترك خلاياه تنتعش..

وتنتعش..

وتنتعش..

ولكن ذهنه ظل مشتعلاً..

لقد منح العلماء كل ما يريدونه أو ينشدونه، لتطوير جهاز تجديد الخلايا..

ولا ريب في أنهم قد طوّروا فيه الكثير..

ولكن المبدأ لم يتغيّر..

الخلايا حتماً ستنهار..

وإن طال الزمن..

ولكنه لن يسمح بضياع عمره، دون أن يحقّق ما يحلم به..

لقد سيّطر على عالمه..

وبقي ذلك العالم الآخر..

العالم الموازي..

خرج من اسطوانة التنشيط، وقد استعادت خلاياه شيئاً من حيويتها، وبقي ذهنه ملتهباً بأفكاره..

وعندما استقر على عرشه، وصل رقم واحد، الذي رفع يده بامتداد جسده، وهتف بكل قوته:

– هايل هتلر.

جاوبه بإيماءة صارمة من رأسه، وقال:

– أريد محاصرة دائرة كبيرة من الأطلال، نصف قطرها عشرة كيلومترات.. ألدينا ما يمكن أن يصنع هذا؟!

أجابه رقم واحد:

– لن يكون هذا هيناً، ولكنه ليس مستحيلاً أيها الزعيم الكبير.

أومأ (هتلر) برأسه، وقال بنفس الصرامة:

– اجعل مركزها تلك البقعة، التي حدثت عندها المواجهة الأخيرة.

قال رقم واحد في حزم:

– كما تأمر أيها الزعيم العظيم.

وتردّد لحظة، ثم تساءل في حذر:

– وماذا سنفعل بعدها؟!

صمت الفوهلر لحظة، ثم قال:

– سنغمر منطقة الحصار كلها بسائل حارق، ينتشر بين الأطلال، ويتغلغل فيها، ويسيل في كل وكر أسفلها.. سائل يجبر الفئران على الخروج من جحورها..

وصمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف:

– إلينا.

وفهم رقم واحد ما يعنيه تماماً..

وعلى الرغم من أنه نسخة طبق الأصل منه، إلا أن الفكرة جعلت قشعريرة باردة تسري في عروقه..

فقد بدا له هذا صورة مجسّمة للقسوة..

صورة اعتادها زعيمه..

ومصدر وجوده..

ولأوّل مرة في حياته، وجد نفسه يتساءل: كيف يختلف أسلوب تفكيره، وتختلف مشاعره، عن الرجل الذي استنسخوه منه؟!..

كيف؟!

لقد تصوّر دوماً أنه ما دام قد تم استنساخه، من خلية واحدة، من جسد الزعيم العظيم، فلابد وأن يصبح نسخة تامة منه..

نسخة من مشكلة..

وهيئته..

وملامحه..

وحتى أفكاره وملامحه..

ولكن هذا لم يحدث..

العلماء، الذين أعدمهم الفوهلر، كانوا على حق إذن..

الاستنساخ لا يصنع نسخة طبق الأصل أبداً..

هذا لأن الإنسان ليس وليد الجينات والوراثة فحسب..

إنها عوامل ثلاثة..

الوراثة..

والبيئة..

والتفاعل مع البيئة أيضاً..

لقد نما هو، على نحو مخالف لما نشأ عليه الزعيم..

وحتى جسده، يختلف تماماً..

وكذلك أفكاره..

ومشاعره..

"ما الذي توصّل إليه العلماء، بشأن الغزو؟!.."..

انتزعه سؤال الزعيم من أفكاره، فاعتدل وشد قامته، وأجاب في سرعة:

- النتائج إيجابية، أيها الزعيم العظيم.

التقى حاجباه الزعيم في شغف، وهو يقول:

- من أي جانب؟!

أجابه في ثقة:

- من الجانبين أيها الزعيم.. لقد توصلوا إلى كيفية توفير الطاقة اللازمة، لفتح الثغرة بين العالمين، لأطول فترة ممكنة، و...

قاطعه الفوهلر، في شغف شديد:

- وماذا عن جنودنا؟!

أجابه في اعتداد:

- عبور الثغرة يكسب من سيتبقى منهم قوة هائلة، في العالم الموازي.

قال الزعيم في لهفة:

– إذن فهذا يسري على الاتجاهين.

أومأ رقم واحد برأسه إيجاباً، وقال:

– بالضبط أيها الزعيم.. عبور الثغرة، من عالم إلى آخر، يمنح من يتبقى حياً قوة هائلة، ولا أحد يعلم لماذا يحدث هذا علمياً.

تساءل الزعيم في قلق:

– وكم سيتبقى حياً، في رأى العلماء؟!

أجابه رقم واحد في تردُّد:

– النسبة مع الآلات والتنانين، تبلغ مائة في المائة تقريباً، أما بالنسبة للبشر فـ..

بتر عبارته فجأة، فاعتدل الفوهلر في عصبية، وقال:

– فماذا؟!.. كم نسبة من سيتبقى منهم؟!

تردَّد رقم واحد لحظة أخرى، قبل أن يجيب في توتر حذر:

– لن تزيد عن خمسين في المائة.

انعقد حاجبا الزعيم الكثين، وهو يتراجع في مقعده، ويفكِّر في عمق، قبل أن يقول، وكأنه يحدِّث نفسه:

– ولكنهم سيكتسبون هناك قوة خارقة، شبيهة بتلك التي اكتسبها ذلك القادم، وسيصبحون أشبه بمائة وخمسين في المائة.. على الأقل.

تردَّد رقم واحد لحظات، ثم آثر الصمت، فلم يعلِّق على عبارة الزعيم.. ربما لأنه يجهل الجواب فعلياً، فاستغرق الزعيم في التفكير بضع لحظات أخرى، وهو يعقد كفيه أمام وجهه، ويدرس الموقف كله، ثم لم يلبث أن اعتدل بحركة حادة، وقال:

– ماذا تنتظر إذن؟!

شدَّ رقم واحد قامته، بحركة عسكرية تقليدية، وهو يجيب:

– أوامرك أيها الزعيم الكبير.

أشار الفوهلر بيده، قائلاً:

– دع القوات تستعد، اعتباراً من هذه اللحظة؛ لساعة الصفر.

سرى توتر ملحوظ، في جسد رقم واحد وصوته، وهو يقول في حذر:

– كل القوات؟!

لوَّح الفوهلر بيده، وأطلَّ بريق باهت من عينيه، وهو يقول:

– أريد مليوني جندي، وألف مدرَّعة، وألف طائرة، من أحدث ما لدينا..

شعر رقم واحد أن الأمر سيبدو أشبه بمذبحة كبرى، وهو يقول، في حذر متوتر:

– هذا يعني التضحية بمليون مقاتل تقريباً!

زمجر الزعيم، وهو يقول في قسوة:

– للنصر ثمنه.

غمغم رقم واحد، عن غير اقتناع:

- بالتأكيد.

نهض الفوهلر من عرشه، بحركة حَوَت ما تبقى من نشاطه، وهو يقول في صرامة، امتزجت بجذل وحشي:

- سنرسل مائة عملاق آلي في البداية، مع خمسين تنيناً، وعشرة (وارما) كدفعة أولى.. ثم ضعف هذا كدفعة ثانية، وعندما ينشغل العالم الموازي في حرب طاحنة، مع أسلحتنا الآلية والحيوية المدمرة، سنرسل قواتنا على دفعتين، مع آلياتها ومعداتها.

غمغم رقم واحد:

- وسنضحي بمليون مقاتل.

التفت إليه الفوهلر بحركة حادة، وصاح في غضب:

- ماذا أصابك؟!

انتفض رقم واحد، وهو يعتدل مرة أخرى في سرعة، فاستطرد الفوهلر في قسوة:

- هل تخاذلت أم ماذا؟!

أجابه في سرعة:

- مطلقاً أيها الزعيم العظيم.

أشار الزعيم بيده، صائحاً بكل الصرامة:

- نفذ الأوامر إذن.

هتف رقم واحد:

- فوراً أيها الزعيم العظيم.. فوراً.

قالها، وانصرف بسرعة لتنفيذ الأوامر..

ولكنه، ولسبب ما، لم يكن يشعر بالارتياح..

لم يكن يشعر به أبداً..

الفوهلر أيضاً لم يكن يشعر بالارتياح..

ولكن لسبب مختلف تماماً..

فانفعال اللحظات الأخيرة، جعل جسده يشعر بالإرهاق..

إرهاق شديد، لم يشعر بمثله من قبل..

وهذا بعد أقل من نصف الساعة، من تجديده لنشاط وحيوية خلاياه..

فما الذي يعنيه هذا؟!..

هل انهارت خلاياه بالفعل، أو بدأت طريق الانهيار، حتى لم تعد تحتمل مجرَّد الانفعال؟!..

هل؟!..

أورثته الفكرة توتراً شديداً، جعله يضغط زر جهاز اتصال آخر، أوصله برئيس فريق علمائه فوراً، فسأله في صرامة:

- أما زلتم تحتاجون إلى ذلك القادم؟!

أجابه رئيس الفريق في سرعة:

– وبشدة أيها الزعيم؛ فدراستنا للتغيرات التي أصابته، مع انتقاله عبر عالمين، ستساعدنا على تأمين الجنود، الذين يستعدون للانتقال إلى عالمه.

سأله الفوهلر في صرامة، وهو يشعر بتخاذل نشاطه التدريجي:

– هل سيقلّل هذا من نسبة الخسائر؟!

أجابه رئيس الفريق في توتر:

– إلى حد كبير.

انعقد حاجبا الفوهلر الكثين، وقال في صرامة:

– ستحضره إليكم إذن.. وفي أسرع وقت ممكن.

جاوبه صمت، استغرق لحظات، قبل أن يهتف في غضب:

– أين ذهبت؟!

أجابه رئيس الفريق، في ارتباك شديد:

– معذرة أيها الزعيم العظيم، ولكنهم أحضروا فرساننا المدرعين الثلاثة الآن، و...

قاطعه الزعيم في حدة:

– ماذا تنتظر إذن؟!.. افحصهم، واعمل على إسعافهم فوراً..

غمغم الرجل، في ارتباك أكثر:

– كما تأمر أيها الزعيم.. كما تأمر.

أنهى الزعيم الاتصال في حدة، ليعود إلى اسطوانة تجديد الخلايا، في حين شعر رئيس الفريق بارتباك أكثر، وهو يقول لأفراد فريقه:

– افحصوا علاماتهم الحيوية، وانظروا أيهم يحتاج إلى إسعاف عاجل.

أسرع أفراد الفريق يوصلون الدروع الإليكترونية بأجهزتهم، التي راحت مؤشراتها الرقمية ترسل إشارات مختلفة، قبل أن يقول أحدهم:

– اثنان منهم تعرّضوا لصدمة شديدة، ولولا الدروع لفقدوا حياتهم بسببها، ومعدلاتهم الحيوية منخفضة إلى حد كبير، وسيحتاجون إلى نزع الدروع، وكثير من الإسعافات.

تساءل في اهتمام:

– وماذا عن الثالث؟!

أجابه آخر:

– المدهش أن معدلاته الحيوية على عكسهما، أعلى بكثير من المعدلات الطبيعية، كما لو أن الصدمة قد أنعشت خلاياه، بدلاً من أن تخفض نشاطها.

انعقد حاجبا رئيس الفريق، وهو يغمغم في دهشة:

– عجباً!

راجع بنفسه كل المؤشرات الحيوية، ثم هزّ رأسه في حيرة، قائلاً:

– فليكن.. انزعوا دروعهم عنهم، وليتم نقل الأوّلين إلى مركز الإسعاف، وسأفحص الثالث بنفسي.

عاد الرجال يوصلون دروع الفرسان الثلاثة بأجهزتهم الخاصة، لفك شفرة تلك الدروع الرقمية الإليكترونية..

وعندما أطلق الجهاز أزيزاً خاصاً، كان هذا يعني أن نزع الدروع قد صار آمناً تماماً..

وفي أسلوب نمطي، من الواضح أنهم قد تدرّبوا عليه طويلاً، راح الرجال ينزعون دروع الفارسين المصابين، في حين توقّف رئيس الفريق أمام الثالث متردداً، وهو يتساءل: كيف يمكن أن يحدث هذا؟!..

كيف؟!..

كيف يتعرّض ثلاثة فرسان، لهم التكوين الجيني والجسماني نفسه، إلى عامل واحد، فينهار اثنان، وينشط الثالث؟!..

كيف؟!

لم يكن لديه أي تفسير علمي، خاصة وأن الثلاثة فاقدو الوعي، لذا فقد بدأ في نزع درع الثالث، باعتبار أن الفحص المباشر، هو الذي يمكنه إجابة السؤال..

استجاب له الدرع في يسر، بعد فك شفرته، فبدأ بنزع الخوذة، و..

وتراجع بحركة حادة عنيفة..

فما وجده أمامه كان مفاجأة..

شديدة العنف!

* * *

الفصل الثامن عشر

دائرة هائلة، من تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، ملأت السماء، فوق جبال المنطقة الشرقية، حيث نقطة الإحداثيات المرسلة..

دائرة تتكوّن من ألف جسم مستدير مضيء..

على الأقل..

وفي بطء، ومع تبادل أضواء وألوان مستمر، راحت تلك الدائرة تدور..

وتدور..

وتدور..

وبكل ذهول الدنيا، تعلّقت عيون الجميع بذلك المشهد..

وفي أعمق أعماقهم، شعروا بالخوف..

والقلق..

والتوتر..

والعجز..

إذا كانت ثلاثة أجسام من هذه، قد أوقفت سرب مقاتلات كامل..

فماذا سيفعل كل هذا العدد؟!..

وفقاً لأي منطق، هو قادر على سحقهم بلا رحمة، لو قرّر هذا..

أو لو دفعتهم حماقتهم هم إلى إطلاق رصاصة..

رصاصة واحدة..

لذا، فلقد كان أوّل من انتزع نفسه من ذهوله، هو القائد العسكري، الذي سأل (فراس) في صوت مرتجف، أقرب إلى الهمس:

- ماذا سنفعل؟!

لم يجبه (فراس)، الذي ظلّ يحدّق في السماء مأخوذاً، فكرّر في عصبية:

- هل نقاتل؟!

التفت إليه (فراس) بحركة حادة، هاتفاً:

- نقاتل ماذا؟!

ثم أشار بسبّابة مرتجفة إلى السماء، مضيفاً في حدة:

- هذا؟!

فتح القائد العسكري شفتيه وأغلقهما، دون أن ينبس ببنت شفة، دون أن يتوقّف، في كل الأحوال، عن مراقبة السماء، ومتابعة حركة تلك الأجسام، التي راحت سرعة دورانها تتزايد تدريجياً، وتبادل أضواءها وألوانها يتسارع، مما جعل كبير العلماء يغمغم في حيرة:

- ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!

سأله (فراس) مستنكراً:

- ألا يبدو هذا واضحاً؟!.. إنها تحاول إرهابنا.

انعقد حاجبا كبير العلماء، وهو يقول:

- إرهابنا؟!.. ولماذا تفعل؟!.. إنها أقوى منا بكثير، دون الحاجة إلى إثبات هذا.. يكفي أنها وصلت إلينا، دون أن نعرف حتى هويتها، أو من أين أتت.

قال (فراس) في عصبية:

- أو لماذا.

التفت إليه كبير في صمت، وهو يفكّر في كلمته الأخيرة..

نعم.. لماذا؟!..

لماذا جاءت تلك الأجسام الطائرة المجهولة؟!..

ولماذا في هذه اللحظة بالذات؟!

لماذا؟!..

"ليس لديك جواب هذه المرة.. أليس كذلك؟!.."

قالها (فراس)، دون أن يلتفت إليه، فعقد كبير العلماء حاجبيه دون أن يعلّق، واكتفى بمراقبة تلك الأجسام، التي تزايدت سرعتها إلى حد كبير، حتى بدت أشبه بدائرة ضوئية كبيرة في السماء، تتعاقب ألوانها على نحو مزعج، جعل القائد العسكري يغمغم:

- رباه!.. ماذا سيفعلون؟!

لم تكد عبارته تنتهي، حتى اندمجت تلك الأضواء فجأة، تألّقت المساحة

الدائرية بينها على نحو عجيب، ليس ضوءاً، ولكنه تألّق أشبه بانعكاس فسفوري في قلب السماء، و..

وفجأة، برز ذلك الشيء، من وسط التألّق..

جسم مستدير هائل، يكاد يبلغ حجم قرية كاملة، برز فجأة في السماء، وسط تلك الأجسام الطائرة المجهولة، التي راحت حركتها الدائرية تقل في سرعة، وذلك الجسم الهائل يبرز أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وامتلأت القلوب كلها برعب هائل..

ذلك الرعب الذي تصنعه مواجهة قوة عاتية، على نحو مباغت غير متوقّع..

وكرد فعل طبيعي وتلقائي، ساد المكان اضطراب شديد، جعل الجنود يتجاوزون كل القواعد العسكرية، ويتبادلون همهمات مذعورة، وبعضهم يتراجع، وكأنه يهم بالفرار من الميدان..

وبكل توتر وعصبية الدنيا، هتف القائد العسكري:

- فليبق كل منكم في مكانه.. سأقتل من يحاول الفرار من الميدان بلا رحمة.

لم يبد أن أحدهم قد سمع هتافه، وهم يحدّقون برعب وذهول في ذلك الجسم الهائل، الذي راح يهبط في بطء، في حين خفتت حركة الأجسام الأخرى،

حتى توقفنا تماماً، وكأنها قد انتهت من أداء مهمتها..

وبينما هو معلّق بمقاتلاته ورجاله في سماء المعركة، حدّق قائد السرب السادس في ذلك الجسم الهائل، مردّداً كلمة واحدة:

- يا إلهي!.. يا إلهي!

كان هذا أضخم جسم طائر رآه، في حياته كلها..

أو حتى في أحلامه..

أو كوابيسه..

وكطيار محنّك، يدرك تماماً أهمية السيطرة، على سماء المعركة، أدرك أنه أمامه قوة هائلة..

قوة لا قبل له بمواجهتها..

لا بسربه..

ولا حتى بالقوات الجوية كلها..

ولقد واصل ذلك الجسم الهائل هبوطه، حتى أصبح فوق سربه المعلّق في السماء مباشرة، فبدا له ورجاله أنه سيسحقهم سحقاً..

ولكنه توقّف هناك، على ارتفاع مائة متر منهم، ثم بدأ يتألّق كله بضوء مبهر.. ضوء غشى أبصار الجميع، وقد بدا أشبه بالشمس، وقد اقتربت من الأرض، دون حرارتها الشديدة..

ومع الألم والضوء الساطع، أغلق الجميع عيونهم بشدة، وهتف (فراس) في

عصبية:

– ماذا يفعلون؟!... يصيبوننا بالعمى؟!

هتف كبير العلماء، وهو يشعر بتيارات هوائية عنيفة من حوله:

– هذا أحد أهدافهم حتماً.

صاح (فراس)، وهو يبحث عن منظاره الشمسي في جيبه:

– أحد أهدافهم؟!

صاح كبير العلماء، وهو يحاول الاحتماء من أمر يجهله:

– ألا تشعر بما يحدث حولهم يا رجل.. إنهم يطلقون أشعة الليزر.. ألا نسمع أزيزها، وهي ترتطم بالأرض من حولنا.

هتف (فراس)، وهو يرتدي منظاره الشمسي الداكن:

– إذن فقد بدءوا الهجوم.

كانت أذناه تلتقطان بالفعل أزيز أشعة الليزر، وهي تضرب الأرض من حولهم، ويشعر بحركة الرياح، التي تشف عن دوران تلك الأجسام في كل مكان، والضوء يغشي عينيه، على الرغم من منظاره الداكن..

ثم فجأة، توقَّف كل هذا..

توقَّفت الأصوات..

والرياح..

وخبا الضوء..

وساد صمت رهيب..

مهيب..

مخيف..

ولثوان، وعلى الرغم من خبو الضوء، لم يستطع أحدهم أن يفتح عينيه، فيما عدا (فراس)، الذي ساعده منظاره الداكن على أن يفتح جفنيه في بطء، ويحدِّق في ذلك الجسم الهائل، وهو يرتفع مرة أخرى، وتلك الأجسام الأخرى تأتي من كل اتجاه؛ لتصنع الدائرة مرة أخرى، ثم تبدأ في الدوران وتبادل الأضواء والألوان..

ولكن في الاتجاه العكسي..

وفي بطء، راح الجسم الهائل يرتفع نحو الدائرة التي صنعتها تلك الأجسام، والتي عادت تتألَّق على هذا النحو الفسفوري، حتى بلغها الجسم الهائل، أمام العيون، التي راحت تتفتح في بطء..

ثم، وكما ظهر تماماً، عبر الجسم الهائل الدائرة المتألِّقة، ثم تلاشى تماماً، وكأنما ذاب في العدم، الذي أتى منه مسبقاً..

وعادت العيون كلها تتسع في ذهول..

وفور اختفاء ذلك الجسم الهائل، انطلقت الأجسام الأخرى في كل الاتجاهات، وسرعان ما اختفت في السماء، بعيداً عن الأعين..

وفي صوت ذاهل مذعور، هتف القائد العسكري:

– يا إلهي.. مقاتلونا!

واتسعت العيون كلها مرة أخرى..

فوسط السماء الخالية، لم يكن هناك أثر لمقاتلات السرب السادس..

أدنى أثر..

وبكل توتر الدنيا، راح (فراس) يمسح السماء ببصره، وقد أذهله اختفاء كل هذا العدد من المقاتلات، خلال لحظات قليلة..

وفي وجود الجميع..

الآن عرف لماذا كان هذا اللقاء، في جبال المنطقة الشرقية..

كان استعراض قوى..

تلك الأجسام الطائرة المجهولة كانت تستعرض قوتها، وتكشر عن أنيابها، حتى تبث الرعب في القلوب، وتحطّم الروح المعنوية، قبل أن تنقض..

وقبل أن تبدأ غزوها..

الغزو الشامل..

"رباه!.. ما هذا؟!.."..

هتف كبير العلماء بالعبارة، فانتزع (فراس) من أفكاره في عنف، وجعله يلتفت إليه في عصبية، هاتفاً:

– ماذا أيضاً؟!

أشار كبير العلماء إلى الرمال حولهم، وهو يقول بمنتهى الاضطراب:

– هنا.

تلفّت (فراس) حوله، وتضاعف توتره مع دهشته ألف مرة..

بل آلاف المرات..

فمن حول الجميع، كانت الأشعة، التي أطلقتها تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، قد أحرقت الرمال تماماً، ورسمت دوائر سوداء متداخلة..

دوائر شديدة الاتساع..

والانتظام..

وكان هذا يضاعف من حيرة الموقف وغموضه..

إلى أقصى حد ممكن..

وبينما يحدّق (فراس) فيما حوله، ذاهلاً متوتراً، غمغم كبير العلماء في عصبية:

– فعلوها مرة أخرى إذن.

استدار إليه (فراس) بحركة حادة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يقول:

– مرة أخرى؟!

أشاح كبير العلماء بوجهه، دون تعليق، فكرّر (فراس) في حدة، وهو يمسكه من ذراعه في قوة:

– أية مرة أخرى؟!

لم يجب كبير العلماء في هذه المرة أيضاً، فهتف (فراس) في غضب:

– إذن فقد كنت تعلم.

فجأة، تداخلت الأحداث والمعلومات في ذهنه، وتراصت على نحو لم يخطر بباله من قبل، فانعقد حاجباه بمنتهى الشدة، وهو يتراجع، ويفلت ذراع كبير العلماء، مغمغماً بمنتهى العصبية:

- جميعكم كنتم تعلمون.

نطقها، والغضب يعربد في أعماقه..

بمنتهى الشدة..

فقد كان ما عرفه في هذه اللحظة، هو صدمة..

صدمة عنيفة..

ولكنها، ومهما بلغ عنفها، لم تكن لتبلغ نصف عنف تلك الصدمة، التي أصابت رئيس الفريق العلمي، في العالم الموازي، عندما نزع خوذة الفارس المدرّع، ليجد تحتها وجهاً، لا يشبه الفوهلر، من قريب أو بعيد..

وجه (عزت)..

وفور نزع الخوذة، تحرك (عزت)، وقبض على عنق رئيس الفريق، وهو يقول في توتر:

- مفاجأة!.. أليس كذلك؟!

احتقن وجه رئيس الفريق، مع الصدمة والمباغتة، ومع ضغط أصابع (عزت) القوية على عنقه، وحاول أن يصرخ، ولكن صوته اختنق في حلقه، فلم تصدر عنه سوى حشرجة مكتومة، كانت كافية ليلتفت إليه الفريق كله، ولتنفجّر الدهشة في

نفوسهم، مع رعب لم يختبروه من قبل قط.

وفي لحظة واحدة، سادت الفوضى في المكان، والكل يعدو، محاولاً الهروب من المكان، ومن (عزت)، الذي وثب على قدميه، في ذلك الدرع الثقيل، الذي بدا وكأنه في وزن ريشة طائر صغير، وهو يرتديه..

وفي حركة سريعة عنيفة، ألقى رئيس الفريق بعيداً، ليرتطم بالأرض، ويزحف جسده عليها، حتى يعوق اندفاع أفراد الفريق نحو الباب..

وبوثبة واحدة، قطع (عزت) أربعة أمتار في الهواء، بذلك الدرع الثقيل، وهبط أمامهم مباشرة..

وفي رعب أكبر، تفرّقوا في كل الاتجاهات، واندفع أحدهم نحو زر بالجدار، وضغطه بكل قوته، وهو يصرخ:

- النجدة.. دخيل.. النجدة.

استقبل رقم واحد الهتاف، فارتفع حاجباه في دهشة، وانتفض جسده كله، من أثر المفاجأة!..

دخيل؟!..

مستحيل!..

هذا أمر لم يحدث من قبل قط، منذ بناء (فوربادا)، واتخاذها كمقر للحكم!!..

وسائل الأمن شديدة القوة والعنف والتعقيد، حتى ليستحيل أن تعبر

بعوضة إلى (فورباتا)، دون أن ينكشف أمرها..

فما بالك بدخيل؟!..

"ماذا تنتظر؟!.."..

اخترقت صرخة الفوهلر أذنيه، وانتزعته من دهشته بمنتهى العنف، فانتفض مرة أخرى، قبل أن يندفع صائحاً:

- فوراً أيها الزعيم.

كان يعلم أن الزعيم قد استقبل الاستغاثة نفسها، عبر أجهزة قاعة الحكم، وأنه لن يغفر أي تقاعس أو تهاون، في موقف كهذا..

دخيل في (فورباتا)..

يا لها من كارثة!..

ومن سابقة بالغة الخطورة..

أطلق صفارة الإنذار الكبرى، التي تنطلق في المكان لأوّل مرة، وهو يعدو نحو القاعة، التي احتلها (عزت) تقريباً، ثم أفسح الطريق لعلمائها، قائلاً في صرامة:

- اخرجوا.

قالها بالإنجليزية، فانطلق العلماء يفرون، بكل الرعب والفزع في أعماقهم، تاركين القاعة كلها خلفهم، ليبقى فيها (عزت) وحده..

مع كل الآلات..

وكل الأجهزة العلمية..

وعلى الرغم من دقة واضطراب الموقف، ومن صفارة الإنذار القوية، التي تنطلق متصلة في المكان، استنفر (عزت) كل هدوئه وتماسكه، وحاول أن يبث في كيانه أقصى درجات الهدوء، وهو يتطلّع إلى تلك الأجهزة، محاولاً استيعاب توجهاتها واتجاهاتها..

وعبر شاشات الرصد الداخلية، تابع الزعيم الكبير الموقف، وانعقد حاجباه الكثّان، وهو يغمغم في عصبية:

- كيف؟!

لم يكن يتساءل كيف حدث هذا؛ فقد استوعب بسرعة، بحكم متابعته للموقف، كيف نجح ذلك القادم في خداع الجميع، وعبور وسائل الأمن إلى القلعة، لكن ما يحنقه هو أن هذا قد حدث..

ولأوّل مرة..

وهذا أيضاً بسبب أنه لم يستعد، طوال أكثر من نصف قرن، لمواجهة خصم ذكي، قادر على متابعة التطور والتعامل بعقل وجرأة، مع قوة نازية، تفوقه علماً وتسليحاً..

وهذا خطأ..

أكبر خطأ..

ولكنه حدث..

ولابد من مواجهته..

وبمنتهى الشدة، والعنف..

والذكاء أيضاً..

اعتصر ذهنه في قوة، بحثاً عن أسلوب مناسب؛ لإنهاء الموقف، والإيقاع بذلك الدخيل حياً، في الوقت ذاته..

والأهم أن يكون أسلوباً قوياً، يحفظ هيبته، ويثبت قوته وبأسه أمام الجميع.. أمام نسخائه..

وجنوده..

ومحكوميه..

ولكن كيف؟!..

كيف؟!..

دار هذا في ذهنه، وهو يتابع (عزت) على الشاشة، وهو يتجه نحو أحد الأجهزة، التي انتقاها من بين المجموع، فغمغم الفوهلر، وهو يعتدل بحركة حادة على عرشه:

- اللعنة!

هتف بالكلمة، وقد أدرك أي جهاز هذا، الذي يتجه نحوه (عزت)..

وفقاً لخبرته في عالم الإليكترونيات الرقمية، انتقى (عزت) ذلك الجهاز بالذات، واتجه نحوه مباشرة، ثم استجمع قوته، وهوى عليه بقبضته بمنتهى القوة..

ومع ما اكتسبه، في ذلك العالم الموازى، اخترقت قبضته واجهة الجهاز، وقبض على كونه من أسلاكه، وانتزعها في عنف..

ومع الشرارات العنيفة، التي انطلقت من الجهاز، انقطع البث من كل شاشات المراقبة في (فوربادا) دفعة واحدة..

وفي قاعة عرشه، احتقن وجه الفوهلر في شدة، وصرخ في غضب هادر:

- حقير.

كان يكاد ينفجر غضباً، مما فعله (عزت)، الذي حوَّل الجميع، في ضربة واحدة، إلى جيش من العميان، يقاتل دون أن يرى، أو يعرف ما يفعله عدوه..

وهذا ما يحنقه أكثر..

إنه لا يعرف..

ولأوَّل مرة في حياته..

"تم الحصار أيها الزعيم.. ننتظر الأوامر بإطلاق السائل الحارق"..

انبعث الصوت فجأة، من جهاز الاستماع إلى جواره، فانعقد حاجباه في غضب ومقت..

لقد كاد ينسى ما سيفعله بالمقاومين..

ذلك الدخيل، من العالم الموازى أنساه كل شيء..

أنساه القضاء على المقاومة..

والاستعداد للغزو..

ولكن لا.. لن يحجبه مخلوق واحد عن حلمه..

حتى ولو كان من عالم آخر..

فمهما كانت قوته وإمكانياته، فهو ما زال داخل (فوربادا)، وتحت سيطرته وسيطرة رجاله..

ثم أنه مجرَّد رجل واحد..

رجل في مواجهة دولة..

اقوى دولة في هذا العالم..

ومهما فعل، فلن يمنعه عن المُضي قدماً في حلمه..

حتى النهاية..

لذا، فقد بدا شديد الغضب والقسوة والصرامة، وهو يضغط زر الاتصال، قائلاً:

- أطلقوا السائق الحارق.

أنهى الاتصال، والتقى حاجباه الكثّان، على نحو جعل هيئته شديدة البشاعة، وهو يكمل لنفسه:

- وليستعد الجميع للغزو.. غزو العالم الآخر.

واتبع هذا بالضغط علي كل أزرار الاتصال؛ ليطلق الإشارة الكبرى..

إشارة الغزو..

غزو عالمنا..

بلا رحمة..

"كنتم تعلمون.."..

نطق (فراس) العبارة في غضب واضح، في حضرة الجنرالات الثلاثة، في مقر القيادة، فلاذ الثلاثة بالصمت التام، وهم يتطلعون إليه، فأكمل في حدة:

- لهذا لم يدهشكم، أو حتى يثير استنكاركم افتراض وجود غزو من عالم خارجي.. لقد تقبلتم الأمر في بساطة، لست أدرى كيف لم تثر الشكوك في نفس لحظتها.. كيف؟!

أجابه المصري، قاطعاً حالة الصمت:

- أنت تعرف القواعد..

وأضاف السعودي:

- المعرفة بقدر الحاجة.

غمغم الكويتي في عصبية:

- التسلسل القيادي كان يحتم...

قاطعه (فراس) في عصبية أشد، دون أن يبالى بالقواعد العسكرية:

- إخفاء الأمر عني.. أليس كذلك؟!

صاح فيه المصري، في صرامة شديدة:

- انتبه لما تقول أيها العقيد.. أنت تقف في حضرة قادتك.

هتف (فراس):

– وثلاثتكم تقفون في مواجهة مصير العالم كله، والمفترض في هذه الحالة، ألا تخفون أية حقائق، عن طاقم العلماء، الذي يواجه الأمر فعلياً، على الأقل حتى لا يخطئ تفسير النتائج.

صمت الثلاثة لحظة، وكأنهم يعترفون بالخطأ، ثم قال السعودي في خفوت:

– لقد أخفينا عنهم الأمر للسبب نفسه.

تراجع (فراس) في دهشة، فأضاف الكويتي، وهو يتنحنح في توتر:

– الواقع أن تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، قد بدأت محاولة الاتصال بنا، منذ ما يقرب من شهرين، وتزايدت مشاهداتها، في أطراف نائية من المملكة السعودية، ومواجهاتها غير المباشرة مع قواتنا، وعلى الرغم من بعض المشكلات والحوادث، التي نجمت عن أخطاء من قواتنا، أو تصرفات متهوِّرة من بعض القادة، فتلك الأجسام لم تبد أية ميول عدوانية، بل بدا وكأنها تقوم بدراستنا، ومحاولة فهم واستيعاب أساليبنا وقوتنا.

صمت عند هذه النقطة، فأكمل السعودي:

– ثم بدأت تلك الأحداث الغامضة، في الربع الخالي... ولما كان المنطق العسكري لا يؤمن بالمصادفات، فقد افترضنا فوراً وجود رابط ما، بين تلك الأجسام الطائرة المجهولة، وما يحدث في الربع الخالي، ولأننا خشينا أن يؤثر افتراضنا هذا على قرار طاقم العلماء، فقد أخفينا هذا، حتى نطلق العنان لتفكيرهم الحر.

صمت (فراس) لحظة، ثم قال في ضيق:

– كان يمكنكم أن تخفوا الأمر عنهم، وليس عني.

قال المصري:

– لو أخبرناك؛ لانعكس هذا على أسلوبك وأدائك، ولأدرك العلماء هذا.

كان منطقهم سليماً إلى حد كبير، إلا أن الأمر كله لم يرق له، فغمغم:

– ربما.

ساد الصمت في المكان لحظات، ثم قال الكويتي في اهتمام:

– ولكن ما رأي العلماء الآن، بعد أن اختفى ذلك الجسم الهائل، في ثغرة فضائية، تشبه تلك الثغرة الأرضية، التي تنبعث منها تلك الأشياء، في الربع الخالي؟!

هزَّ رأسه، قائلاً:

– ما زالوا يصرون على أنهما حدثان مختلفان تماماً.

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة، ثم تساءل المصري:

– بعد كل ما حدث؟!.. وبعد أن حدَّدت تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية موقع الثغرة، مع موقع اللقاء؟!

أجاب (فراس):

– الثغرتان مختلفتان، كما أشارت نتائج الفحص العلمي، فثغرة الربع الخالي ارتبطت بعاصفة كهرومغناطيسية سلبية عنيفة، في حين لم تسجل الثغرة الفضائية أية تغيرات، في المجالات الكهرومغناطيسية، ثم أن كل ما أتى عبر

الثغرة الصحراوية أبدى روحاً عدوانية عنيفة، في حين لم تحاول تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية اللجوء إلى العنف قط.

سأله السعودي في حدة:

– وماذا عن اختطاف مقاتلات السرب السادس؟!

أشار (فراس) بسبّابته، قائلاً:

– لو أنهم ينشدون العنف، لكان بإمكانهم إبادة جميع من كانوا في المكان، في لحظات قليلة.

قال المصري:

– ربما لم يكف وقتهم لهذا.. ولا تنس أنهم أحرقوا الرمال، كرسالة تحذيرية لنا.

قال (فراس) في سرعة:

– بل كرسالة فحسب.. وهذا رأى العلماء بالإجماع، وليس رأيي أنا.. لقد قارنوا تلك الدوائر المحترقة، التي رسمتها أشعة الأجسام الطائرة في منطقة الجبال، بآثار تركتها من قبل، في حقول (إنجلترا)، وبعض دول (أوروبا)، ويرون في كل هذا نوعاً من الشفرة، يرتبط أيضاً بالأضواء والألوان التي يبثونها، وكل هذا في رأيهم محاولة لإيجاد لغة حوار.. إنهم يبعثون لنا رسالة ما، لم نفهمها بعد.

غمغم المصري في انفعال:

– وهل سيمكننا فهمها، في الوقت المناسب؟!

قال (فراس):

– أتمنّى هذا؛ فقد استعان العلماء باثنين من أشهر خبراء الشفرة في العالم، أحدهما أمريكي، والآخر ياباني، ومعهم الآن أحدث وأقوى برامج الكمبيوتر، الخاصة بفك الشفرات، وكلهم عاكفون على دراسة كل لحظة تم تسجيلها، في محاولة لفك رموز تلك الرسالة الفضائية.

ساد الصمت لحظات أخرى، ثم تساءل السعودي:

– وماذا عن الثغرة الصحراوية؟!

هزّ (فراس) رأسه، قائلاً:

– الأمور هادئة هناك، منذ فترة طويلة، ولكن..

قبل أن يتم عبارته، انبعث أزيز منغوم، من جهاز اتصال خاص يحمله للطوارئ، فالتقطه بسرعة، قائلاً:

– (فراس).

انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدث، على نحو يوحى بأهمية وخطورة ما يبلغه، فانتبه الجنرالات الثلاثة في قلق متوتر، حتى قال في عصبية، قبل أن ينهي الاتصال:

– أنا قادم على الفور.

وعندما رفع عينيه، ارتطمت بعيون ثلاثتهم..

وكانت عيون الأربعة تحمل كل القلق..

والتوتر..

والخوف..

وفي صوت عصبي، سأله السعودي:

– ماذا هناك؟!

صمت (فراس) لحظات، وكأن الانفعال يكتم كلماته في حلقه، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من هذه الحالة، قائلاً في توتر شديد:

– لقد عادت الثغرة تنفتح.

وصمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف:

– وباتساع هائل هذه المرة.

وسرت ارتجافة عنيفة، في أجساد الجميع..

فهذا كان يعني أن الغزو قد بدأ..

وبقوة.

• • •

الفصل التاسع عشر

توتر شديد ساد (فوربادا)، مع وجود (عزت) داخل المكان..

كانوا أكثر من ألف شخص، نصفهم من نسخاه (هتلر)، يدعمهم ثلاثة آلاف آخرون، عند مداخل مدينة القيادة ومخارجها، وعلى الرغم من هذا، كانوا يشعرون بتوتر، ما بعده توتر..

رقم واحد بالذات، كان يشعر بمزيج معقَّد، من التوتر، والقلق، والاضطراب، والحذر..

ربما لأنها أوّل مرة منذ مولده، تتحطَّم فيها الأسطورة..

أسطورة (فوربادا)، التي لا تقهر..

فمنذ الأزل، بالنسبة إليه، لم يجرؤ أحد على مجرَّد الاقتراب من (فوربادا)..

لم يجرؤ شخص واحد على هذا، في عالمه كله..

ولكن ها هو ذا شخص يأتي من عالم آخر..

ليجرؤ..

ويقترب..

ويقتحم..

وبضربة واحدة، حوّل (فوربادا) كلها، من منطقة سيطرة كاملة، إلى منطقة عمياء، بعد أن دمّر نظم المراقبة بأكملها..

صحيح أنهم يحاصرونه داخل قاعة المراقبة..

ولكنهم لا يرونه..

ولا يعرفون ماذا يفعل؟!

أو ماذا يعرف..

الآن..

كان العلماء، في قاعة أخرى، يسعون لتوليد الطاقة اللازمة، لفتح الثغرة بأقصى اتساع ممكن، والقوات كلها تستعد للهجوم..

وللغزو..

الآليون..

والتنانين..

والجيوش..

مليون مقاتل كدفعة أولى، كانوا يستعدون لعبور الثغرة..

والغزو..

غزو عالمنا..

كل هذا، ورقم واحد ورجاله يحصرون قاعة الفحص والمراقبة، وهو يقول

في توتر، بذل قصارى جهده، ليجعله صارماً:

- سننقض من كل الأبواب دفعة واحدة.. لا تبالوا بالخسائر، ولا تحاولوا قتل الدخيل.. الزعيم أمر بإحضاره حياً..

أعقب قوله بإشارة استعداد، ثم إشارة هجوم..

وعلى الفور، انقض رجاله على أبواب القاعة..

بابها الرئيسي..

وأبواب الطوارئ السرية..

وبمنتهى العنف، اقتحم رقم واحد ورجاله المكان، وهو يشهرون أسلحتهم، متحفزون لحصار الدخيل وإصابته، في غير مقتل..

ولقد أطلق بعضهم أسلحته، على مستوى منخفض بالفعل..

وبكل المقاييس، كان هذا يحتم الإيقاع بالمهندس (عزت)، حتى ولو بلغت قوته ضعف قواهم مجتمعين، وفقاً للمبدأ الشهير: الكثرة تغلب الشجاعة..

لولا أمر واحد..

أن (عزت) لم يكن هناك..

كان قد حطّم عدداً من أجهزة القاعة..

ثم اختفى..

وبمنتهى الدهشة، حدّق رقم واحد ورجاله في فجوة بالجدار، والتفتوا إلى بعضهم البعض، قبل أن يقول هو في عصبية:

- لقد عبر إلى منطقة أخرى.

تساءل أحدهم:

- إلى أين؟!

لم يجبه رقم واحد، ولكنه تطلّع إلى الجدار لحظات، ثم قال في صرامة:

- أطلقوا نظم الفحص بالأشعة الحرارية.. سنحدّد موقعه بالضبط

في نفس اللحظة، التي بدأ فيها تشغيل النظم الحرارية، كان أحد رجال المقاومة يثب إلى القرية، قائلاً في توتر شديد:

- لقد حاصروا المنطقة كلها.

أشار (كوناد) بيده، هاتفاً:

- فليحتم جميعكم بكوخه.. احبسوا أنفاسكم، ولا تتبادلوا أية أحاديث، حتى لا يكشفوا موقعنا.

قال رجل المقاومة، بلغتهم المتزجة:

- ليس الحصار فحسب.

اقتربت (مارا) في خوف، و(كوناد) يسأله:

- ماذا أيضاً؟!

مال الرجل نحوه، وارتجف صوته، على الرغم من قوته، وهو يقول:

- إنهم يطلقون سائلاً حارقاً.

اتسعت عينا (كوناد) في ارتياع، وغمغمت (مارا) في رعب، وهي تلتصق

به:

- (آزت)... (آجور).

ضمها إليه (كوناد) في رفق أبوي، وهو يردّد مذعوراً:

- سائل حارق.

قال الرجل في توتر خائف:

- رائحته وحدها قتلت بعض الحيوانات الصغيرة.

انعقد حاجبا (كوناد) في شدة، والرجل يتابع:

- لن يكون هناك مهرب منه أبداً.

راحت (مارا) تبكي في ارتياع شديد، وهي تردّد الاسمين، وتكرّرهما طوال الوقت، فضمها (كوناد) إليه أكثر، وهو يقول:

أخبر الجميع أن يحيطوا أنوفهم بمناديلهم؛ حتى يتقوا الرائحة، وأجمع الرجال كلهم.. سنحاول حفر ممر خاص، يبعد ذلك السائل عنا.

أسرع الرجل لتنفيذ الأمر، في حين رفعت (مارا) إلى (كوناد) عينين مذعورتين ضارعتين، وهي تقول باكية:

- (أزت) و(أجور).

زفر الشيخ، قائلاً:

- اطمئني يا (مارا).. سينجو الجميع.. سينجو الجميع، إذا ما تضرعنا إلى الله.. ذلك الذي أخبرنا به (سافور).

مع قوله هذا، بدأت رائحة ذلك السائل الحارق تتسلّل إلى أنفه، فدفع (مارا) رفق، قائلاً:

– اذهبي إلى كوخي، واحتمي بأعلى مكان فيه.. ولا تنسي حماية أنفك وفمك من الرائحة.

أومأت برأسها إيجاباً، وأسرعت إلى كوخه بالفعل، في حين تسلّق هو بعض الصخور، ليلقي نظرة على المكان..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

ففي مساحة دائرية كبيرة، كان ذلك السائل، ذي اللون الذهبي، ينساب بين الصخور..

ويذيبها..

ويصهرها في عنف..

ومنه كانت تتصاعد أبخرة داكنة، تكاد تسير مع سطحه، من شدة ثقلها..

وكان يزحف نحو قريتهم السرية..

نحوها مباشرة..

والموت يضيق، ويقترب..

ويقترب..

ويقترب..

ولما بدا له الأمر حتمياً، وبدت له النجاة مستحيلة، غمغم (كوناد)، فيما

بدا له كأمل أخير:

– (سافور).. (سافور).

ثم توقّف لحظة، مستعيداً كلمات (عزت) وتعليماته، قبل أن يهتف:

– أنقذنا يا الله.

أطلقها بكل قوته، حتى أن أجهزة قوات الحصار التقطتها في وضوح، وأشار الجندي الذي التقطها إلى قائده، فانعقد حاجباه، قائلاً:

– هذا يثبت أننا على الطريق الصحيحة.. وأن المقاومة هناك..

وتألّقت عيناه، وهو يضيف:

– في وسط دائرة الحصار.

سأله رجاله:

– هل نوجّه إليهم ضرباتنا.

أشار إليه القائد، قائلاً:

– ادخر ذخيرتك يا رجل.. سنوجه ضربتنا إلى من يبقى حياً منهم، بعد أن تُغلق دائرة السائل الحارق.

وابتسم في سخرية وحشية، مستطرداً:

– هذا لو بقي أحدهم حياً.

الحياة والموت..

هذا بالضبط ما دار في ذهن (عزت)، وهو يتحرّك بسرعة، في ممرات

(فورباذا)..

لم يكن يدرى حتى كيف اكتسب الجرأة؛ ليقدم على هذا؟!..

كيف؟!..

في عالمه، وعلى الرغم من عبقريته في مضماره، لم يكن يجرؤ حتى على مواجهة رؤسائه..

أو على اعتراض أوامرهم..

ثم سقط هنا..

في هذا العالم الموازى..

في ظل الأرض..

وفجأة، وجد جسده النحيل يكتسب قوة هائلة..

ونفسه تزداد حزماً..

وعزماً..

وجرأة..

ها هو ذا يجرؤ على مواجهة جيش كامل..

بل دولة..

بل أقوى نظام نازي ديكتاتوري، في هذا العالم..

النظام الذي ساد ظل الأرض..

وسيطر على كل النظم..

وها هو ذا داخل مقر قيادة الوحوش..

ويواجههم كلهم..

وحده..

ولا يمكنه أن يجزم حتى، لماذا يفعل هذا؟!..

ولأجل من؟!..

الشعب..

أم المقاومة..

أم (مارا)..

أم هي الحرية، التي يؤمن بها دوماً..

نعم..

ربما يفعله بالفعل من أجل الحرية..

حرية عالم كامل، وقع تحت قبضة الطغيان والظلم والجبروت، منذ أكثر من نصف قرن..

ربما..

كان يعدو بسرعة خرافية، عبر ممرات المكان، وتلك الأفكار تدور في رأسه، عندما فوجئ بصفارة قوية تنطلق من حوله..

وبأبواب معدنية تهبط، لتحاصره من الناحيتين..

من خلفه هبط باب ثقيل، يغلق الممر تماماً..

ومن أمامه، بدأ هبوط باب مماثل..

ولأنه يعلم أن هذا يضعه داخل مصيدة معدنية كالفئران، زاد (عزت) من سرعته أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وكم أدهشه هذا..

لقد بلغت سرعته حداً، يكاد يفوق سرعة سيارة رياضية حديثة، حتى أنه قطع ما يقرب من مائة متر، في ثانيتين فحسب، قبل أن يثب، وينزلق أرضاً، ويعبر من تحت الباب المعدني، في سرعة مدهشة..

ومع انزلاقه، شاهد أمامه جيشاً صغيراً من الرجال، كلهم يرتدون أقنعة واقية، ويصوبون إليه أسلحتهم..

ومع هبوط الباب المعدني الثقيل، وارتطامه بالأرضية من خلفه، أطلق الجميع أسلحتهم دفعة واحدة..

وبحركة غريزية، رفع ذراعيه يحمي رأسه، بافتراض أن الأسلحة كلها ستصوّب إلى رأسه..

ولكن ساقاه تلقيتا ما يزيد عن عشرين طلقة..

وعلى الرغم من قوته، شعر بآلام شديدة..

وبتخاذل في ساقيه..

صحيح أن الطلقات لم تخترقهما، إلا أنها أدمتهما، وأصابتهما بارتجاجات عنيفة، أسقطته على ركبته أمام مهاجميه..

وفي اللحظة نفسها، انطلق غاز كثيف، من فتحات دقيقة في الجدران.

لحظتها فقط، علم لماذا يرتدي مهاجموه أقنعة واقية من الغازات..

وحاول كتم أنفاسه..

حاول..

وحاول..

وحاول..

ولكنهم واصلوا إطلاق أسلحتهم نحو ساقيه..

وعلى الرغم منه، ومع آلامه الشديدة، اضطر إلى استنشاق الهواء من حوله..

وملأ الغاز رئتيه..

وتسلّل إلى عقله..

ومخه..

وكيانه..

وعندما دارت عيناه في محجريهما، توقّف الرجال عن إطلاق أسلحتهم..

وانتظروا..

وشعر هو بحنق ما بعده حنق..

لقد وضع خطته، التي تصوّرها عبقرية، اعتماداً على أنه سيواجه نظماً تكنولوجية إليكترونية حديثة..

وها هو ذا نظام بسيط للغاية يفسدها..

مجرّد غاز..

غاز مخدّر..

أو سام..

ربما يعرف فيما بعد..

أو لا يعرف أبداً..

من يدري..

دارت الفكرة في رأسه، الذي راح يدور...

ويدور..

ويدور..

بلا رحمة..

"لقد بدأ الغزو ولا شك.."..

نطقها كبير العلماء في توتر شديد، وهو يراقب ما تسجله الأجهزة، من أعاصير كهرومغناطيسية سلبية، تكاد تشمل مساحة مائة كيلومتر كاملة، من صحراء الربع الخالي..

أعاصير توحي بثغرة هائلة، يبلغ نصف قطرها كيلومترين كاملين..

وفي قلق عاصف، تمتم (فراس):

- كم سيرسلون في رأيك؟!

أجابه كبير العلماء، في توتر واقتضاب:

- جيشاً.

سرت قشعريرة باردة، في جسد (فراس)، وراح عقله يرسم صورة مخيفة، وحاجباه ينعقدان، بأشد ما حدث طيلة عمره..

ترى ماذا سيرسلون؟!..

وبم سيبدءون غزوهم؟!..

ومن هم؟!..

مخلوقات من الفضاء البعيد، وجدت وسيلة لبلوغ الأرض من باطنها، أم بشر من عالم آخر، مواز لعالمنا، ويسعى لغزونا؟!..

القادة يصرون على الفرضية الأولى، والعلماء يؤكدون الثانية..

أما هو، فلا فارق لديه، بين هذا وذاك..

ففي كل الأحوال، هو غزو..

غزو لعالمه..

للأرض..

ولقد أحاطت قوات من عشر دول عربية بالمنطقة..

وأسراب مقاتلات من خمس دول..

والكل استعد لمواجهة الغزو..

أغرب غزو واجهه البشر..

وأخطره..

وفي توتر شديد، قال المهندس البديل:

– الثغرة تنفتح.

بدا الجميع شديدي الانفعال، وقال (فراس) بلهجة آمرة:

– وماذا عن الموجات البديلة، التي اقترحتموها؟!

غمغم كبير العلماء:

– ربما كانت أملنا الوحيد.

وضغط زراً أمامه، وهو يقول، في توتر شديد:

– أطلقوا الموجات المضادة.

احتشدت كل أجهزة الطاقة، وهي تطلق تلك الموجات الكهرومغناطيسية الإيجابية، التي يفترض أن تفوق الموجات السلبية، وتمنع تكون الثغرة..

وفي انفعال، هتف المهندس البديل:

– أجسام تقترب من عالمنا.

جفَّ حلق (فراس)، وهو يغمغم في انفعال:

– أجسام؟!

أجابه المهندس البديل، وهو يرتجف رعباً:

– أجسام عديدة.. مائة جسم هائل على الأقل.

بدا كبير العلماء شديد الاضطراب، وهو يغمغم:

– رباه!.. رباه!..

وعلى شاشة الرصد الكهرومغناطيسي، بدت عشرات الأجسام الضخمة، وهي تقترب، معترضة سبيل العواصف الكهرومغناطيسية السلبية، على نحو مثير للقلق..

وفي توتر ملحوظ، سأل (فراس) المهندس البديل:

– أهي أجسام حية أم آلات؟!

هزَّ الرجل رأسه في صمت لحظات، وكأنه يبحث عن جواب، ثم غمغم في حذر:

– بعضها يبث حرارة حية، وبعضها لا.

سأله (فراس) في عصبية:

– وما الذي يعنيه هذا؟!

التفت إليه المهندس، قائلاً، في اضطراب شديد:

– بعضها حي، وبعضها مجرَّد آلات.

غمغم (فراس)، وقد نافس لسانه رمال الصحراء، من شدة الجفاف:

– أحياء وآلات؟!

غمغم المهندس، وكأنه يوشك على فقدان الوعي:

- أحياء ضخمة، وآلات هائلة.

سأله كبير العلماء:

- وكم يبلغ عدد هذا وذاك تقريباً؟!

تمتم الرجل في صعوبة:

- عشرات.. ما يزيد عن المائة.

اتسعت عينا (فراس) عن آخرهما، وأدار عينيه فيما حوله من قوات ضخمة، قبل أن ينتزع هاتف أقمار صناعية خاص من حزامه، ويضغط أزراره في عصبية..

وبنظام إليكتروني محدود، أوصله هذا بقاعة القيادة مباشرة، وسمع المصري يسأله، في قلق شديد:

- ما آخر التطورات؟!

أجابه (فراس) بكل توتره:

- الموقف شديد الخطورة، وفي رأيي أن القوات المتاحة غير كافية.

قال السعودي في توتر مماثل:

- لديك جيش كامل، من عشر دول.

هتف في عصبية:

- غير كاف.. سنحتاج المزيد من القوات.

مضت لحظة من الصمت، بدت له أشبه بدهر كامل، قبل أن يقول الكويتي:

- من الخطأ عسكرياً، أن نحشد قواتنا كلها في بؤرة واحدة، فقد يكون هذا مجرَّد فخ؛ لتفريغ المناطق الأخرى من التعبئة العسكرية الدفاعية اللازمة.

صاح (فراس):

- ولكن الهجوم سيأتي من هنا.

قال المصري:

- لا يمكنك الجزم.

صرخ (فراس)، وقد بلغ توتره منتهاه:

- أنا هنا، في موقع الأحداث، ومعلوماتي تفوق معلوماتكم حتماً.

وارتفع صراخه؛ ليبلغ أقصاه:

- أرسلوا مزيداً من القوات.

مع نهاية صرخته، دوت في المكان فرقعة شديدة..

فرقعة مدوية، كادت تخرج آذان الجميع..

وفي حركة غريزية، اعتصر (فراس) هاتفه بقبضته، وهو يلتفت إلى مصدرها في ذعر، في نفس اللحظة التي هتف فيها المهندس البديل:

- ثغرة أخرى تتكوَّن.

سقط الهاتف من يد (فراس)، وهو يردِّد في ارتياع:

– ثغرة أخرى.

قالها، فدوت فرقعة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

لقد كان القادة على حق..

إنهم لن يهاجموا من ثغرة واحدة..

بل من عدة ثغرات..

ففي لحظات قليلة، أصبحت هناك خمس ثغرات كبيرة، بالإضافة إلى الثغرة الأساسية الكبرى..

مركز، تحيط به عدة فروع..

وعاد السؤال نفسه يتفجَّر في رأس (فراس)..

ترى هل ستكفي هذه القوات؟!..

هل؟!..

مع أفكاره، راحت العواصف والأعاصير الكهرومغناطيسية السلبية تتزايد..

وتتزايد..

وتتزايد..

وبكل رعب الدنيا، هتف المهندس البديل:

– كل شيء سينهار.. كل شيء.. لابد وأن نفر من هنا فوراً.. لابد.

قالها، ووثب من مقعده بالفعل، فأمسك به كبير العلماء، هاتفاً:

– لا تفر من ميدان المعركة يا رجل.. إنها حرب.

كانت الرمال تدور من حولهم، على نحو عاصف، عندما هتف المهندس البديل، وهو يحاول التخلُّص من يد كبير العلماء:

– وأنا لست محارباً.. أنا مجرَّد مهندس.. لن يمكنني مواجهة كل هذا.. هل تفهم.. لن يمكنني.

أفلته كبير العلماء بحركة غريزية، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما..

نعم.. إنهم علماء، وليسوا محاربين..

علماء يواجهون ما تصوَّره الكل يوماً مجرَّد خيال علمي محض..

أو ما لم يتخيَّلوا وجوده مطلقاً..

غزو..

غزو من عالم آخر..

عالم يختلف عن كل العوالم، التي تخيَّلها كتاب الخيال العلمي منذ الأزل..

جميعهم، منذ (هربت جورج ويلز)، كانوا يتصوَّرون أن الغزو سيأتي من هناك..

من أعمق أعماق الفضاء..

أو من الكواكب المجاورة..

الأطباق الطائرة، والمشاهدات الغامضة المجهولة ساعدتهم على هذا..

كلها كانت توحي بغزو قادم من أعلى..

ثم ها هو ذا الغزو يأتي من آخر مكان يتوقعونه..

أو حتى يتخيلوه..

من عالم آخر..

من ظل..

ظل الأرض..

من حيث تتشارك الأحداث، والزمن والنشأة..

من الداخل..

الداخل الذي لم نكن نراه..

أو حتى نشعر بوجوده..

انطلق المهندس البديل يعدو مبتعداً، وسط عواصف الرمال العنيفة، التي أغشت أبصار الجميع، حتى قوات الحصار المتحفزة، تاركاً كبير العلماء خلفه، في حالة صدمة محدودة، و(فراس) يصرخ:

– أين تلك الموجات المضادة؟!.. أين؟!

صرخ كبير العلماء، محاولاً إيصال صوته إلى أذني (فراس):

– لقد أطلقناها بالفعل.

صرخ (فراس):

– ثم ماذا؟!

قلب كبير العلماء كفيه، وهو يصرخ:

– لم تفلح.

مع عنف العواصف، التي تحيط بالجميع، والرمال التي تكاد تحفر وجوههم، من شدة اندفاعها، لم تكن هناك وسيلة للتخاطب سوى الصراخ..

الصراخ فقط.

ودون سواه..

كان من المستحيل أن تسمع، حتى من يلتصق بك، دون أن تصرخ..

وتصرخ..

وتصرخ..

وفي توتر شديد، حاولت القوات المحيطة بالمكان، أن تعيد تنظيم نفسها، حتى تتفادى تلك النقاط، التي راحت الرمال تدور فيها بسرعة وعنف..

بمنتهى السرعة..

ومنتهى العنف..

ودون الحاجة إلى المهندس البديل، كان من الواضح للجميع أن هناك شيء يقترب..

وبسرعة مخيفة..

فتحت أقدامهم، كانت الأرض ترتجف..

وتهتز..

وتنهار..

حتى الأسراب القاتلة في سماء الموقع، صار من العسير عليها أن ترى ما تحتها، من شدة العواصف وحركة الرمال..

وبكل توتر الدنيا، هتف قائد الأسراب المشتركة:

- مستوى الرؤية يكاد يقترب من الصفر.. لا يمكننا حتى أن نرى أسفلنا، ولو استمر الأمر على هذا النحو، لن يمكننا حتى أن نرى بعضنا البعض.. لابد وأن ترتفع، إلى مستوى رؤية مناسب.

أجابته القاعدة في حزم:

- لا يمكنك أن تبتعد كثيراً عن سماء المعركة.. كل العوامل تشير إلى أن الغزو وشيك.

صاح قائد الأسراب:

- غزو ماذا؟!.. إنها مجرَّد عواصف عاتية، ورمال بلا عدد أو حدود.

صاح مسئول القاعدة، في صرامة شديدة:

- ابقوا في موقعكم.. هذا أمر.

مع نهاية صيحته تفجَّرت نافورة هائلة من الرمال فجأة، من مركز الثغرة الكبرى..

نافورة ارتفعت معها الرمال لمئات الأمتار، في لحظة واحدة..

وقبل حتى أن يدرك أحداً ما حدث، أصابت نافورة الرمال العنيفة أربعة من المقاتلات..

وتحطَّم الزجاج المضاد للرصاص..

وصرخ قائد إحدى المقاتلات المنهارة:

- رباه!.. إننا نسقط

هتف قائد الأسراب بكل الغضب:

- ولم تبدأ المعركة بعد.

في نفس اللحظة، التي أطلق فيها هتافه، كانت الرمال تنهار فجأة، تحت المعدات والجنود، فصرخ قائد القوات:

- تراجعوا.. تراجعوا جميعاً.

وهتف (فراس)، وهو يتراجع مع الباقين:

- كان ينبغي أن يرسلوا المزيد من القوات.. كان ينبغي أن يفعلوا.

صاح به كبير العلماء، وهو يكاد يزحف، من شدة العواصف الرملية، ودوران الرمال العنيف، من تحت أقدام الجميع:

- وماذا كانوا سيفعلون؟!

وعقد (فراس) حاجبيه في مرارة..

نعم.. ماذا كانت القوات الإضافية ستفعله؟!..

لا أحد يدرى حتى من أين سيأتي الهجوم؟!

أو كيف؟!

لا أحد يدرى..

أو يمكن أن يدرى..

كل ما يمكن الجزم به، هو أن هناك هجوم..

وغزو..

ودمار..

وحرب مع عدو مجهول..

عدو من عالم آخر..

عالم يختلف..

ويتفق..

عالم هو مجرَّد ظل..

ظل للأرض..

مع تلك الفكرة، هوت القاتلات الأربع، لتتحطَّم أرضاً في عنف..

ومع تحطمها، انفتحت الثغرات كلها دفعة واحدة، مع دوى هائل، فاق كل ما سبقه، ثلاث مرات على الأقل..

ثم انطلقت تلك الأجسام الضخمة، عبر الفجوات العديدة..

الأجسام الحية..

والآلية..

واتسعت عيون الجميع، كما لم تفعل من قبل قط.

وارتجفت الأجساد في شدة..

فلقد بدأ الغزو..

بمنتهى العنف.

• • •

الفصل العشرون

في صمت مهيب، التفتَّ فريق العلماء، مع رجال أمن (فوربادا)، ورقم واحد، حول ذلك الأنبوب الشفاف، المصنوع من مادة مضادة للقنابل، والمزوَّد بالهواء النقي، والذي رقد داخله (عزت) فاقد الوعي، بعد أن استنشق مضطراً ذلك الغاز المخدِّر..

كانوا قد ظفروا به بالفعل، وأصبح في قبضتهم، وعلى الرغم من هذا، فهم يخشونه..

أو بمعنى أدق، يخشون ما يمثله..

أنه أوَّل دخيل، في تاريخ (فوربادا)..

وأوَّل دخيل حي في عالمهم..

ومن وجهة نظرهم، كانوا يقفون أمام قطعة من عالم آخر..

أمام شخص خارق في عالمهم..

شخص نجح، فيما فشل فيه الملايين، عبر ما يزيد عن نصف قرن من الزمان..

وفي حذر، تساءل رقم واحد:

- هل توصَّلتم إلى شيء بشأنه؟!

أجابه أحد العلماء في خفوت، وكأنه يخشى أن يوقظ (عزت) من غيبوبته:

- جسم يحمل شحنة كهرومغناطيسية كبيرة، تكفي لإنارة (فوربادا).

انعقد حاجبا رقم واحد، وهو يسأل:

- أهذا سر قوته؟!

أجاب عالم آخر في تردُّد:

- على الأرجح.

بدا رقم واحد شديد الصرامة، وهو يقول:

- الزعيم لا يحب مثل هذه الأجوبة المطاطة.. دوماً يريد أجوبة واضحة، وحاسمة.

قال العالم الأوَّل في اهتمام:

- ما زلنا ندرسه.. لقد أوقعتم به منذ ساعة واحدة فحسب، ومن الجيد أننا قد توصَّلنا إلى هذا.

ارتفع صوت الفوهلر فجأة في المكان، وهو يقول في غضب:

- بل من العار أنكم لم تتوصَّلوا سوى لهذا.

اعتدل جميعهم في خوف، وارتجف صوت العالم، وهو يقول:

- معذرة أيها الفوهلر، ولكن الوقت لم..

صرخ الفوهلر في غضب:

– لا أعذار.

صمت الكل مرة أخرى، في خوف أكبر، وقال رقم واحد، محاولاً تخفيف الموقف:

– إنهم يبذلون قصارى جهدهم أيها الزعيم.

قال (هتلر) في ثورة:

– هذا لا يكفي... لقد بدأنا الغزو بالفعل، وكل معلومة الآن لها ثمنها.. أريد أن أعرف، هل تستمر قواه هنا، أم يمكن انتزاعها منه؟!.. وبأقصى سرعة.

أراد أحد العلماء أن يسأل: بم يفيد هذا، ولكنه كتم سؤاله في أعماقه، خشية المصير، الذي ينتظر كل من يعارض، أو حتى يتساءل، في أي نظام حكم ديكتاتوري..

أما العالم الأوَّل، فقد قال في حذر، وهو يبحث ببصره عن مصدر صوت الزعيم:

– سنحاول تفريغ ما يحمله جسده من طاقة، فربما ينتزع هذا قواه.

تساءل الفوهلر، بالغضب ذاته:

– وهل يمكن أن يحدث هذا مع جنودنا هناك؟!

تردَّد كبير العلماء لحظة، اندفع رقم واحد خلالها، يقول في حماس:

– جنودنا لا يهزمهم أحد أيها الزعيم.

أجابه في ثورة:

– لا أريد شعارات سخيفة.. أريد نتائج.. هل تفهم؟!.. نتائج.

أجابه رقم واحد في توتر:

– بأسرع ما يمكن أيها الزعيم.

صمت الزعيم لحظة، ثم قال بمنتهى الصرامة:

– إذا ما جردتموه من قواه، أريده في قاعة الحكم.. تحت السيطرة.

كرَّر رقم واحد في حزم:

– فوراً أيها الزعيم.

أنهى الفوهلر حديثه، ليتابع الغزو، فالتفت رقم واحد إلى العلماء، وقال في صرامة، حملت رائحة توتره:

– هل سمعتم الزعيم؟!.. فلتبدءوا فوراً.

تحرَّك العلماء في سرعة، وراحوا يوصلون الاسطوانة الشفَّافة بأجهزة القياس والطاقة، والعالم الأوَّل يغمغم:

– من الخطأ أن نفعل هذا، دون اختبارات مسبقة.

غمغم رقم واحد، في توتر شديد:

– لقد سمعت الزعيم.

قال العالم في عصبية، على الرغم من خفوت صوته:

– هذا قد يؤدى إلى كارثة.

صمت رقم واحد لحظات، قبل أن يسأل، في قلق شديد:

- من أي نوع.

زفر العالم في توتر، وقال في خفوت أكثر:

- إننا نجند كل طاقة ممكنة الآن، لضمان فتح الثغرات بين العالمين، حتى يمكن لقوات الغزو العبور، ومحاولة انتزاع طاقة الدخيل، قد تؤدي إلى خفض طاقة الثغرات.

سأله رقم واحد، وقد تضاعف قلقه:

- وما الذي يمكن أن يؤدي إليه هذا؟!

أشار العالم بسبّابته، قائلاً:

- أمر من اثنين.. إما أن يحدث انهيار في الثغرات..

هتف رقم واحد:

- هذا مستحيل!

تطلّع إليه العالم لحظات في توتر، ثم مال نحوه، وانخفض صوته في شدة، وهو يقول:

- البديل هو أن تنهار طاقة (فوربانا).

اتسعت عينا رقم واحد في ارتياع، وهو يتمتم:

- مستحيل!

أومأ العالم برأسه، قائلاً:

- هذا بالضبط ما أردت قوله.. كل الاحتمالات مستحيلة.. البديل الوحيد

المنطقي، هو أن نترك هذا الأمر لما بعد.

غمغم رقم واحد، وذهنه شارد تماماً:

- الزعيم لن يرضى بهذا.

تراجع العالم، وهو يقول في يأس:

- هذه هي المعضلة.

بدا رقم واحد شديد التوتر، وهو يدرس كل الاحتمالات، و...

وفجأة، فتح (عزت) عينيه..

وانتفض جسد العالم..

وتراجع بحركة حادة عنيفة، وكأن عيني (عزت) قد أصابتاه بلطمة في صدره..

وانعقد حاجبا رقم واحد في شدة..

أما (عزت) نفسه، فلم يحرّك ساكناً..

فعلى الرغم من الزجاج السميك، المضاد للدروع، سمع حديثهما كله..

تلك الطاقة الكهرومغناطيسية الهائلة، التي يموج بها جسده، أرهفت سمعه على نحو مدهش، فاستطاع أن يسمع كل شيء..

كل شيء بلا استثناء..

ولقد هاله ما عرفه..

عرف من حديث الفوهلر أن الغزو قد بدأ..

غزو عالمه..

وأنهم يسعون لانتزاع قوته، وتجريده في قدراته الجديدة كلها..

والأهم، أنه سمع ما يمكن أن يفعله هنا..

ستنهار (فوريابا)..

أو ينهار الغزو..

وكلاهما أمر عظيم، بالنسبة للعالمين..

لو انهارت (فوريابا)، سينهار معها ذلك النظام النازى الديكتاتورى كله..

نظام قائم على سلطة فرد، سينهار حتماً بانهيار هذا الفرد..

هذه شيمة النظم الديكتاتورية الفردية..

للأسف..

ولكن انهيار النظام النازى، سيعنى تحرُّر هذا العالم، ونجاته من طغيان ظالم وحشى..

سيعنى الحرية..

والأمن..

والأمان..

والمستقبل..

أما انهيار الغزو، فسيعنى نجاة عالمه..

وفشل النظام النازي في العالم الآخر..

حياته إذن يمكن أن تساوى الكثير..

والكثير جداً..

جداً..

والعجيب أن الفكرة قد جعلته يسترخى كثيراً..

كان يعلم أنهم يسعون للقضاء عليه..

ولكن هذا لم يزعجه..

ولم يقلقه..

ولم يخيفه حتى..

شيء ما تغيّر في أعماقه، في تلك الأيام القليلة، التي قضاها في هذا العالم الموازى..

(عزت) المسالم المستكين، الذي يخشى الواجهات، انزاح جانباً، أو بقى في عالمه..

أما الوجود هنا، فهو (عزت) آخر..

(عزت) مقاتل..

مكافح..

مناضل..

(عزت) الذي يلقى نفسه في قلب المعركة، بروح فدائية وقلب ممتلئ

بالحزم والحماس، ومستعد للتضحية بحياته، من أجل الآخرين..

من أجل الحياة..

والحرية..

والمبادئ..

والعجيب أنه أحب (عزت) الجديد، وساورته الدهشة، وربما لأوّل مرة، من (عزت) القديم..

أحب المناضل، واندهش من الخامل المستكين..

ربما كان عالمه الأوّل أفضل كثيراً من ظله، ولكنه عشق نفسه، في ظل الأرض، وبغضها في الأرض..

هنا يشعر بقيمة كبيرة..

يشعر أن هناك من يحتاج إليه..

ويبجله..

ويحبه..

نعم.. يحبه..

امتلأ ذهنه كله بوجه (مارا) في هذه اللحظة، وشعر بقلبه يخفق، وبأطرافه ترتجف بنشوة عجيبة..

يا إلهي!.. كم يحبها..

كم يعشقها..

يحبها، حتى أنه مستعد للتضحية بحياته، حتى يضمن سعادتها وأمنها..

فهذا يساوي عنده الكثير..

الكثير جداً جداً..

"لقد استعاد وعيه.."..

هتف العالم بالعبارة في ذعر شديد، وهو يلتصق بالجدار، فسحب رقم واحد مسدسه بحركة آلية، في حين تسمّر باقي العلماء في أماكنهم في رعب، فعاد (عزت) يغلق عينيه في استرخاء عجيب، لا يتناسب مع الموقف، فقال رقم واحد في توتر شديد:

- ما هذا بالضبط؟!

انتزع أحد العلماء نفسه في توتره الشديد، واندفع نحو جهاز القياس، ورصد مؤشره الرقمي، قبل أن يهتف:

- إنه في حالة استرخاء تام.

هتف رقم واحد في عصبية:

- كيف؟!

أجابه العالم الأوّل، وهو يقترب من الاسطوانة في حذر:

- ربما هو رد فعل لا إرادي.. لقد فتح عينيه وأغلقهما فحسب، ولم يديرهما فيما حوله، وهذا يحدث للعديدين، من مصابي الحوادث، قبل أن يفيقوا من غيبوبتهم.

سأله رقم واحد في توتر:

- هل تعتقد هذا فعلاً؟!

أشار العالم لما حوله، مجيباً:

- الأجهزة ترى هذا.

تطلّع رقم واحد إلى (عزت) الصامت لحظات في شك، قبل أن يقول في عصبية:

- فلنبدأ في انتزاع قوته إذن.

سمع (عزت) العبارة، ولكنه لم يحرّك ساكناً..

سيبدءون في انتزاع قوته..

وربما حياته أيضاً..

والسؤال هو: هل يستسلم؟!..

أم يقاوم؟!..

نعم.. هذا هو السؤال..

"الأفضل أن نستسلم.."..

نطقها أحد الرجال في توتر بالغ، داخل القرية السرية للمقاومة، وهو يمسح العرق الغزير، الذي كسا وجهه، على الرغم من برودة الطقس، في هذا الوقت من العام، فقال (كوناد) في صرامة:

- كلا.

توقّف رجل آخر عن حفر النفق، الذي يفترض فيه أن يبعد مسار السائل الحارق، وقال في عصبية مبعثها الخوف:

- العناد لن ينقذ نساءنا وأطفالنا.. لقد وجدوا وسيلة مثالية للقضاء علينا جميعاً.. لن يمكننا حفر هذا النفق بالسرعة الكافية.. سيبلغنا ذلك السائل، قبل أن نكمل حفره.

هتف به (كوناد):

- موقف انهزامي واستسلامي.

صاح ثالث:

- بل واقعي أيها الحكيم.. مهما بلغت قوتنا، لن يمكننا الانتصار عليهم، في مواجهة مباشرة.. لقد نالوا منا، ومصير شيوخنا ونسائنا وأطفالنا يحتم الاعتراف بهذا.

لوّح (كوناد) بيده، هاتفاً في غضب:

- وماذا عما أقسمنا عليه جميعاً، من التضحية بكل غال وعزيز، في سبيل الحرية؟!

اندفع الأوّل يقول:

- وهل مصرعنا جميعاً هو السبيل إلى الحرية؟!

أدار الشيخ عينيه في وجوههم في قلق شديد، ثم استدار ببصره إلى الكوخ، حيث تختفي (مارا)...

إنهم يتمردون..

الأمل في الحياة كان يمنحهم دوماً القوة..

وعندما زحف الموت نحوهم، وبات وشيكاً، أو كقدر محتوم، برز الخوف الكامن في أعماقهم إلى سطح نفوسهم..

وها هو نا، ولأوّل مرة، يجد نفسه واقفاً وحده، في مواجهتهم جميعاً، والموت يحاصرهم من كل اتجاه، حتى أن رائحته بدأت تزكم أنوفهم، على الرغم من المناديل السميكة..

ولم تكن لديه وسيلة لتفادي ما يحدث..

لتفادي السائل الحارق..

والتمرُّد، و..

"النفق سيصل؛ لينقذنا من كل هذا.."..

لم يدر لماذا نطقها، حتى أنه شعر في أعمق أعماقه بدهشة بالغة، جعلته ينكمش فور قوله..

ولكن تأثير عبارته في نفوسهم كان قوياً..

وإلى حد مدهش..

لقد تجمّدوا جميعاً في أماكنهم، واختفى الخوف والرعب من نفوسهم؛ وحلّت محله حيرة تمتزج بالأمل..

حيرة هي الفيصل، بين الخوف والإيمان..

وبين الموت والحياة..

وفي صمت، تبادلوا النظرات مع بعضهم البعض، وكأن كل منهم ينشد القوة في حزم زميله وعزمه..

ولم يكن من الممكن أن يضيع (كوناد) الفرصة أبداً..

وفي حركة مسرحية رخيصة، رفع ذراعيه، وفرد قامته أمامهم، وهو يهتف:

- (سافور) هو الذي أرشدني لما ينبغي أن نفعله.. هو الذي أوحى لي بحفر الخندق والنفق.

مرة أخرى تبادلوا نظرات صامتة، فاضت بالتوتر والتردُّد هذه المرة، فاستطرد وقد تسللت الصرامة إلى صوته:

- لهذا يجب أن نحفر.. أن نطيع (سافور).

قالها، وانحنى يلتقط معولاً، ضرب به الأرض، هاتفاً:

- فوراً.

مع ضرباته الضعيفة، عاد الكل يحملون معاولهم شبه المتهالكة، وعادوا يحفرون، وكلهم يحملون فكرة واحدة، تبث في نفوسهم الأمل..

النفق..

(عزت)..

(مارا) أيضاً لم تفكّر في سواه، في تلك اللحظات العصيبة..

كان شقيقها غائباً أيضاً، ولكنها اعتادت غيابه، كلما خرج للصيد، أو كلما خرج لتفقُّد الأمور..

أما (عزت)، فهو يختلف..

إنه المنقذ..

حاولت أن تقنع نفسها، بأن خوفها الشديد عليه، واشتياقها الكبير إليه، هما بسبب أنه المنقذ..

ولكن هذا لم ينجح..

لابد وأن تعترف بمشاعرها لنفسها، حتى وإن شعرت بالخجل..

نعم.. إنها تحبه..

تحبه..

تحبه بمشاعر، لم تشعر بمثلها من قبل قط.

مشاعر جميلة..

عميقة..

ودافئة..

مشاعر لم يعلِّمها إياها أحد، ولم تختبرها من قبل قط، ولكنها أروع من أروع ما شعرت به، في حياتها كلها..

مشاعر حب..

حب هادئ..

جميل..

عظيم..

وبكل لهفتها وحبها، واشتياقها وخوفها، ركعت على قدميها، وهتفت، كما علَّمها (عزت):

- الله.. الله.

وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة..

دموع الحب..

واللهفة..

والخوف..

والعجيب أنه، في نفس اللحظة التي انهمرت فيها دموعها، انتفض جسد (عزت) في مرقده، داخل تلك الاسطوانة الشفافة، وخفق قلبه في قوة، على الرغم من أنه لم يفتح عينيه..

لقد شعر بها..

شعر بخوفها..

ودموعها..

وربما بحبها أيضاً..

وفي رجفة، هتف العالم، المسئول عن رصد تطوراته الحيوية:

- يبدو أنه على وشك استعادة وعيه.

قال العالم الأوَّل في توتر:

- أسرعوا إذن.. لابد وأن ننتزع قواه، قبل أن يستعيد وعيه كاملاً..

قال رقم واحد في عصبية:

- وقبل أن تتعقَّد الأمور أكثر.

غمغم العالم الأوَّل:

- أمور الغزو..

هزَّ رقم واحد رأسه نفياً، وقال في توتر:

- الغزو يتولاه الزعيم شخصياً.. لقد كنت أقصد الهجوم الأرضي.

سأله العالم في حذر:

- أي هجوم أرضي؟!

أجابه رقم واحد في اقتضاب:

- المقاومة.

جذبت الكلمة انتباه (عزت) في شدة، فأرهف سمعه، والعالم يسأل، في حذر أكثر:

- ماذا عنها؟!

قال رقم واحد، وهو يتحسَّس سلاحه في حذر، ويراقب اسطوانة (عزت) في قلق شديد:

- لقد كشفنا منطقة اختفائهم، وحاصرناها، ونحن نضخ فيها سائلاً حارقاً

شديد الفتك الآن، وسيلتهم كل شيء، في المنطقة كلها.. الجوامد والأحياء.. كل شيء.

امتقع وجه العالم، من هول الفكرة، وغمغم:

- يا للبشاعة!.

نطقها، ثم تلفَّت حوله في توتر شديد، وكأنما يخشى أن يسمعه الفوهلر، فيكون مصيره القتل، كمعظم من سبقه.

ولكن (عزت) أيضاً هتف بالكلمة نفسها في أعماقه..

نعم.. يا للبشاعة!..

(هتلر) يواصل دمويته الوحشية إذن!..

سائل حارق، ليقضي على الجميع بلا رحمة..

على المقاومة كلها..

وعلى (مارا)..

لا.. إلا (مارا)..

لقد استكان للتضحية بقوته وحياته، في سبيل أمنها وحياتها..

ولكن الموقف الآن يختلف..

حياته لن تكون ثمناً لحياة (مارا)..

لن تجعلها تنعم بشمس الحرية..

لن تمنحها الأمن، والأمان.

أو حتى الحياة نفسها..

لا.. لن يجعلهم يفعلون بها هذا.. لا..

وعندما فتح عينيه هذه المرة، كانتا تمتلئان بالحزم والعزم..

والقوة..

ولكن العلماء أطلقوا أجهزتهم، في اللحظة نفسها..

وانطلقت معها صرخة عنيفة، من حلق (عزت)..

فعملية انتزاع القوة كانت مؤلمة..

مؤلمة بشدة..

وإلى أقصى حد.

• • •

الفصل الحادي والعشرين

ساد وجوم رهيب قاعة القيادة، وبدا القادة الثلاثة مصدومين بشدة، بعد أن بلغهم، منذ لحظة واحدة، خبر بدء الغزو، الذي خشوا حدوثه طويلاً..

لقد بدأ الهجوم من العالم الآخر..

وبعنف..

وبكل توتر الدنيا، غمغم المصري:

- هجوم من عالم آخر.. أمر لم نستعد لمواجهته قط، في كل الاستراتيجيات العسكرية، في كل أنحاء العالم.

قال الكويتي، في قلق شديد:

- السؤال هو: هل يمكننا مواجهته.

زفر السعودي في عصبية، وقال:

- تعالوا نعترف أيها السادة.

سأله المصري في حذر:

- نعترف بماذا؟!.. بالهزيمة؟!

هزّ رأسه نفياً، وقال في مرارة:

– بل بأننا قد أهملنا العلم وقيمته طويلاً، ورفضنا حتى الاعتراف به، حتى أتى اليوم، الذي سنضطر فيه للخضوع، أمام قوة لا يمكن مواجهتها، إلا بالعلم.

تمتم الكويتي في أسف:

– العسكريون في كل العالم، لا يعترفون إلا بالقوة.. هذا علمهم.

هزّ المصري رأسه، قائلاً:

– والعلم أساس القوة.. ابتكار الأسلحة، من المسدس وحتى القنابل النووية، هو نتاج العلم.

أومأ السعودي برأسه، وقال:

– من المتأخر جداً، أن نعترف بهذا... للأسف.

قلب الكويتي كفيه، قائلاً:

– لا نملك فعلياً إلا ما فعلناه.. أرسلنا ثلث جيوشنا المشتركة إلى منطقة الثغرة.

قال المصري، وهو يتراجع في مقعده:

– كان ينبغي أن نستمع إلى العقيد (فراس)، عندما طلب إرسال المزيد.

قال السعودي في عصبية:

– مستحيل!.. لا يمكننا ترك باقي المملكة دون حماية.

رفع المصري يده، قائلاً:

– أتعتقدون أن هذا هو السبب؟!

سأله الكويتي في توتر:

– سبب ماذا؟!

أجابه في أسى:

– سبب اختيار المنطقة العربية، كنقطة للهجوم.. هل تصوّروا أننا لن نستطيع – علمياً – مواجهة هجوم كهذا؟!

صمت السعودي والكويتي، ولم يحاولا إجابة السؤال، وقبل أن يتحسم رأيهما، وصلت رسالة عاجلة، على شاشة كمبيوتر كل منهم، فقرءوها في آن واحد، وهتف السعودي، بكل توتر الدنيا:

– أجسام طائرة مجهولة، تحتشد فوق جبال المنطقة الشرقية.

امتقعت وجوه الثلاثة، وقال الكويتي في حدة:

– هذا ما توقعناه.. لقد كنا على حق عسكرياً.. جذبوا انتباهنا إلى منطقة الثغرة، لنحشد عندها كل قواتنا، ثم يهاجمون من المنطقة الشرقية.

قال السعودي في توتر صارم:

– ما زالت لدينا أسراباً مقاتلة لمواجهتهم.

أشار المصري بسبّابته، وقال:

– السؤال هو: هل؟!

التفت إليه الاثنان، فأكمل، بكل توتر الدنيا:

- هل يمكننا مواجهتم؟!

نفس السؤال دار في ذهن (فراس) وكبير العلماء في آن واحد، عندما بدأ الهجوم..

عشرات من الآليين العمالقة، والتنانين الضخمة الرهيبة، عبرت الثغرة الكبرى، وكل الثغرات الفرعية، في آن واحد..

وكلها بدأت هجومها بمنتهى الشراسة، فور عبورها الثغرة..

وعلى الرغم من هيئتها الوحشية البشعة، بدأ القوات المشتركة في صد الهجوم، فور حدوثه.. ولكن القوة لم تكن متكافئة مطلقاً..

تلك التنانين الرهيبة هاجمت المقاتلات مباشرة، كما لو أنها معدة لهذا، في حين راح العمالقة الآليون يهاجمون القوات الأرضية، ويطلقون عليها أشعتهم في شراسة بارية، لا تعرف معنى الرحمة، لأنه ليس واردها في برنامجها القتالي، الذي وضعه جبابرة النازية، في العالم الآخر..

وأمام عيني (فراس)، رأى المقاتلات العربية تقاتل في سماء المعركة، وتطلق صواريخها على التنانين الضخمة الرهيبة..

ثم تتساقط بنيرانها..

كل تنين يسقط، كانت تسقط معه ثلاث أو أربع مقاتلات..

وكلها تتهاوى في قلب الصحراء..

في الربع الخالي..

أما القوات الأرضية، فكانت في حال يرثى له..

عشرات، وربما مئات الجنود، حرقتهم أشعة أسلحة الآليين، وحوّلتهم إلى رماد، في دقائق معدودات..

المعدات الحربية الثقيلة تهاوت، مع الضربات الساحقة..

النيران اشتعلت في كل مكان..

الجرحى والقتلى والمصابون افترشوا رمال الصحراء، وسالت دماؤهم غزيرة..

كل هذا ولم يسقط سوى آلي واحد..

وربما الثاني..

وبكل معنى الكلمة، كانت هزيمة ساحقة..

القوات واصلت قتالها..

لم تستسلم..

ولم تتراجع..

كانت تحمي، ولأوّل مرة، الأرض كلها، وليس الوطن فحسب..

قاتل الرجال بكل قوتهم..

وكل بسالتهم..

وكل عزمهم..

سعوديون..

كويتيون..

مصريون..

خليجيون..

مغاربة..

لم يعد هناك فارق..

كلها دماء..

ودماء عربية..

رمال الصحراء وحّدت الجميع..

الدم الراق امتزج ببعضه البعض، وصار دماً واحداً..

وربما لأوّل مرة في التاريخ..

ولكن هذا لم يمنع الهزيمة..

والاندحار..

كان من الواضح أنهم يواجهون قوة تفوق كل استعدادهم..

وكل خيالهم..

وفي يأس منهار، هتف كبير العلماء:

- لا فائدة.. لم تعد هناك فائدة.

صرخ فيه (فراس):

- لا تقل هذا.. لست أحب هذه الروح الانهزامية.

لوّح كبير العلماء بذراعيه، صائحاً:

- انظر حولك يا رجل.. الأمر تجاوز مجرّد الروح الانهزامية.. إنها هزيمة واقعية.. هزيمة ساحقة.

صرخ (فراس):

- لم ينته الأمر بعد.

صاح به كبير العلماء في يأس:

- حقاً؟!

ولم يجب (فراس) هذه المرة..

فكل شيء حوله كان يشير إلى أن الأمر قد انتهى وانحسم..

إنها طليعة الغزو فحسب، وثلث القوات العربية المشتركة عاجز عن مواجهتها..

كان ينبغي أن يرسلوا المزيد..

كان ينبغي هذا..

من الناحية النظرية على الأقل..

فمع ما يراه، يتساءل: أكان يمكن أن يصنع هذا فارقاً؟!..

لم يجد الوقت لإجابة السؤال، مع اقتراب الأليون العمالقة من موقعه، فصاح به كبير العلماء، وهو يعدو هارباً:

- انج بحياتك يا رجل.. اهرب قبل فوات الأوان.

وانعقد حاجبا (فراس) بمنتهى الشدة..

يهرب؟!..

يفرّ من ميدان المعركة؟!..

مستحيل!..

لقد خاض حروباً عديدة، لم يفر خلالها من أمام عدوه قط.

هذا يشعره بالعار..

والخزي..

والهزيمة..

لا.. لن يفر من ميدان المعركة أبداً..

أبداً..

وعلى الرغم من عدم منطقية هذا، انتزع (فراس) مسدسه، وصوّبه نحو العملاق، الذي يتجه إلى مباشرة، وهو يهتف بكبير العلماء:

- اهرب أنت.

ثم انعقد حاجباه بشدة، مستطرداً:

- سأقاتل.

توقّف كبير العلماء، على الرغم من ذعره، والتفت إليه في دهشة بالغة، ورآه يبدو أشبه برضيع صغير، أمام العملاق الهائل، فتمتم مبهوراً ومذعوراً:

- يا إلهي!.. ماذا يفعل؟!

ارتفع رنين هاتفه المحمول، في هذه اللحظة، على نحو لا يتناسب مع الموقف، أو مع أي موقف آخر..

والعجيب أنه أجابه..

وهنا أيضاً لا يتناسب مع الموقف..

أو أي موقف..

ربما فعلها، لأنه أراد أن يصرخ..

أو أراد أن يروى لأى مخلوق، ذلك المشهد المدهش، الذي يراه أمامه..

مشهد (فراس)..

والعملاق..

ولكنه لم يجد الوقت ليروى شيئاً..

فما أن أجاب هاتفه، حتى سمع أحد زملائه العلماء، يهتف به في انفعال:

- لقد حللنا الشفرة.

سأله ناهلاً:

- أية شفرة؟!

هتف الرجل:

- تلك الدوائر.. لقد عرفنا معناها، وفهمنا الرسالة.

وعلى الرغم من الموقف المحيط به، استمع كبير العلماء إلى الرسالة..

واتسعت عيناه في ذهول..

وبحركة حادة، التفت إلى (فراس)، الذي أطلق رصاصات مسدسه نحو ذلك العملاق، وقدماه ثابتتان في موضعهما..

وفي حركة آلية، صوَّب العملاق سلاحه إليه..

وضغط الزناد..

وأطلق الأشعة..

مباشرة..

"مستحيل!.."..

صرخ العالم الأوَّل بالكلمة في ذعر، وهو يتراجع كالمصعوق، عندما ضمَّ (عزت) قبضته، ودفعها منتزعاً تلك القيود الفولاذية، التي تكبله، داخل الاسطوانة الشفَّافة، ثم هوى بها على جدارها الداخلي..

وعلى الرغم من تأكيد الكل، أن جدران الاسطوانة منيعة، ومضادة لكل أنواع القذائف، فقد اخترقتها قبضة (عزت) في قوة، كما لو أنها مصنوعة من زجاج هش..

وبسرعة، سحب رقم واحد سلاحه، صارخاً:

- الإنذار.. أطلقوا الإنذار.

انتزع (عزت) قبضته الثانية من القيود، وهوى بها أيضاً على جدار الاسطوانة، أو ما تبقَّى منه، في نفس اللحظة التي أطلق فيها رقم واحد سلاحه نحوه مرة..

وثانية..

وثالثة..

وتلقى صدر (عزت) الطلقات كلها، وهو يثب من الاسطوانة، ويواجه الجميع في صرامة غاضبة..

والعجيب أنه لم يتأثَّر بتلك الطلقات، على الرغم من قوتها..

ولم يشعر حتى بآلام ساقيه وركبتيه، كما لو أن جراحه كلها قد التأمت وشفيت، على نحو خارق..

وبكل الانفعال، الذي تفجَّر في نفسه، من شدة خوفه على مصير (مارا)، انقض على رقم واحد، ودفعه ليرتطم بالأجهزة، وهو يقول:

- أيها النازي الحقير.

حاول رقم واحد أن يطلق رصاصة أخرى..

أو أن يفعل شيئاً..

أي شيء..

ولكن (عزت) حمله، كما لو أنه بلا وزن، وألقاه عبر القاعة، ليرتطم بأجهزتها، عند الجانب الآخر، ويسقط أرضاً في عنف..

وبكل رعب الدنيا، انطلق العلماء يعدون هاربين، في حين التصق العالم الأوَّل بأجهزة القياس والرصد، وهو يهتف:

- أنا لم أفعل شيئاً.. لقد عارضتهم منذ البداية.

ولكن (عزت) لم يبال بقوله، وهو يهوى بقبضته..

وبكل قوته..

وأطلق العالم صرخة رعب هائلة، وهو يغلق عينيه، ويرفع ذراعيه ليحمي وجهه..

ولكن قبضة (عزت) لم تهو عليه..

بل على الأجهزة من خلفه..

هوت تحطمها، وتسحقها سحقاً..

كان من الواضح أن الغضب والخوف يضاعفان قوته كثيراً..

كثيراً جداً..

وربما يضاعفان ذكاءه أيضاً..

ففي لحظات قليلة، أمكنه أن يستوعب طبيعة الأجهزة المحيطة به، لذا فقد تراجعت قبضته، وانفردت أصابعها، لتقبض على عنق العالم، وهو يسأله في صرامة:

– أين حجرة التحكُّم بالضبط؟!

في نفس اللحظة، التي ألقى فيها السؤال، كان الزعيم الكبير يكاد يتفجَّر غضباً، مما يحدث في مقره، الذي تصوَّره أكثر المناطق مناعة، في العالم أجمع..

لقد انتقاه بمنتهى الدقة، بعد سيطرته على العالم..

اختاره في (إنجلترا)، وليس في (ألمانيا)؛ لأن هذا ما كان يطمح إليه منذ

مولده..

أن تصبح (إنجلترا) في قبضته..

وانتقاه في منتصفها بالضبط..

وفي منطقة تم تدميرها بالكامل..

باختصار، أرادها أن تصبح قلعة منيعة، بكل ما في الكلمة من معان..

ولقد كان..

(فوريادا) صارت رمزاً للقوة..

والسطوة..

والسيطرة..

ولأنه أحب فكرة الاستنساخ، وتمتع بمميزاتها، التي منحته نسلاً كاملاً من خلاياه، ويحمل كل سماته وصفاته، فقد جنَّد كل الإمكانيات لتطوير هذا العالم، واستخدامه لصنع ما أطلق عليه اسم (الأسلحة الحيوية)..

وبوساطتها صنع التنانين..

و(وارما)..

ومخلوقات أخرى مخيفة..

مخلوقات نجح استنساخها..

ومخلوقات لم تنجح..

وفي الوقت ذاته، كان علماؤه يبتكرون أسلحة الإرهاب والقمع والتدمير،

التي تضمن سحق أية مقاومة، في أي جزء من العالم..

ولقد سحق مئات من بؤر المقاومة، وأعدم الملايين من المعارضين والرافضين..

وبقيت تلك البؤرة من بؤر المقاومة..

هناك.. في الأطلال المحيطة بمقر حكمه المنيع..

لم يكن من الممكن سحقها بالقنابل الذرية، كما سحق غيرها؛ لأنها حول مقره..

حتى وسائل التتبع المعتادة، كانت تعجز عن كشف مواقعهم، وسط الأطلال العديدة والكثيفة..

لذلك بقيت..

بقيت دون أن يبالي بها كثيراً؛ لأنها أضعف من أن تقلقه..

مجرد بدائيين، يقاتلون بالسيوف والرماح، في مواجهة أسلحة ومعدات ثقيلة.. وطوال أكثر من نصف قرن، لم تنجح المقاومة قط..

وازدادت (فوربادا) تقدماً..

وازدادوا هم ضعفاً وبدائية..

ثم سقط ذلك الدخيل من عالمه..

سقط ليمنحهم الأمل..

والرمز..

والقوة..

ولقد شعر بخطره، منذ معرفته بوجوده..

وها هو ذا يواجه ما كان يخشاه..

الدخيل لم يعد وسط البدائيين..

لقد صار هنا..

في (فوربادا)..

ضغط أزرار أجهزته في سرعة، ليتيقن من أنه قد استعد لقدومه، بناءً على آخر ما وصله بشأنه، ثم استرخى على عرشه الكبير، وغمغم في عصبية:

- أنا في انتظارك.

شعر بإرهاق شديد، بعد أن نطقها، وأدرك أهمية أن يدخل اسطوانة تجديد الطاقة الآن، على الرغم من أنه كان داخلها، منذ أقل من ست ساعات..

ولكن لا.. لا ينبغي أن يستسلم لاحتياجه هذا، كلما شعر به..

لا ينبغي أن يحوِّل الأمر إلى إدمان.

لا ينبغي أن يفعل أبداً..

ثم ماذا لو نجح الدخيل في الوصول إلى قاعة حكمه، وهو داخل الاسطوانة..

صحيح أنه أبقى العملاقين، اللذين يحرسان مقره، بعد أن أرسل كل العمالقة الآلية الأخرى؛ لغزو العالم الآخر..

ولكن من يدري؟!..

من يعرف، كيف يمكن أن يتحرَّك ذلك الدخيل، بقوته التي لا يعرفون حدودها، داخل (فوربادا)؟!..

وما مقدار ما يمكنه أن يفعله؟!

لذا، فلا ينبغي أن يخاطر..

مهما كان لديه من سلاح وعتاد وجنود..

ومهما اطمئن إلى ولاء نسخاته..

لا ينبغي أن يخاطر أبداً..

لابد وأن يحافظ على حياته، ليبقى..

لقد تحدَّى الناموس الطبيعي، وعاش لأكثر من قرن من الزمان، دون أن يفقد سطوته وسلطاته وجبرته لحظة واحدة..

وهو لا يرغب في فقد كل هذا، حتى آخر لحظة من حياته..

لن يتنازل عن السلطة والسطوة أبداً..

أبداً..

مهما كانت حالته..

ومهما كانت الأسباب..

كان يشعر بالسخط، لأن أجهزة المراقبة كلها متوقفة..

ذلك الدخيل جعلهم أشبه بالعميان..

ومن حسن حظه، أن الوسائل الأمنية لديهم، لا تعتمد على الرؤية فقط.

هناك أجهزة رصد الأصوات..

والمستشعرات الحرارية..

والحركية..

و..

فجأة، انطلق أزيز متصل في قاعة العرش، وراح مصباح أخضر يضئ ويطفئ، على نحو متقطِّع سريع..

وانعقد حاجبا الزعيم في غضب عصبي شديد..

لقد توقَّفت أجهزة الرصد الصوتي عن العمل..

ذلك الدخيل يتحرَّك ويضرب..

وبسرعة..

وبكل غضب الدنيا، ضغط زر الاتصالات الداخلية، وصاح في صرامة:

- أأنا محاط بجيش من الحمقى أم ماذا؟!.. أتعجزون كلكم عن الإيقاع بدخيل واحد؟!

كان يتوقَّع جواباً سريعاً، أو حتى محاولة تبرير..

ولكنه لم يتلق شيئاً..

أي شيء..

واحتقن وجهه بشدة..

فهذا يعني أن الدخيل قد أفسد نظم الاتصالات الداخلية أيضاً!..

دخيل واحد، فعل كل هذا..

مستحيل!!..

كانت لديه وسائل أخرى، للاتصال برجاله، وشبكة اتصالات خفية، احتفظ بها للطوارئ، فضغط زرها وقال في صرامة غاضبة:

- أريد هذا الدخيل.. فوراً.

تلقّى كل رجل من رجاله هذا الأمر، عبر جهاز صغير في حزامه، وبدا رقم واحد شديد الإرهاق والألم، وهو يقول، عبر جهاز الاتصال المحدود:

- إننا نبحث عنه في كل مكان.

صاح الفوهلر في غضب:

- تبحثون عنه؟!.. هل فر منكم؟!

أجابه رقم واحد في توتر:

- لقد أفسد كل شيء.. كل أجهزة الرصد تقريباً، وقوته تضاعفت على نحو عجيب.

هتف الفوهلر في ثورة:

- أي علماء هؤلاء، الذين نعتمد عليهم؟!.. إنهم فريق من الحمقى المعتوهين.. اعدمهم يا رقم واحد.. اعدمهم جميعاً.

شعر رقم واحد بتوتر شديد، وهو يتلقى هذا الأمر الأحمق..

يعدم فريق العلماء، في أشد أوقات الاحتياج إليهم؟!..

أي أمر هذا؟!..

لحظتها أدرك أن الفوهلر أصبح طاعناً في السن..

أصبح عصبياً..

متعنتاً..

غاضباً..

لم يعد يدرس قراراته، بل يصدرها في سرعة وانفعال، دون أن يتبصّر عواقبها، وما يمكن أن تجلبه من ويلات لهم، ولقلعة (فوربادا)، وللفوهلر شخصياً..

ولكن المشكلة أنه الحاكم المطلق، والديكتاتور، الذي لا راد لأوامره..

ولكن مستحيل!..

إعدام العلماء الآن، قد يعني الهزيمة..

وانهيار (فوربادا)..

والنظام كله..

وفي حذر شديد، قال رقم واحد، عبر جهاز الاتصال:

- سأفعل أيها الزعيم، ولكن بعد أن نوقع بذلك الدخيل.

ضرب الفوهلر مقبض عرشه بقبضته في غضب، وهو يصرخ:

- قلت الآن.

مع نهاية كلمته، سمع رقم واحد جلبة شديدة، في قاعة العرش، فانعقد

حاجباه في شدة، وهو يتساءل في ذعر:

- ماذا يحدث أيها الزعيم؟!.. ماذا يحدث عندك؟!

ولما لم يتلق جواباً، اتسعت عيناه في ارتياع، وانطلق يعدو نحو مقر الحكم، وهو يتساءل ماذا يحدث هناك؟!..

ماذا؟!..

وهناك، في قاعة الحكم، كان الفوهلر يمسك مقبض عرشه بكل ما تبقى من قوته، وهو يحدّق في (عزت)، في توتر وغضب شديدين..

ففي مشهد، لم يتخيّل حتى حدوثه، حطّم (عزت) باب القاعة الهائل، ودخل إليها في هدوء، وهو يحدّق فيه مباشرة..

لقد كان رقم واحد على حق..

قوة الدخيل تضاعفت..

ألف مرة..

أما (عزت) نفسه، فقد كان انفعاله يفوق هذا ألف مرة..

لقد أجبر العالم على أن يخبره بكل شيء، بدافع الخوف الشديد..

أخبره أن يجد كل الأجهزة الدفاعية..

وأجهزة التحكُّم..

وقاعة الحكم..

وعلى نحو غير مباشر، قاده إلى سبيل الوصول إليها، دون أن يخطر

لمواجهة نظم الأمن، أو رجاله..

وها هو ذا يقف أمامه..

أمام الفوهلر..

شخصياً..

وعلى الرغم من معرفته بوجوده على قيد الحياة، في هذا العالم، فقد سرت في جسده قشعريرة عجيبة، عندما واجهه مباشرة..

فبالنسبة له، لم يكن (هتلر) سوى تاريخ، قرأ عنه الكثير..

تاريخ مضى..

وانقضى..

وما قرأه عنه، كان يكفي ليثير القشعريرة في جسده..

وها هو ذا يواجهه..

في عرينه..

وقاعة حكمه..

يواجهه في عالم آخر، وظروف لم يتخيّل مجرّد تواجده فيها..

ولقد ارتطمت عيونهما ببعضها البعض..

عينا (عزت) المتوترتين..

وعينا الفوهلر الغاضبتين..

ولثوان، لم ينبس أحدهما ببنت شفة..

كانت لحظات انفعال جارف..

انفعال عنيف..

ثم قطع (هتلر) حبل الصمت، وهو يقول في عصبية:

- هناك عملاقان في الخارج.

انتزع (عزت) نفسه، من توتره دون انفعاله، وهو يقول:

- ولكنهما متصلان بنظم التحكُّم الركزية، وهنا أكبر خطأ وقعت فيه أيها الفوهلر.

كان يتحدث بالإنجليزية، فضاقت عينا (هتلر)، وهو يقول في مقت ساخط:

- لقد أوقفتهما.

تعمَّد قولها بالألمانية، ولكن (عزت) فهمها، وقال، وهو يقترب منه:

- بالطبع.. عندما يدار كل شيء إليكترونياً، يصبح من السهل أن ينتقل سلطاته، إلى من يستطيع حل شفرته.

بقي (هتلر) على عرشه، يتابع تقدُّمه نحوه، وهو يقول:

- هناك خائن في صفوفي.. أليس كذلك؟!

أجابه (عزت)، وهو يواصل تقدُّمه:

- ديكتاتوريتك جعلت الجميع يبغضونك، ويتمنون زوالك من الوجود.. ونصفهم على الأقل مستعد لإرشاد أي عدو إليك، على أمل أن ينتهي سلطانك.

صرخ (هتلر):

- كاذب.. أنا معبود الجماهير.. أنا رمز قوتهم وعزهم.. أنا..

صاح فيه (عزت):

- كف عن قول أنا.. العالم يكتظ بالبشر، ولا يتمحور كله حولك.

صرخ (هتلر):

- أنا المستقبل.

صاح فيه (عزت):

- بل أنت الماضي، ولكنك وحدك لا تدرك هذا.

اعتدل (هتلر) على عرشه، وتألَّقت عيناه على نحو عجيب، وهو يقول في صرامة مفاجئة:

- اللحظات القادمة ستحسم، من منا الماضي، ومن المستقبل.

توقَّف (عزت) دفعة واحدة، عند سماعه هذه العبارة..

لم يقلقه فحواها، وإنما الأسلوب الذي نطقها به الفوهلر..

الأسلوب الصارم..

الواثق..

المسيطر..

هذا يعني أنه يخفي شيئاً ما..

شيء يمكن أن يضمن له النصر..

حتى في هذا الموقف..

ولكن ماذا؟!..

ماذا؟!..

قبل أن يجد الجواب، ضغط الفوهلر مقبض عرشه في قوة..

وانطلقت تلك الموجات من كل صوب..

موجات كهرومغناطيسية سلبية، انبعثت من عشر مولدات طاقة، مختفية وسط نقوش القاعة..

وشعر (عزت) بصدمة قوية، انتفض لها جسده في عنف..

في منتهى منتهى العنف..

وشعر بأن روحه تنسحب من جسده..

وساقاه تعجزان عن حمله، فتخاذلتا من تحته، وعجزتا عن حمله..

وسقط.

سقط وسط قاعة عرش الفوهلر، وتلك الموجات تنتزع قوته..

وتنتزعها..

وتنتزعها..

حتى آخر قطرة.

• • •

الفصل الثاني والعشرين

رعب هائل، ملأ نفوس كل من في القرية السرية، مع اقتراب ذلك السائل الحارق الرهيب..

كان يلتهم كل ما يقابله، وينتشر في بطء، ولكن بثبات، جعلهم يدركون أن الموت آت لا ريب..

آت بتلك الرائحة النفّاذة القوية، التي تكاد تخترق أجسادهم..

وتلك الحرارة، التي تتزايد في كل لحظة..

كان أشبه بالحمم البركانية..

الحمم التي لا تُبقي ولا تذر..

وبكل الرعب، انكمشت (مارا) بين ذراعي (كوناد)، وهي تبكي مغمغمة:

- (آزت).. (أجور).

ربّت عليها الشيخ؛ محاولاً تهدئتها، على الرغم مما يشعر به من رعب، وهمس في أذنه، بصوت حاول أن يبثه أقصى قدر ممكن من الهدوء:

- هل تحبين (عزت)؟!

أومأت برأسها إيجاباً، وعادت تنكمش بين ذراعيه، فقال في حنان:

- هو أيضاً يعشقك.

رفعت رأسها إليه في لهفة، فربّت عليها مرة ثانية، مستطرداً:

- ويرغب في أن يتزوجك.

اعتدلت في سرعة، وتألقت عيناها في فرحة، على الرغم من الموقف، فابتسم مرغماً، وقال:

- لقد وافقت على زواجك منه، وستتمه فور عودته.

قفزت تتعلّق بعنقه في سعادة، وتمطر وجهه العجوز بالقبلات، فتمتم في مرارة:

- لو بقينا على قيد الحياة.

اتسعت عيناها في ارتياع، وهي ترتد مبتعدة في حركة حادة، فقلب كفيه في أسف، قائلاً:

- ذلك السائل الحارق يتقرب، ولست أجد وسيلة واضحة للنجاة منه.

ضمّت قبضتيها الصغيرتين إلى صدرها في خوف، فهزّ رأسه، وقال:

- الكل يحفر النفق بكل قوته، ويوصله بالخندق المحيط بالقرية، ولكن هذا لن يكفي.

سالت الدموع من عينيها مرة أخرى، فضمها إليه في حنان، وقال:

- فلندع الله أن يكتب لنا النجاة.

رفعت رأسها إلى أعلى في ضراعة، فهزّ رأسه مغمغماً:

- إذا ما نجونا، فينبغي أن يعلمنا (سافور) كيف نصلي.. لله.

وصمت لحظة، ثم أضاف في خفوت:

- هذا ما نحتاج إليه بالفعل.

مع آخر حروف كلماته، اندفع أحد رجاله داخل الكوخ، هاتفاً:

- السائل يقترب.

اتسعت عينا (مارا)، وتشبثت به في رعب، فربّت عليها بيد مرتجفة، وحاول إزاحتها عنه في صعوبة، وهو يقول:

- رويدك يا (مارا).. رويدك.

كانت ترتجف بشدة، من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها، كعصفور مبتل، في ليلة قارصة البرودة، حتى أنه شعر بإشفاق شديد عليها، جعله يميل نحوها، ويرسم على شفتيه ابتسامة في صعوبة، مغمغماً:

- اطمئني.. (سافور) سينقذنا في اللحظة الأخيرة.

وثب الأمل إلى عينيها، وهي تقول بصوت مبحوح:

- (آزت)؟!

أومأ برأسه إيجاباً، وهو يبذل جهداً خرافياً، للمحافظة على ابتسامته، وهو يقول في خفوت:

- لقد أخبرني هذا قبيل انصرافه.

ثم ربّت عليها في حنان، هامساً:

– اطمئني.

أفلتت أصابعها الرقيقة ثيابه في بطء، فربّت عليها مرة أخرى، ثم التفت إلى الرجل، واستعاد شخصيته القيادية دفعة واحدة، وهو يقول له:

– هيا.. دعنا نرى.

تابعتهما (مارا) ببصرها، حتى اختفيا خارج الكوخ، ثم غمغمت في خوف وضراعة:

– (آزت).. الله.

في نفس اللحظة التي نطقتها، كان (عزت) ملقى أرضاً، أمام (هتلر) الشيخ، وقد امتصت تلك الموجات السلبية القوية قواه الفائقة كلها..

لقد عاد مجرّد رجل عادي، كما كان في عالمه..

رجل نحيل، ضعيف.. بسيط.

وفي زهو متغطرس، دار الفوهلر حوله، قائلاً:

– تصوّرت أنك ستهزم (أدولف هتلر)، لمجرّد أنك اكتسبت قوة فائقة.. هراء.. الفوهلر لا ينهزم بهذه السهولة.. الفوهلر سيبقى، بعد أن تفنوا جميعاً.

غمغم (عزت) بالعربية في ضعف:

– مجنون.

اشتعلت عينا (هتلر) غضباً، وهو يشير إليه في صرامة، صائحاً:

– حذار يا هذا.. السنوات الطويلة، التي قضيتها ملكاً متوجاً، على عرش

العالم كله، منحتني الوقت لدراسة لغات عديدة.. منها لغتك العربية.

قال (عزت)، وهو يحاول النهوض:

– ألا تعتقد أنه قد حان الوقت لتذهب.

صرخ (هتلر):

– هراء.. سأبقى.. سأبقى إلى الأبد.

لم يستطع (عزت) النهوض، من شدة ضعفه، فعاد يرقد أرضاً، وهو يقول:

– لا أحد يبقى إلى الأبد.

صرخ (هتلر) مرة أخرى:

– هراء جديد.

ثم رفع يده بامتداد كتفه، وضغط زر جهاز صغير في كفه، فبرزت اسطوانة الطاقة، من منتصف الأرضية، واستطرد هو في هياج عجيب:

– هل ترى هذه؟!.. إنها شيء لم تعرفه في عالمك حتماً.. إنها اسطوانة خاصة، تجدّد خلايا جسدي أوّلاً بأوّل، وتعيد إليّ النشاط والحيوية والقوة طوال الوقت، وما دامت باقية، فأنا باق.

تطلّع (عزت) إلى الاسطوانة في اهتمام كبير، فصاح (هتلر)، وقد أغضبه هذا بشدة:

– أين الرجال؟!.. أين رقم واحد؟!.. لماذا لم يأتوا؟!

حاول (عزت) أن يبتسم، وهو يقول:

- لن يأتوا.

صاح فيه (هتلر):

- لا أحد يعصى أوامر الفوهلر.. لقد أمرتهم بالحضور، ولا يمكنهم مخالفة أوامري.

قال (عزت)، وهو يستعيد تماسكه تدريجياً:

- لن يأتوا؛ لأنهم منشغلون.

ردَّد الفوهلر في عصبية:

- منشغلون؟!

لوَّح (عزت) بكفه، قائلاً:

- ماذا تظنني كنت أفعل، خلال الفترة الماضية؟!.. لقد أوقفت كل نظم الأمن، وفتحت أبواب (فوربادا) أمام مقاتلي المقاومة.

تراجع الفوهلر مصعوقاً، وهو يهتف:

- البدائيون؟!

ابتسم (عزت)، قائلاً:

- نعم.. البدائيون، الذين يقاتلون بالسيوف والرماح والحجارة.. دون دروع أو تروس.. إنهم يملئون مقر حكمك الآن، وسيوفهم تثبت أن فئة قليلة، قادرة على أن تهزم فئة كثيرة بإذن الله، لو أنها امتلكت الدافع، والحماس والإدارة..

تراجع (هتلر) مرة أخرى في ارتياع، وهو يحدِّق في(عزت)..

وشعر لحظتها أن خلاياه تشيخ..

وتشيخ..

وتشيخ..

الانفعال والإثارة استنفذا كل قواه..

وكل نشاط وحيوية خلاياه..

وغضبه كاد يدفعه إلى الانهيار..

الانهيار التام..

غضبه مما حدث..

ومن انهيار أسطورة (فوربادا)..

ومن (عزت)..

بالذات من (عزت)، الذي بدأ كل هذا..

(عزت) الذي سقط من عالمه، ليفسد هذا العالم، من وجهة نظره..

وبكل غضبه هذا، أخرج الفوهلر من جيبه سلاحاً أشبه بالكرة، صوَّبه نحو (عزت)، وهو يقول:

- إنها أوَّل مرة أقتل فيها شخصاً مباشرة، منذ زمن طويل، ولكنك تستحق هذا.

وضغط جانبي الكرة، فتألَّقت..

وتموَّج تألُّقها..

ثم انطلقت منها حزمة من الأشعة..

القاتلة..

نفس الأشعة، التي أطلقها، على مقياس أكبر، ذلك الآلي العملاق، نحو (فراس) في عالمنا..

لقد صوّب الآلي أشعته، نحو (فراس)، الذي يطلق عليه رصاصات مسدسه، في ثبات شديد، على الرغم من ثقته في أن هذه نهايته..

ثم ضغط الزناد..

وانطلقت الأشعة القاتلة..

ولكنها لم تصب (فراس)..

صحيح أنه كان يصوّب بمنتهى الدقة الآلية، التي يستحيل معها أن يخطئ هدفه، حتى لو تحرّك هذا الهدف مبتعداً، ولكن...

فجأة، انطلقت حزمة أشعة قوية، من مستوى أعلى، وأصابت ذلك العملاق الآلي، وسحقته سحقاً، وهي تلقى به مائة متر في الهواء، قبل أن يسقط أرضاً، ويبدو وكأنه قد ذاب في رمال الصحراء..

هنا فقد، اتسعت عينا (فراس) في دهشة شديدة..

لقد انطلقت الأشعة بالفعل..

ولكنها لم تصبه..

ومع ذلك الهدير القوى، الذي عبر فوق رأسه، في سرعة خرافية، رفع

عينيه إلى السماء، وسط الرمال العاصفة، وسمع كبير العلماء يهتف، في ذهول يمتزج بالفرحة:

- إنه السرب السادس.

اتسعت عينا (فراس) عن آخرهما، وهو يحدّق كالباقين، في مقاتلات السرب السادس، التي راحت تنقض على العمالقة الآليين، وتلك التنانين الرهيبة، وتمطرها بحزم أشعة أرجوانية، راحت تسحقها سحقاً، في مشهد رهيب، جعله يتمتم:

- مستحيل!.. مستحيل!

عاد كبير العلماء مندفعاً نحوه، وهو يهتف:

- لقد عاد السرب السادس، في اللحظة المناسبة.. رباه!.. كثيراً ما سمعت عبارة اسع يا عبد، وليسع الله سبحانه وتعالى معك، ولكنني لم أرها رأي العين، حتى يومنا هذا.

انعقد حاجبا (فراس) في شدة، وهو يقول في توتر:

- هذا ليس السرب السادس.

كان القول مرتبطاً بطبيعته العسكرية، وليس الشخصية..

فما يراه، لم يكن يشبه أي سلاح معروف، على وجه الأرض..

صحيح أنها طائرات السرب السادس، وتحمل شعار النسور، ولكن السرعة التي تنطلق بها، والأشعة الأرجوانية الساحقة، التي تطلقها، لم تكن أرضية..

على الإطلاق..

فهو، بحكم منصبه وموقعه، مطلع على أحدث الأسلحة المعروفة، وأحدث الابتكارات، في هذا المضمار..

وما يراه لا يشبه أي شيء يعرفه..

أو يتوقّعه..

أو حتى يتخيّله..

وبالنسبة إليه، كان هذا دليل على أن ما ينطلق أمامه، وما يناور ويقاتل، ويسحق العمالقة والتنانين، ليس سرب النسور السادس..

أو أي سرب أرضي..

"إنها مجرّد خدعة بصرية.."..

هتف بالعبارة، في عصبية شديدة، وهو يرفع مسدسه إلى أعلى، وكأنه سيطلق النار على السرب، فصاح كبير العلماء في انفعال:

– خداع أو حقيقة.. المهم أنه يقاتل في صفوفنا.

صاح (فراس) في عصبية:

– وماذا لو أنها تلك الأجسام الطائرة المجهولة، في صورة أخرى.

أدهشه وأحنقه أن هتف كبير العلماء في سعادة:

– سيكون هذا من حسن حظنا.

التفت إليه (فراس) بنظرة مستنكرة، فلوّح بيده، مستطرداً:

– لقد حللنا شفرة رسالتهم.

انعقد حاجبا (فراس)، وهو يحدّق فيه بعينين متسائلتين، فانفرجت شفتا كبير العلماء ليجيبه، ولكن إحدى مقاتلات السرب السادس أطلقت حزم إشعاعية أرجوانية نحو أحد العمالقة، فدوى انفجار قوي، على قيد خطوات منهما، وأطاح بهما بعيداً في عنف..

وشعر (فراس) بألم شديد في جسده ورأسه، ورأى كبير العلماء فاقد الوعي، على بُعد أمتار منه، وخُيّل إليه أنه يرى جسماً طائراً مجهولاً، يعبر فوق رأسه..

ثم غامت الدنيا أمام عينيه..

وفقد الوعي..

أو هكذا تصوّر..

فعندما يفقد المرء وعيه، يغيب عقله عن الوجود..

ولكن عقل (فراس) لم يفعل..

لقد ظل يشعر بتلك المعركة، التي تدور من حوله..

يسمع هدير المقاتلات..

وأزيز حزم الأشعة..

ودويّ الانفجارات..

وسقوط العمالقة الآليين..

والتنانين الرهيبة..

ونيرانها..

وسقوطها..

ثم فجأة، هو أكل شيء من حوله..

وخُيِّل إليه أنه قد فتح عينيه، ورأى أمامه سماءً صافية، يسطع في ظلمتها قمران..

قمران توءمان، متألقان كطبقين من الفضة، بحجم يفوق قمر الأرض بمرتين على الأقل..

ثم أطل عليه وجه هادئ..

وجه أشبه ببيضة كبيرة، من رأس صلعاء ضخمة، إلى ذقن صغيرة، مع عينين واسعتين سوداويين، بلا بياض، وأنف بالغ الدقة، وفم مشقوق بلا شفتين..

وعلى الرغم من ملامحه العجيبة، غير الأرضية، فقد شعر (فراس) معه بهدوء عجيب، واسترخاء ما بعده استرخاء..

ولقد انحنى عليه صاحب الوجه، وابتسم، أو هكذا بدا، مما ضاعف من شعوره بالارتياح، وخاصة عندما مسَّ ذلك الكائن، رفيع الأطراف جبهته بأصابع طويلة دقيقة..

ومع لمسته، تفجَّر شيء عجيب، في رأس (فراس)..

في مخه..

في أعمق أعماق عقله..

تفجَّرت قصة طويلة، في لحظة واحدة..

قصة تبدأ منذ قرون عديدة، حيث سادت حضارة عظيمة..

حضارة واجهت أسوأ ظروف، يمكن أن يواجهها مخلوق حي..

نيزك هائل، جاء من غياهب الفضاء، وارتطم بالأرض، وأطلق طاقة هائلة، تساوي مليون مليون قنبلة نووية..

وارتفعت درجة حرارة الأرض..

وارتفعت..

مخلوقات هائلة أبيدت..

ديناصورات..

وبشر..

وأشجار..

وحقول..

ومخلوقات أخرى نجت بأعجوبة..

أو فرَّت إلى الفضاء..

سفينة عملاقة، تحمل مئات من أبناء الحضارة العظيمة، شقَّت الفضاء، بحثاً عن مستقر آخر، بعد أن لم تعد الأرض صالحة للحياة..

وطالت الرحلة..

سنوات ضوئية عديدة، والسفينة تمضي..

وتمضي..

"عقيد (فراس).. استيقظ.."..

انتزعه صوت كبير العلماء من غيبوبته أو حلمه، فانتفض، وفتح عينيه عن آخرهما، وحدّق في وجهه، مغمغماً:

– أين نحن؟!

سأله كبير العلماء بابتسامة هادئة:

– هل كنت تحلم؟!

حدّق (فراس) في وجهه لحظات، في اضطراب واضح، قبل أن يغمغم:

– لست أدري!

انتبه فجأة إلى الهدوء المحيط به، على الرغم من رقوده على رمال الصحراء، فتلفّت حوله بحركة عصبية، هاتفاً:

– ماذا حدث؟!..

لم يكن بحاجة إلى جواب، ليدرك أن المعركة قد انتهت..

أو هذه الجولة منها على الأقل..

ففي كل مكان، تناثرت جثث وأشلاء الضحايا، وحطام الأسلحة والمعدات..

جنود..

علماء..

تنانين..

آليون..

دبابات..

مدرعات..

ومقاتلات..

كانت أضخم ساحة معركة، رآها في حياته..

الآليون العمالقة، والتنانين الهائلة، كانت تفترش رمال الصحراء، على مساحة واسعة كبيرة، جعلت المشهد كله أشبه بفيلم خيال علمي حديث..

وفي سماء واضحة، رغم كثرة عدد الضحايا، هتف كبير العلماء:

– لقد ربحنا هذه الجولة، بفضل أبطال السرب السادس.

رفع (فراس) رأسه بحركة غريزية، ورأى أسراب المقاتلات تدور حول طائرات السرب السادس، التي توقّفت في السماء، على نحو لا تستطيعه أية مقاتلة أرضية، مهما بلغت قوتها وحداثتها..

واتسعت عينا (فراس)، وهو يكرّر ما قاله مسبقاً:

– هذا ليس السرب السادس.

ربّت كبير العلماء على كتفه، قائلاً:

– إنه هو.. لقد تم الاتصال بينهم وبين القاعدة، وأثبتوا هويتهم.

هتف (فراس) في عصبية:

– هراء.. لقد زيّفوا هذا!

سأله كبير العلماء، في هدوء عجيب:

- زيفوا الأسماء، والرتب، والأكواد السرية أيضاً.

لوّح بذراعه، هاتفاً:

- لقد انتزعوا كل هذا من عقولهم.. من أعمق أعماق أدمغتهم.

ربّت عليه كبير العلماء مرة أخرى، وقال:

- من الواضح أنك لم تفهم الموقف بعد.

دفع (فراس) يده في عنف، صارخاً:

- أي موقف؟!

لم تكن صرخته قد اكتملت بعد، عندما شعر بتلك الرجفة العجيبة في جسده..

الرجفة التي دفعته ليرفع رأسه إلى أعلى، على نحو لم يفهم قط.

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما..

فهناك، في سماء المعركة، كانت هناك دائرة كبيرة من تلك الأجسام الطائرة المجهولة، تحيط بالمنطقة كلها..

وكانت تدور حول نفسها..

وتشع بتلك الأضواء المختلفة، التي تتبادلها فيما بينها، في سرعة كبيرة..

وكان الكل يتطلعون إليها في صمت ورهبة..

وفي خوف أيضاً..

وحتى المقاتلات، من جميع الأسراب، كانت تدور في السماء، دون أن تحاول مهاجمة تلك الأجسام والاشتباك معها..

كان الأمر يبدو وكأنهم قد تعلموا الدرس، وأدركوا أنه من الخطأ محاولة التصدي، لتلك الأجسام مجهولة الهوية..

ولقد شعر (فراس) بدهشة شديدة، عندما رأى ابتسامة هادئة، على شفتي كبير العلماء، وهو يراقب المشهد في استمتاع شد، فقال في حدة:

- هل تسعدك رؤيتهم؟!

أجابه كبير العلماء بنفس الابتسامة، ودون أن يرفع عينيه عن السماء:

- بالتأكيد.. ألا تدرك مدى عظمة اللحظة يا رجل.. إنه أول لقاء صريح، بين البشر، وتلك الأجسام مجهولة الهوية.. احص من حولك، وستجد عدداً من الشهود، لا يمكن دحضه، أو اتهامه بالغفلة، وخلل الرؤية، كما كانت كل الحكومات تفعل دوماً.. إنها لحظة تاريخية.. لحظة تحول الخيال العلمي إلى حقيقة..

هتف (فراس) في غضب:

- حقيقة قاتلة.

قال كبير العلماء، بتنهيدة كبيرة:

- على العكس.

مع آخر حروف كلماته، بدت الأرض ترتجف تحت أقدام الجميع..

ترتجف ببطء في البداية..

ثم تشتد أكثر..

وأكثر..

واضطربت القوات مرة أخرى، وصاح قائدها:

- فليتخذ كل منكم موقعه.

أسرع الجميع إلى أسلحتهم، وهتف (فراس) في عصبية:

- يبدو أن الجولة الثانية قد بدأت.

ولم ينبس كبير العلماء ببنت شفة...

لقد بدأت الأرض ترتجف في عنف، ودوامة الرمال تدور في سرعة كبيرة للغاية..

وهذا يعنى أن (فراس) على حق..

إنها الجولة الثانية..

ولكنه مثل الباقين، لم يدرك أن تلك الجولة ستحمل إليهم، من العالم الآخر، مليون مقاتل نازي خارق على الأقل، مع ألف مقاتلة حربية فائقة..

وستكون المعركة رهيبة..

وحشية..

ودموية..

إلى أقصى حد.

• • •

الفصل الثالث والعشرين

(مارا)...

(مارا) تحتاج إليك يا (عزت)..

تفجّرت الفكرة في رأس (عزت)، وهو يرقد بكل ضعفه، أمام الديكتاتور النازي، الذي يصوّب إليه كمرة الموت..

ومع ذكر (مارا)، حاول أن يستنفر قواه..

حاول..

وحاول..

بكل قوته..

وكل إرادته..

وكل حزمه..

وعزمه..

ولكن تلك الطاقة السلبية، التي استنزفت قواه، كانت قوية للغاية، ومركّزة على جسده مباشرة، حتى أنها لم تكتف بسحب القوى الزائدة، التي اكتسبها في هذا العالم، ولكنها سحبت حتى قواه الأصلية، حتى لم يعد باستطاعته

حتى أن يعتمد على مرفقيه وينهض..

ليس من أجل حياته..

أو حتى من أجل (مارا)..

وكم آله هذا، وملأ نفسه بالمرارة والعجز والخزي..

إنه مستعد للتضحية بنفسه، دون لحظة واحدة من التردُّد، من أجلها..

ولقد تصوَّر، بعد أن استغربه المقام، في هذا العالم، أنه قادر على حمايتها والزود عنها، بتلك القوى التي اكتسبها، والتي منحته الثقة، والشجاعة، والإقدام..

ولكن ها هو ذا قد فقدها، ويرقد عاجزاً، أمام خصم لا يرحم..

خصم لم يتورَّع عن إبادة الملايين، من أجل أن يبقى، على عرش من ذهب، ما بقي له من العمر..

العمر الذي طال أكثر مما ينبغي، بوسيلة صناعية شيطانية، ليضاعف من عذاب العالم ومأساته..

وما هي إلا لحظة، ويصبح هو مجرَّد تاريخ، بعد أن يطلق عليه هذا الديكتاتور الطاعن في السن، أشعته القاتلة..

وعلى الرغم من أصوات القتال العنيف، التي تتردَّد في الخارج، لم يتردَّد الفوهلر العجوز عن ضغط كرته، صارخاً:

- مت أيها الدخيل.. مت.

وأغلق (عزت) عينيه بشدة، متوقعاً أن تصيبه الأشعة القاتلة..

وأن تسحقه سحقاً..

ولكن هذا لم يحدث..

ثوان عشر مضت، دون أن تصيبه الأشعة، مما جعله يفتح عينيه، ويتطلَّع في توتر إلى (هتلر) ذلك العالم، والذي بدا وكأنه قد شاخ عشر سنوات أخرى على الأقل، وهو يحدِّق في كرته القاتلة في استنكار، هاتفاً في غضب:

- انطلقي.. اسحقيه.

وتألَّقت عينا (عزت)، كما تألَّق عقله..

وبحكم دراسته وخبرته، فهم الموقف على الفور..

"سلاحك هذا يعتمد على الموجات الكهرومغنطيسية الفائقة..".

نطقها في شيء من الارتياح، على الرغم من دقة موقفه، فالتفت إليه الفوهلر بحركة حادة، وصرخ في غضب:

- اصمت.

شعر (عزت) بقليل من قواه يرتد إليه، مما جعله يعتمد على مرفقيه، وينهض قليلاً، مكملاً:

- لقد طوَّرتم الموجات الكهرومغناطيسية ووسائل إطلاقها، كما طوَّرنا نحن في عالمي أشعة الليزر.. والموجات السلبية، التي أطلقتها لتجريدي من قواي، جرَّدت كرتك من طاقتها أيضاً، ولهذا لم تنطلق قدرتها الساحقة.

انتفض الفوهلر من شدة الغضب، وهو يصرخ مكرراً:

- اصمت.. اصمت.

حاول (عزت) أن يجلس، وهو يقول:

- وماذا لو لم أفعل.. هل ستقتلني بيديك العاريتين؟!

اشتعلت عينا (هتلر) غضباً، وسحب مسدساً قديماً من حزامه، هاتفاً:

- كلا.. ما زالت لدي وسائلي الفعّالة.

وصوّب مسدسه نحو (عزت) بيد مرتجفة، مستطرداً:

- هيا.. قل وداعاً للعالمين يا هذا.. عالمك.. وعالمي؟!

لم يكد ينهي عبارته، حتى اقتحم (آجور) القاعة، وهو يقاتل أحد نسخاء هتلر، وفارس من الفرسان الدرعين، في بسالة وقوة، لم يرهما (عزت) من قبل، إلا على شاشات السينما.. كان يتحرّك بخفة الطير، وقوة الأسد، ورشاقة غزال، وهو يضرب بسيفه يميناً ويساراً، ويضرب شبيه (هتلر) بقدمه في صدره، ثم يدور حول نفسه، ليهوى على سيف الفارس المدرّع بضربة بالغة القوة..

كان (عزت) قد أبطل مفعول الموجات الخاصة، التي تمنح الدروع قوتها ومناعتها، فأصبحت مجرّد دروع..

دروع ثقيلة، لا تتيح لحاملها القدرة على المناورة والمحاورة، بالخفة اللازمة..

لذا فقد انهالت ضربات (آجور) على الفارس، كمطارق من الجحيم، ودار

حول نفسه دورة مدهشة، ليضرب عنق شبيه (هتلر)، ثم ينقض مرة أخرى على الفارس الدرّع، ويجبره على تراجع حاد، أفقده توازنه، وأسقطه على ظهره..

واتسعت عينا (هتلر) في ذعر شديد، عندما رأى عنق شبيهه يطير..

كان كما لو أنه يشاهد عنقه هو يطير، ويسقط أمامه، متدحرجاً على الأرض، مع ذيل طويل من دم أحمر قانٍ..

وبكل رعب الدنيا، راح يتراجع..

ويتراجع..

نسي تماماً أمر (عزت)..

ونسي حتى المسدس الذي يحمل..

فقط تذكّر عنقه..

وحياته..

وبأقصى سرعة يسمح بها عمره، أسرع عائداً إلى عرشه الذهبي، وفتح غطاءً خفياً في مقبضه، وراح يضغط بعض الأزرار في عصبية..

كان من الواضح أنه يقوم بتشغيل شيء ما..

شيء يحميه..

أو يقتل مهاجميه..

والتفت (عزت) إلى (آجور) في لهفة، ورآه يضرب الفارس ضربة شديدة العنف، ليخترق سيفه درعه، وينغرس في قلبه، فصاح به:

- (آجور).

التفت إليه (آجور) بقامته الممشوقة، وبنيانه القوي، وعضلاته البارزة، وهو يرفع سيفه، في تحفز، على نحو جعله أشبه ببطل أسطوري، فصاح به، وهو يشير إلى اسطوانة تجديد الخلايا:

- حطمها يا (آجور).. حطمها فوراً.

اتسعت عينا (هتلر) في رعب، وصرخ:

- لا.. ليس الاسطوانة.

وبأقصى سرعته، راح يضغط أزرار إعادتها إلى الأرضية، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها من حوله جرار شفاف، مضاد للقنابل النووية، مصنوع خصيصاً لحمايته، من أي اعتداء مباشر..

وعلى الرغم من جهل (آجور) للغتي الرجلين، فقد هداه ذكاؤه إلى ما يريد (عزت) قوله، فانطلق بأقصى سرعته، نحو الاسطوانة، التي بدأت تغوص في الأرضية بالفعل..

وبالنسبة لما يراه (عزت)، فقد بدا الأمر أشبه بسباق رهيب..

سباق بين (آجور)، الذي بدا وكأنه يطير، عبر القاعة الواسعة، وتلك الاسطوانة، التي تغوص في سرعة مدهشة..

وانعقد حاجبا (عزت) في شدة، وهو يتساءل: تُرى من سيربح هذا السباق..

السباق من أجل الحرية..

والحياة..

والمستقبل..

ولقد اقتربت الاسطوانة من الأرض بالفعل..

ولكن (آجور) وثب..

وثب وثبة مدهشة، طار خلالها عبر ما تبقى من مسافة، ثم هوى بسيفه على قمة الاسطوانة، قبل حتى أن يهبط أرضاً، وبكل ما يملك من قوة..

وصرخ الفوهلر في رعب وانهيار هائلين..

- لا..

ولكن قمة الاسطوانة تحطمت في عنف، وانطلق منها غاز عجيب، تفجّر بصوت مكتوم، ثم انتشر في المكان في لحظة واحدة..

وبعدها صدر دوي آخر مكتوم..

دوي يوحي بأن الاسطوانة قد انفجرت، في مكمنها، في باطن القاعة..

ذلك الارتجاج المحدود كان دليلاً على هذا..

وشعر (عزت) بذلك الغاز، يتسلّل إلى صدره..

وشعر بقواه العادية ترتد إليه..

وعندما نهض واقفاً، شاهد (آجور) يهب على قدميه، ويندفع صاعداً، إلى حيث عرش الفوهلر، ثم يهوى على ذلك الحاجز الدائري الشفاف بسيفه..

وعلى الرغم من دوى ضرباته، لم يبد حتى أن الفوهلر قد شعر بوجوده، وهو يحدق في الاسطوانة المحطمة، صارخاً..

لا.. إننى أحتاج إليها.. أحتاج إليها بشدة.. أحتاج إليها لأبقى.

كان قد تحوّل، في تلك اللحظات القليلة إلى شيخ كبير للغاية، فانحنى ظهره، وتغضّنت ملامحه، وتهالكت أطرافه، وكأنما تنهار خلاياه، في سرعة مدهشة..

وفي إشفاق، جاء على الرغم منه، قال (عزت)، وهو يتأمّل هذا المشهد:

- كفى يا (آجور).

التفت إليه (آجور)، في حركة حادة، وهو يرفع سيفه متحفزاً، فأشار (عزت) إلى الفوهلر، مغمغماً:

- ألا ترى؟!.. الرجل ينهار.

انعقد حاجبا (آجور) في غضب، ومطّ شفتيه في ضيق، إلا أنه خفض سيفه في بطء، وهو ينقل بصره بين (عزت) والفوهلر..

ثم استعاد تحفزه بغتة، ورفع سيفه في قوة، وهو ينظر إلى حيث باب القاعة المنهار في غضب، جعل (عزت)ن يستدير بدوره، ثم يتراجع بحركة حادة..

فهناك، عند الباب، كان يقف رقم واحد، مع عشرة من أشباهه، وكلهم يصوبون أسلحتهم القوية، نحوه ونحو (آجور).. مباشرة..

في نفس اللحظة، التي واجها فيها هذا، كان كبير العلماء و(فراس)،

ورجال الجيوش العربية المشتركة، يستعدون لمواجهة قوات الغزو..

فالثغرة الكبيرة الجديدة كانت تتسع..

وتتسع..

وتتسع..

وكان مليونا مقاتل نازي يستعدون لعبورها..

ولاكتساب مناعة وقوة خارقة، في عالمنا..

وبكل توتر الدنيا، هتف (فراس)، وهو يسحب مسدسه:

- إنه هجوم مزدوج، من أعلى وأسفل.

صاح به كبير العلماء:

- لست تفهم ما يحدث هنا.

هتف (فراس) في غضب:

- أي رجل عسكري، من الدرجة الثالثة، يمكنه أن يفهم ما يحدث.. هناك غزو سيأتي عبر الثغرة، وستحميه هذه الأجسام الطائرة المجهولة.

صاح كبير العلماء، ملوّحاً بذراعيه:

- كلا.. الأمر مختلف تماماً.

دوت فرقعة قوية في السماء، عقب عبارته، ورفع الجميع عيونهم إلى أعلى في تلقائية، وسقطت قلوبهم تحت أقدامهم، عندما شاهدوا ذلك الجسم الهائل، يبرزُ من بين تلك الأجسام المستديرة الأخرى، ويهبط نحوهم في بطء، في نفس

الوقت الذي راحت فيه الثغرة تتسع.. وتتسع..

وفي بطء شديد، خفض (فراس) مسدسه، وهو يغمغم، بكل توتر الدنيا:

- لقد كانوا على حق.

سأله كبير العلماء في حيرة عصبية:

- من؟!

أجابه في مرارة:

- القادة.. كانوا على حق طوال الوقت.

صمت كبير العلماء تماماً، ولم يحر جواباً، فتابع (فراس)، في مرارة أكثر:

- ولكن هذا لم يعد يصنع فارقاً.. لقد انهزمنا، ولم يعد لدينا أمل، إزاء هذه القوى الهائلة.

يأسه هذا كان ينافس يأس (عزت)، وهو يواجه رقم واحد ورجاله..

ولقد تحفّز (آجور) في بسالة، وهو يمسك سيفه بقبضتيه، كما لو أنه سيقاومهم جميعاً، في حين هتف الفوهلر في لهفة، فور رؤيتهم:

- رقم واحد.. اطلق النار عليهما.. اقتلهما.

تطلّع إليه رقم واحد في صمت، دون أن يحاول تنفيذ الأمر، فانحنى ظهر الفوهلر، وتغضّنت ملامحه أكثر، وهو يصرخ غضباً:

- ألم تسمع أمري؟!.. نفذ.. نفذ وإلا شنقتك على أسوار (فوربادا)..

اقتلهما وانقذني.

شعر (عزت) بالدهشة، عندما لم يحرِّك رقم واحد أو رجاله ساكناً، وإنما وقفوا صامتين، يتطلعون إلى الفوهلر، الذي تنهار خلاياه على نحو مخيف، وإن لم يمنعه هذا من أن يصرخ، في صرامة متهالكة:

- قلت لك: إنقذني أيها الحقير.

مرة أخرى، لم يحرِّك رقم واحد ورجاله ساكناً، فانهار الفوهلر على ركبتيه، وراح ينكمش في مشهد مخيف، وصوته يتحوّل إلى ضراعة باكية:

- انقذني يا رقم واحد.. أرجوك.. أتوسّل إليك.. خلاياي تنهار.. إنني أموت.. أنت جزء مني.. نسخة طبق الأصل.

تمتم (عزت):

- ولهذا لن ينقذك.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف:

- ولن يرحمك.

انهار الفوهلر باكياً، وجسده يواصل الانكماش، حتى صار أشبه بطفل صغير شديد النحول، وتخاذل صوته بشدة، وهو يقول:

- انقذني.. أرجوك.

كان هذا آخر ما قاله، قبل أن يتوسّد الأرض، ويخمد صوته تماماً، ويرتجف جسده الضئيل مرة..

وثانية..

وثالثة..

ثم يخمد تماماً..

وإلى الأبد..

ولما يقرب من دقيقة كاملة بعدها، ساد قاعة الحكم صمت مهيب رهيب، وكأنما لا يصدّق أحد أو لم يستوعب ما حدث.

وهذا أمر طبيعي، كما فكّر (عزت)..

فبعد ما يقرب من قرن كامل، من حكم فرد ديكتاتوري طاغ، يصبح من الصعب استيعاب أنه قد ذهب..

رحل كما رحل، ويرحل، وسيرحل كل البشر يوماً..

حتى الطيور الحبيسة لفترة طويلة لا تغادر أقفاصها، عندما تفتح لها بابه..

فالقهر مثل الحرية... اعتياد..

ولقد تطلّع الجميع إلى جثة الفوهلر لحظات، ثم التفت (آجور) و(عزت) في تحفّز إلى رقم واحد ورجاله..

وبكل دهشتهما، خفض الرجال أسلحتهم، وتساءل رقم واحد، في صوت يحمل من التوتر والحيرة، أكثر مما يحمل من الصرامة والقوة:

- والآن، ماذا ينبغي أن نفعل؟!

السؤال فجّر في ذهن (عزت) تساؤل أكثر خطورة، فتحرّك نحوه رقم واحد وأمسك ذراعه في قوة، وهو يهتف بلهجة متسائلة:

- المقاومة.

أجابه رقم واحد، بنفس التوتر:

- السائل الحارق سيبلغهم، خلال ربع الساعة فقط، وسيهلكهم جميعاً، خلال دقائق معدودات إما حرقاً، أو اختناقاً بالغازات التي يطلقها.

انعقد حاجبا (عزت) في شدة، وهو يقول:

- يا إلهي!!.. يجب أن نمنع هذا، بأية وسيلة.

كان (آجور) يشعر بتوتر شديد، جعله يمسك سيفه في تحفّز متوتر، وهو لا يفهم ماذا يحدث من حوله بالضبط.

لقد جاء مع رجاله إلى هنا ليقاتل..

ويحارب.

ويتحرّر..

وها هو ذا المنقذ، الذي جعلهم يدخلون (فورباذا)، لأوّل مرة في حياتهم، يقف ليتحدّث إلى أشباه الفوهلر، وكأنهم رجاله..

فماذا يحدث بالضبط؟!..

ماذا؟!..

لم يكن يفهم أو يستوعب..

ولكن المدهش أنه لم يعترض..

فبعد كل ما حدث، وكل ما تحقق، في الأيام القليلة الماضية، صار يؤمن بالمنقذ إيماناً شديداً، يحتم طاعته طاعة عمياء..

ومن وجهة نظره، كان الآخرون قد أدركوا هذا أيضاً؛ ولهذا لم يقتلوه..

ولهذا أيضاً يستمعون إليه في اهتمام، وهو يقول:

- هناك حتماً وسيلة لهذا.

هزّ رقم واحد رأسه في أسف، مغمغماً:

- كلا للأسف.. لقد تم إطلاق السائل بالفعل، وما من وسيلة لمنع سائل من بلوغ نهاية مساره.

انعقد حاجبا (عزت) في شدة، وهو يطرح السؤال في أعماقه..

ما الذي يمكن أن يوقف مسار سائل يزحف؟!..

ليس سداً بالتأكيد، في هذه الفترة القصيرة..

فماذا إذن؟!..

ماذا؟!..

"لا توجد أية وسيلة.."..

غمغم (كوناد) بالعبارة في أسى ومرارة، وهو يضم (مارا) إليه، في حنان أبوي مشفق، وامتزجت ارتجافتهما، وأحد الرجال يسأله:

- وماذا عن النفق.. والخندق؟!

زفر، مغمغماً:

- الوقت لن يسعفنا، لحفرهما بالعمق الكافي، لاستيعاب السائل الحارق كله.. سينسكب في الخندق، ويمر عبر النفق، ثم يرفع مشوبه فيهما، ويفيض على قريتنا..

وصمت لحظة، ثم أكمل في حزن مرير:

- ويغمرنا جميعاً.

انهمكت (مارا) في بكاء مذعور، وهي تدفن جسدها النحيل الرقيق في جسده، مرتجفة في شدة، في حين قال الرجل في انهيار:

- ماذا سنفعل إذن؟!

أجابه (كوناد) في سرعة:

- نصلي.

تمتم الرجل في دهشة:

- نصلي.

رفع (كوناد) سبّابته إلى السماء، وقال:

- نعم.. نصلي لله.. لذلك الخالق الأوحد، الذي أخبرنا عنه (سافور).. ذلك الذي بيده أن يرسل إلينا رحمته، بعد أن تضيع كل سبل النجاة.

بدا الرجل مبهوتاً، وهو يحدّق فيه في صمت، فاعتدل، مكملاً:

- هيا.. اجمع كل سكان القرية.. كلهم بلا استثناء.. سنصلي جميعاً صلاة

مشتركة.. لله.

غمغم الرجل:

– ولكن كيف؟!.. (سافور) لم يعلمنا كيف نفعلها!

أجابه (كوناد) في حزم:

– أنا رأيته يصلي، وسنحاول تقليده، وثق أن الله برحمته، سيستمع إلى كل من يحدثه بقلب صاف، وسيستجيب لكل من ينشده، حتى ولو أخطأ؛ لأنه – كما قال (سافور)– غفور رحيم.

أومأ الرجل برأسه متفهماً، والعجيب أنه بذكر الله عزّ وجلّ، اطمئن قلبه، على الرغم من السائل الحارق، الذي ينقض عليهم من كل صوب..

وفي استسلام وخشوع كاملين، اجتمع كل سكان القرية في منتصفها.. وراحوا يصلون..

لله..

وكان السائل الحارق قد بدأ ينسكب في الخندق غير العميق بالفعل..

وينسكب..

وينسكب..

"يا إلهي!!.. إنها تبدو أشبه ببالوعة كبيرة..".

قالها (فراس) بكل توتره وانفعاله، وهو يحدّق في تلك الثغرة الهائلة، التي تكوّنت وسط صحراء الربع الخالي، فغمغم كبير العلماء:

– البالوعة تسحب كل شيء إلى أسفل، أما هذه، فتلقي كل شيء إلى أعلى.

قال (فراس) في عصبية:

– ربما هي بالوعة في عالمها.

كانت القوات كلها تحاول التأهُب للقتال، إلا أنها مشتّتة بشدة، بين السماء، حيث يهبط ذلك الجسم الهائل المجهول، ورمال الصحراء، حيث تتكوّن الثغرة بين العالمين، وحيث بدأت أصوات قوات الغزو تتصاعد..

كانوا بين المطرقة والسندان..

بلا أمل واحد في الفوز..

وعلى الرغم من هذا فقد بقوا..

واستعدوا..

ثم فجأة، بدأت قوات الغزو تظهر..

مليون جندي، تحمل خوذاتهم شعار النازية الجديدة..

ثم مقاتلات..

مقاتلات نازية، انبعثت أسراباً من داخل الثغرة..

وفجأة، وقبل أن تنطلق من عالمنا رصاصة واحدة، انقضّت الأجسام الطائرة المجهولة.. وصرخ (فراس):

– أطلقوا النار.

ومع صرخته، بدأ إطلاق النار بالفعل..

أو بمعنى أدق، إطلاق حزم الأشعة..

واتسعت عينا (فراس) في ذهول..

وكذلك عيون الجميع..

كبير العلماء وحده ابتسم في ارتياح، كما لو أنه يشاهد أمراً مسلياً..

فتلك الأجسام المجهولة لم تنقض على القوات الأرضية، ولم تطلق نحوها حزمة أشعة واحدة..

بل انقضت على قوات الغزو..

وعلى مقاتلاتها..

ولدهشة (فراس)، انضمت إليها مقاتلات السرب السادس، وراح الكل يمطرون مقاتلات الغزو بحزم إشعاعية ناسفة، جعلتها تسقط كالذباب..

أما الجسم الهائل، فقد انخفض نحو مركز الثغرة مباشرة.

ثم أطلق من أسفل منتصفه تماماً، حزمة هائلة من الأشعة..

حزمة أصابت منتصف الثغرة تماماً..

وتفجّرت في المكان فرقعة هائلة، كادت تصم آذان الجميع..

وارتفعت جوانب الثغرة، في مشهد مخيف، حتى أصبحت أشبه بسد هائل الرمال، يرتفع لأكثر من عشرة أمتار..

وانطلقت القوات تبتعد، قبل أن تنهار فوقها هذه الأطنان من الرمال..

ولقد انهارت تلك الرمال بالفعل..

ولكن داخل الثغرة..

انهارت فوق القوات النازية..

ومقاتلاتها..

ومعداتها..

وقبل حتى أن يكتمل انهيار الرمال، أطلق الجسم الهائل المجهول حزمة إشعاعية هائلة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

وفي كل مرة، كانت تدوي الفرقعة الهائلة نفسها، فصمّ (فراس) أذنيه، وهو يحاول تفادي الرمال العاتية، صارخاً:

- ماذا يفعلون؟!.. ماذا يفعلون؟!..

أجابه كبير العلماء، صارخاً بدوره:

- ينقذوننا.

اعتدل (فراس)، صارخاً بكل دهشته:

- يفعلون ماذا؟!

ابتسم كبير العلماء، وهو صرخ:

- جئنا في سلام.

ردّد (فراس) في عصبية:

- ماذا؟!

صاح كبير العلماء:

- هذا ما أرادوا إخبارنا به منذ البداية.. منذ أسقطنا أحد أطباقهم الطائرة في (روزويل نيومكسيكو)، عام 1947م، وعندما هبطوا بعدها في (أوروبا) و(الكويت) و(مصر)، ولكننا في كل مرة كنا نطاردهم، ونتعامل معهم بعدوانية، ولم نمنحهم أبداً الفرصة، لتوضيح موقفهم.. جئنا في سلام، ونحن إلى جانبكم.. هذا ما قالته شفرة رسالتهم، التي تركوها في رمال الربع الخالي، وحقول (إنجلترا)، وأحراش (البرازيل)، وغابات (كينيا)، ولم يفهمها أو يحاول فهمها أحد.

حدّق (فراس) فيه بكل دهشته، وعاد يحدّق في تلك الأجسام الطائرة المجهولة، والجسم الهائل، وغمغم:

- إلى جانبنا؟!

كانت الموجات الكهرومغناطيسية السلبية تنحسر..

والعواصف الرملية تهدأ..

والغزو ينهزم..

القاتلات النازية تناثرت محطمة، على رمال الربع الخالي..

الجنود النازيون دفنوا، تحت أطنان من الرمال..

كل الآليين والتنانين سقطوا..

وذلك الجسم الهائل عاد يرتفع، ويذوب وسط الأجسام الطائرة المجهولة،

التي عادت ترتفع، وتشكّل تلك الدائرة الكبيرة، وتدور حول نفسها، وتتبادل الأضواء والألوان وأمام العيون الذاهلة، التي شملها صمت تام، اختفى الجسم الهائل في الفضاء، محاطاً بسحابة كبيرة..

وانطلقت الأجسام الطائرة الصغيرة تختفي خلفه، في غياهب الفضاء..

فيما عدا جسم واحد..

جسم طائر مجهول، دار في السماء دورتين، ثم أخذ يهبط في هدوء، نحو رمال الربع الخالي، واستقر معلّقاً في الهواء، على ارتفاع مترين كاملين، قبل أن يمتد منه بساط من ضوء أخضر، وانفتح بابه، لينزلق منه كائن عجيب، فوق البساط الضوئي الأخضر، نحو الرمال..

وانتفض جسد (فراس) بشدة..

إنه هو..

نفس الكائن الذي رآه في غيبوبته..

أو في حلمه..

الوجه البيضاوي..

العينان الواسعتان السوداوان..

الأنف الرقيق..

والفم المشقوق..

والابتسامة..

وعلى الرغم من ذهولهم، وتلك الرجفة الباردة كالثلج، التي سرت في أوصالهم، لم يتحرّك أحد الموجودين، أو ينبس ببنت شفة، واكتفوا بمتابعة ذلك الكائن في توتر شديد، وهو يتجه نحو (فراس) مباشرة..

وثبت (فراس) في مكانه، وهو يحدّق فيه، حتى وقف الكائن على قيد متر واحد منه..

ثم مد يده، ومس صدره بأصابعه الرفيعة الطويلة..

وانتفض جسد (فراس)، بكل العنف والقوة..

تلك اللمسة الرقيقة، تفجّرت في عقله كالقنبلة..

ونقلت إليه رسالة..

رسالة جعلت عيناه تتسعان عن آخرهما، وهو يغمغم بصوت مرتجف:

– مستحيل!

خيّل إليه أن الكائن قد ابتسم، وهو يتراجع منزلقاً في الهواء، حتى بلغ ذلك البساط الضوئي الأخضر، فانزلق فوقه إلى داخل الجسم الطائر، الذي أغلق بابه، ثم انطلق فجأة رأسياً إلى أعلى..

وسرعان ما اختفى بدوره في الفضاء، معلناً أنها الجولة الأخيرة..

لقد فشل الغزو..

تماماً.

• • •

الفصل الرابع والعشرين

لأوّل مرة، منذ زمن طويل، اجتمع سكان القرية كلهم، أو من تواجد منهم، في ساحتها الكبيرة..

وربما لأوّل مرة في حياتهم، راحوا يصلون..

لله عزّ وجلّ..

كانت الغالبية العظمى منهم لم تختبر هذا الشعور من قبل قط، إلا أنها، وعلى الرغم من هذا، كانت تشعر بخشوع كبير، في تلك اللحظات..

فكل إنسان، مهما بلغت بدائيته، يشعر في أعماقه دوماً برغبة قوية، في أن يكون هناك إله قوي، يرعاه ويحميه، إذا ما تكالبت عليه الدنيا..

حتى رجال العصر الحجري، بحثوا عن إله يعبدونه..

وكل الحضارات، حتى من نصفها بالوثنية، كانت تؤمن بوجود الإله..

لهذا عبدوا الشمس..

والنار..

وحتى الأصناف..

فطرتهم كانت تؤكد لهم حتمية وجوده، ولكن عقلياتهم المحدودة، لم

تسمح لهم بتصور مدى قدرته وعظمته..

فظلوا يبحثون عنه طيلة حضارتهم، ويتمثلون في كل ما يستشعرون قوته وبأسه..

وفي تلك اللحظات العصيبة، بالغة الحساسية والخطورة، كان سكان القرية كلهم يشعرون بأمس الحاجة إلى المعبود..

إلى الله، الذي أرشدهم إليه (عزت)..

لذا، فعلى الرغم من أن السائل الحارق بات على مشارف قريتهم، ورائحته تكاد تخترق أنوفهم، إلا أنهم أغلقوا عيونهم في قوة، وراحوا يصلون..

ويصلون..

ويصلون..

وفاضت دموعهم أنهاراً..

بعضها كان لشدة خوفهم..

ومعظمها كان للقائهم الأول مع خالقهم، الذي لم يتقربوا منه على هذا النحو من قبل..

(مارا) وحدها، كانت دموعها تختلف..

جزء هام منها، كان بسبب شقيقها (أوجار)، وحبيبها (عزت)..

لم تكن تدرى ما إذا كانا على قيد الحياة، أو إذا ما كتب لها أن تراهما مرة أخرى..

فربما لقيا مصرعهما..

وربما تلقى مصرعها..

ولهذا بكت..

وبكت..

وامتلأ الخندق بالسائل الحارق، ليرفع درجة حرارة القرية إلى حد مخيف، فراح الكل يتصببون عرقاً ملتهباً، وأصواتهم ترفع بالدعاء إلى الله، أن ينجيهم من هلاك محتوم..

ثم فجأة، سمعوا هدير طائرات تحيط بقريتهم..

ثم دوى انفجارات..

انفجار..

وثان..

وثالث..

ورابع..

وعلى الرغم من الذعر الشديد، الذي اكتنف نفوسهم، هتف أحدهم في فرحة:

- السائل يتراجع.

التفتوا جميعاً في لهفة، إلى حيث يشير، واتسعت عيونهم، في مزيج من الدهشة والفرح واللهفة..

لقد بدأ السائل الحار ينحسر بالفعل..

حتى تلك الكمية، التي ملئت الخندق، حملها النفق البدائي إلى خارج القرية، لتنحسر بدورها خارجها..

وفي انبهار ملهوف، هتف أحد الرجال:

- ماذا حدث؟!

أجابه (كوناد) بصوت مرتجف، من فرط الانبهار:

- معجزة.

هتفت إحدى النساء:

- إنه دليل من الله، على أنه قد تقبَّل صلاتنا..

غمغمت (مارا) في أمل:

- أو أنه..

شهقت في قوة، دون أن تكمل عبارتها، عندما رأت (عزت) يندفع من مدخل القرية، ثم يظهر (آجور) من خلفه، وخلفهما من تبقى من الرجال، الذين ذهبوا لغزو (فوربانا)..

ولقد بدا (عزت) شديد اللهفة، وهو يبحث بعينيه عنها، وتفجَّرت دموع الفرحة من عينيها هي، وهي تعدو نحوه، هاتفة، بكل ما يولِّده الحب من لهفة وسعادة.

- (آزت).

والتفت الكل إلى (عزت) مبهورين، فلم يبد قط أشبه بالمنقذ المنتظر، قدر ما بدا في هذه اللحظة، حتى أن عيني (كوناد) فاضتا بالدموع، وهو يغمغم:

- إنه هو.

وابتسم (آجور)، في حنان وسعادة، عندما وثبت (مارا) تتعلَّق بعنق (عزت)، وهي تبكي هاتفة، بكل سعادة الدنيا:

- (آزت).. (آزت).. الله.

استوعب بسرعة ما أرادت أن تخبره به، من أنها دعت الله أن يعيده سالمًا، واحتواها بين ذراعيه، بكل حب وحنان الدنيا، وهو يقول:

- أنا أيضًا يا حبيبتي.. أنا أيضًا دعوت الله سبحانه وتعالى أن يحفظك؛ لأنني لا أستطيع أن أحيا بدونك.

ثم أمسك وجهها بكفيه، ومنحها ابتسامة فرحة حنون محبة، وهو يسألها:

- (مارا).. هل تتزوجينني؟!

تطلَّعت إليه حائرة، وكأنها لا تفهم ما يقول، فأخبرها (آجور) بالأمر، حسبما استوعبه، وانتفض جسدها كله في قوة، وهي تحدِّق في وجه (عزت)، قبل أن تلقي نفسها مرة أخرى بين ذراعيه، هاتفة:

- (آزت).. (آزت).

فاضت الدموع من عينيه، وهو يضمها إليه في حب جارف وحنان غامر، في

حين وصل (كوناد) إليه، وقال في فرحة:

– مبارك أنكم قد نجوتم.. ولكن ماذا حدث.. ماذا فعلت؟!.. كيف أجبرت ذلك السائل الحارق على الانسحاب.

أشار (عزت) بيده، مجيباً:

– بنظرية بالغة البساطة.. إننا لا نستطيع إجبار السائل على التراجع، ولكننا نستطيع إيقاف ضخه، واستيعاب الموجود منه، في خزانات كبيرة.

غمغم (كوناد) في دهشة:

– خزانات؟!.. ولكن كيف؟!

لوّح (عزت) بيده، قائلاً:

– فيض من القنابل، ألقيناه في مساره، فتفجّرت كلها، صانعة فجوات كبيرة.. فجوات أشبه ببالوعات هائلة، ابتلعت كل كمية السائل، وصنعت منها بحيرات حارقة، سرعان ما ستمتصها الأرض، وتختفي، في غضون بضعة أشهر.

ثم ابتسم ابتسامة كبيرة، مضيفاً، وهو يحتضن (مارا) في ارتياح:

– المهم أنكم نجوتم.

تنهّد (كوناد) في ارتياح، قائلاً:

– بفضلك.

هزّ (عزت) رأسه في قوة، وقال:

– بل بفضل ومشيئة الله سبحانه وتعالى.

قال (كوناد) في سرعة:

– لقد صلينا له.

ابتسم (عزت) في خشوع، قائلاً:

– بل تضرعتم إليه، ولكنني سأعلمكم كيف تصلون.. سأعلمكم كيف تشكرون الله سبحانه وتعالى، على نعمه التي لا تحصى.

ربّت (كوناد) على كتفه، وابتسم وهو يقول:

– بعد أن تتزوّج (مارا).. أليس كذلك؟!

أجابه (عزت):

– سأتزوّج (مارا)، وأعود معها إلى عالمي.

ارتد (كوناد) في حركة حادة كالمصعوق، وهو يقول في ارتياع:

– تعود إلى عالمك؟!

أجابه (عزت) في انفعال:

– نعم.. رجال (فورباد) كلهم استسلموا بإرادتهم، بعد مصرع الفوهلر؛ فقد أرهقهم الخضوع وأرهقتهم الدموية لفترة طويلة، وطاقم العلماء أخبرني أن لديهم طاقة تكفي لفتح ثغرة محدودة، تعيدني إلى عالمي، ولابد وأن يحدث هذا خلال ساعات، وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد، ففشل الغزو واستنفد كل طاقة (فوربادا).

بدا (كوناد) مصدوماً، وهو يقول في أسى:

- هذا حقك.

ولكنه لم يبدُ سعيداً..

أبداً..

"ولكننا ما زلنا نفتقر إلى التفاصيل..".

نطق القائد المصري العبارة، في شيء من الصرامة، فانعقد حاجبا (فراس)، وهو يقول:

- أي شيء تنشدونه، أكثر مما بلغكم.. لقد انتهى الغزو، وربحنا المعركة، بمعاونة تلك الأجسام الطائرة المجهولة، التي ظللنا نحاربها زمناً طويلاً، وزال الخطر.. في المرحلة الحالية على الأقل، وطيارو السرب السادس أكّدوا أن مخلوقات تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية لم يختطفوهم لدراستهم، ولا للإساءة إليهم، بل لتدريبهم، بوسيلة عقلية مدهشة وسريعة، على كيفية مواجهة التنانين والعمالقة الآلية، كما زوّدوا مقاتلاتهم بأسلحة إشعاعية حديثة، توقّفت كلها عن العمل، فور رحيل تلك الأجسام، كما لو أنها كانت تستمد طاقتها منها.

سأله الكويتي:

- وماذا عنك؟!

ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول:

- ماذا عني؟!

قال الكويتي في اهتمام:

- بم أخبرك ذلك المخلوق؟!

صمت (فراس) لحظات، قبل أن يجيب في توتر:

- لم يخبرني شيئاً.. لقد لمس صدري فحسب.

تبادل القادة الثلاثة نظرة صامتة، ثم سأله المصري:

- وهل تعتقد حقاً أن الغزو قد انتهى؟!

قال في ضيق:

- لماذا فعلوا ما فعلوه إذن.. لو أنهم أرادوا الانتصار علينا، والسيطرة على الأرض كلها، لما كلّفهم هذا سوى الوقوف صامتين.

سأله السعودي في صرامة:

- وماذا لو؟!

قاطعه (فراس)، متجاهلاً فارق الرتب:

- لا مجال هنا للتخمينات أو المخاوف.

صمت الثلاثة، وهم يحدّقون فيه في دهشة، فاستطرد، في شيء من العصبية:

- كنا نواجه نهاية البشرية، على كوكب الأرض، ومن حسن حظنا أن وجدنا حلفاء من كوكب آخر، أنقذوا حضارتنا من الزوال، وينبغي أن نبحث عن وسائل لتوطيد علاقتنا بهم، وليس عن مخاوف؛ لتبديد الوقت في مناقشتها.

واصل الثلاثة صمتهم، قبل أن يتهامسوا بضع لحظات، ويقول المصري في حزم:

– فليكن أيها العقيد.. سنغلق الملف مؤقتاً، عند هذه المرحلة، ولكن مسئول الشئون القانونية سيمرِّر عليكم جميعاً إقراراً لتوقيعه، أوَّلاً.

سأله (فراس)، في حذر متوتر:

– أي إقرار هذا؟!

أجابه الكويتي في صرامة:

– إقرار بالصمت، وبعدم نشر ما حدث، أو الإشارة إليه، في أية وسيلة إعلامية، أو عامة، أو حتى علمية، وعدم التحدُّث عنه مطلقاً، كأن لم يكن.

فغر (فراس) فاه في دهشة، وقال في استنكار:

– سنخفي أمر غزو كامل.

قال السعودي، بمنتهى الصرامة:

– بكل وأدق تفاصيله.

هتف (فراس) في غضب:

– ولكن لماذا؟

مضت لحظة من الصمت، وكأنما ينتظر كل من القادة أن يبدأ زميله الحديث، ثم لم يلبث المصري أن قال:

– هذا أمر اتفقت عليه معظم الدول، فلو أنك أخبرت العامة عن وجود مخلوقات عاقلة، في كواكب أخرى، قادرة على الوصول إلينا، في أجسام طائرة مجهولة، أو على محاولة غزونا من عالم موازٍ، سيصابون بالرعب والهلع،

وسيقدمون على أفعال مجنونة، بهذين الدافعين، فقد تندلع مظاهرات عنيفة، وربما يهاجمون مراكز السلطة، ويحطمون المنشآت والممتلكات الخاصة، بالإضافة إلى أنهم لن يشعروا بالأمان بعدها قط، لذا فأفضل ما يحدث لهم هو أن يجهلوا ما يحدث تماماً، أو يتشككون فيه على الأقل، فيفتقرون إلى الدليل، ويدور بينهم جدل لا ينتهي، ولا يحسم أية أمور.

غمغم (فراس) في حنق:

– إذن فهذه هي السياسة دوماً.

أجابه السعودى:

– منذ سقوط ذلك الطبق الطائر في (روزويل).

أشار (فراس) بيده، قائلاً:

– ولكن ماذا عن الطيارين، ورجال وجنود القوات العربية المشتركة.. إنكم لن تستطيعوا تكميم كل الأفواه، مهما فعلتم.

قال الكويتي صارماً:

– لا تقلق نفسك بهذا الأمر، لقد تعاملنا معه جيداً؛ فالطيارين أقسموا على كتمان السر، باعتباره سراً حربياً، وكذلك قادة الجيوش المشتركة.

سأله في ضيق:

– وماذا عن الجنود؟!

ابتسم القائد المصرى، قائلاً:

– اطمئن.. لقد أحلناهم جميعاً للطب النفسي، بحجة أن ما شاهدوه سيحطم معنوياتهم حتماً، وهناك شهادات رسمية الآن، تحدِّد موعد دخولهم إلى المصحات النفسية، وسيتم استخدامها، لاتهامهم بالهلوسة والجنون، إذا ما حاول أحدهم فضح الأمر.

عض (فراس) شفته، قائلاً:

– يمكننا إذن أن نعتبر أنفسنا محظوظين؛ لأننا لم نحصل على شهادة مثلها.

قال السعودي في صرامة:

– بالضبط.

أومأ (فراس) برأسه في مرارة، فقال الكويتي، في صرامة أكثر:

– أفضل ما تفعله الآن أيها العقيد، هو أن تنسى ما حدث خلال الفترة الماضية تماماً، وأن تمضي في حياتك، وكأنه لم يكن.

تمتم (فراس):

– بهذه البساطة.

قال المصري:

– ابذل قصارى جهدك.

أومأ (فراس) برأسه مرة أخرى، وقال في مرارة أكثر:

– سأحاول.

لم تفارقه تلك المرارة قط، حتى التقى بكبير العلماء في المساء، واستقبله الرجل في لهفة، متسائلاً:

– ماذا فعلت؟!

أشار (فراس) بيده، مجيباً:

– كما توقَّعت أنت تماماً.. طلبوا مني أن أنسى.

صمت كبير العلماء مصدوماً بضع لحظات، ثم أشاح بوجهه، متمتماً:

– من يدري؟!.. ربما كان هذا أفضل.

قال (فراس) في ضيق:

– وهل تستطيع أنت أن تنسى؟!

زفر كبير العلماء زفرة ملتهبة، وأجاب في اقتضاب:

– مستحيل!

وصمت لحظة، ثم قال في اهتمام، وهو يعود ببصره إلى (فراس):

– هل أخبرتهم بما عرفته؟!

هزَّ (فراس) رأسه نفياً، وقال:

– لا يستحقون أن يعرفوا.

مطَّ كبير العلماء شفتيه، وأومأ برأسه، قائلاً:

– ربما كان هذا أفضل أيضاً.

تراجع (فراس) في مقعده، وانعقدت شفتاه في شدة، وهو يسترجع تلك

الرسالة القصيرة، التي اخترقت عقله، عندما مس ذلك الكائن صدره..

"أنتم منا، ونحن منكم"..

لقد فهمها هو على الفور..

ولكن القادة لن يفهموها..

أبداً..

"هل تعتقد أن هذا يمكن أن يتكرّر؟!.."..

ألقى كبير العلماء سؤاله في اهتمام، فهزّ (فراس) رأسه نفياً في بطء، وقال:

- ليس في الوقت الحالي على الأقل.

سأله كبير العلماء في أسف:

- وهل سنفقد (عزت)؟!

اعتدل (فراس)، وهو يقول في دهشة:

- ما الذي جعلك تتذكّره الآن؟!

هزّ كبير العلماء رأسه، وقال في مرارة:

- لم ننسه أبداً!..

ثم شرد ببصره وأفكاره لحظات، قبل أن يضيف، مواصلاً شروده:

- وما زلنا نتساءل: هل سيعود يوماً؟!

في نفس اللحظة، التي نطقها فيها، كان (عزت) يقف مع (مارا)، أمام

(كوناد) و(آجور) ورجال المقاومة وشعب القرية، في واحدة من قاعات (فوريـانا)، التي كان الكل يخشى مجرّد الاقتراب منها قديماً، ومعهم رقم واحد ورجاله، وأطقم العلماء، و(عزت) يقول في ارتياح:

- الآن استقرّت الأمور في عالمكم.. الكل هنا كان يكره عصر الفوهلر وديكتاتوريته، ومع سقوطه بدأ عصر جديد.. الكل هنا، بقيادة رقم واحد، سيتعاون معكم، حتى تستعيدون هويتكم، ولغتكم وعالمكم.

راح (كوناد) يترجم حديثه للباقين، الذين بدوا شديدي الحزن والقلق، وقال أحد العلماء في اهتمام:

- ينبغي أن تستعدا للانتقال.. إننا نحشد الطاقة اللازمة، وليست أمامكما إلا فرصة واحدة.

وتمتم رقم واحد في توتر:

- أسرعا.

ضمّ (عزت) (مارا) إليه، وقال:

- أنا وزوجتي (مارا) سنرحل إلى عالمي، أما أنتم، فتحتاجون من يقودكم ويرشدكم، ولن تجدوا أفضل من (آجور).

اعتدل (آجور) بقامته الممشوقة، فور سماعه اسمه، فتابع (عزت)، وهو يضع يده على كتفه في مودّة:

- إنه أشجع وأبرع وأقوى فارس عرفته، في عالمكم، وفي حياتي كلها.

ربَت (آجور) عليه، وانحنى يطبع قبلة وداع، على جبين (مارا)، التي تفجّرت الدموع من عينيها، وتعلّقت بعنقه، ودفنت رأسها في صدره القوى، تغرقه بدموعها، فاحتضنها في حنان، وراح يتحدّث إليها بكلمات لم يفهمها (عزت)، في حين قال (كوناد) في أسى:

- لا تجعل هذا الهدوء الحالي يخدعك أيها النقذ.. النفس البشرية لا تختلف، من عالم إلى آخر.. ربما يسود السلام فترة محدودة، ولكن سرعان ما يظهر ديكتاتور آخر، ويحاول السيطرة، مستغلاً فارق القوة، وتعود الحروب مرة أخرى.

نظر إليه (عزت) في قلق، فأضاف في مرارة:

- شهوة السلطة لا تفوقها أية شهوة.

هتف العالم، في هذه اللحظة:

- حشد الطاقة قارب الانتهاء.. أسرعا.

التفت (عزت) إلى جموع الشعب، وهو يقول:

- صدقوني.. سأفتقدكم كثيراً.

ظلوا واجمين، يتطلّعون إليه في صمت تام، فلوّح لهم بيده، ثم جذب (مارا) في رفق، وهو يغمغم:

- الوداع.

اتجهت معه إلى نسخة مصغرة من أجهزة الانتقال بين العالمين، وبدأ العلماء يضغطون أزرار أجهزتهم، استعداداً لنقلهما، في حين بدت هي خائفة،

وبدا (آجور) حزيناً، وتابعهما (كوناد) في أسى..

أما أفراد الشعب البدائيين، فقد ركعوا على ركبهم، ورفعوا أيديهم في الهواء، مردّدين في آن واحد:

- (سافور)... (سافور).

هتف (عزت) في ضيق:

- أخبرتكم أن الركوع والسجود لله وحده.

بدا وكأنهم لا يسمعونه، وهم يردّدون الاسم طوال الوقت، في خشوع ضايقه، في حين قال رقم واحد في شيء من الخشونة، وكأنما لا يروق له الموقف كله:

- اسرعا، وإلا ستبقيان هنا إلى الأبد.

دفع (مارا) المرتجفة داخل الجهاز، ولحق بها، فتشبثت به في خوف، والتصقت به مرتجفة، فضمّها إليه، وهو يتمتم:

- لا تخافي يا حبيبتي.. لا تخافي.

بدأت إجراءات نقلهما إلى الأرض بالفعل، وراح الجهاز يرتج في بطء..

وكذلك عقل (عزت)..

كان يتطلّع إلى (آجور) و(كوناد) والباقين، وهو يسترجع كل الأحداث الماضية..

ويا لها من أحداث!..

ويا لها من نهاية أيضاً!..

لقد جاء إلى عالم عجيب، هو مزيج من عالم الأساطير، والخيال، والتاريخ..

عالم من الحروب..

والطغيان..

والفوضى..

وهنا، تحوّل إلى شخص آخر تماماً..

شخص يقاتل..

ويحارب..

ويقود..

وينتصر..

شخص لا يشبه حتى ذلك الذي تركه خلفه في عالمه..

شخص أحبه، كما لم يحب نفسه من قبل..

وفي حسرة، تطلّع إليهم..

كانوا راكعين أمامه، ويرددون اللقب، الذي أطلقوه عليه، في خشوع عجيب..

وهذا خطأ..

ينبغي ألا يركعوا إلا لله الواحد القهار..

لله الذي خلقهم، وأنعم عليهم بهذا النصر..

لقد علمهم الصلاة وبعض القرآن، ولكنه لم يعلمهم كل شيء بعد..

ما زال هناك الكثير ليتعلموه..

الكثير جداً..

راح الجهاز يرتج بسرعة أكبر، وعقله يرتج معه، على نحو عجيب..

في هذا العالم فقط، شعر بأهميته، وقيمته، وقدرته على أن يصبح مصدر نفع وفائدة للآخرين..

هنا فقط، تحوّلت مبادئه إلى حقيقة، وقاتل من أجل الحق..

والحرية..

والديمقراطية..

والحياة..

هنا فقط شعر أنه منقذ..

منقذ حقيقي..

"دقيقة واحدة، ويحدث الانتقال..".

انتزعته عبارة العالم من أفكاره، فالتفت إليه بشيء من الارتياح، ورقم واحد يغمغم في ترقّب متوتر:

- هيا.

والتفت (عزت) إلى الجميع مرة أخرى..

والتصقت به (مارا) في خوف أكثر، و...

"توقّف"..

صرخ (عزت) بالكلمة في انفعال، فارتسمت الدهشة على وجوه الجميع، وقال رقم واحد في عصبية:

- التوقف الآن، ربما يضيع فرصة عودتكما إلى الأبد.

هتف (كوناد) في لهفة:

- وتبقيان هنا.

صرخ (عزت) مرة أخرى:

- قلت توقّف.

تردّد العالم المسئول عن الجهاز، في تنفيذ الأمر، ولكن (آجور) سحب سيفه، ووثب يضعه على عنقه، صارخاً بكلمة لم يفهمها العالم، وسحب رقم واحد ورجاله أسلحتهم، وتوتر الموقف كله في لحظة واحدة، فرفع (كوناد) يده، قائلاً:

- لا قتال.. فقط أطيعوا أمر (سافور).

ضغط العالم زر الإيقاف، فتوقّف الجهاز عن الارتجاج، وأطلّت لهفة فرحة من عيني (مارا)، فابتسم لها (عزت)، قائلاً:

- سنبقى.

لم تفهم أذناها الكلمة، ولكن قلبها فهمها، فصرخت بكل فرحتها، وتعلّقت بعنقه، وراحت تمطر وجهه بالقبلات، في حين نهض الجميع، ورفعوا أيديهم، يصرخون بالفرحة..

وابتسم (كوناد)، على الرغم من قلقه، من صمت رقم واحد ورجاله..

لقد تحقق ما تمناه دوماً..

وبقى المنقذ..

بقى لأنه الوحيد، بعد الله سبحانه وتعالى، القادر على أن يقودهم إلى عالم جديد..

إلى الحضارة..

والحق..

والحرية..

ولقد اتجه إليه (عزت)، وهو يضم (مارا)، ومد يده يصافحه مبتسماً..

وابتسم (آجور) بدوره، عندما رآهما يتصافحان في قوة..

وجن الشعب من فرط سعادته، على الرغم أيضاً، من صمت رقم واحد ورجاله، ووجومهم..

فالآن فقط، أصبح هناك أمل في مستقبل جديد..

في التطور..

في الحرية..

في عالم جديد..

هناك في الظل..

ظل الأرض.

• • •

(تمت بحمد الله)